رواية

سُكَّان أطلَس

آخِر سآكِن

حسام حسن الصافى

Dwellers Of Atlas

رواية

سُكَّان أطلَس

"آخِر سَاكِن"

حسام الصافي

رواية: سكان أطلس "آخر ساكن"
المؤلف: حسام حسن الصافي

رقم الإيداع: 2023/16409
الترقيم الدولي: 1-6821-94-977-978

مقدمة

لا بد أن هذا هو المكان، لكن لا تزال الإحداثيات غير دقيقة بالمرة، إذ كانت الإحداثيات تشير إلى بحيرة كبيرة فحسب، ولم أرَ في تلك البحيرة سوى مركبًا شراعيًا واحدًا يبدو صغيرًا من تلك المسافة.

وعلى نفس الشاطئ الذي أقف عليه كان منزلًا من ثلاثة طوابق يقف داخل الماء على عدة أعمدة خشبية أساسها في المياه الضحلة، ويتصل باليابسة بممر خشبي طويل، بدا السبيل الوحيد إلى المنزل، ويخرج من المنزل إلى داخل البحر؛ ممشى آخر يبدو كمرفأ صغير.

شعرت بالضجر فاتصلت بالرجل الذي أخبرني بالمجيء إلى ذلك المكان النائي، لكن لم يكن هناك أي إشارة، فقررت التوجه إلى المنزل لربما يكون منزله، سِرتُ على الممر الخشبي بحذر وطرقت الباب عدة مرات فلم ينفتح، تفقدت داخل المكان من النوافذ فبدا خاليًا، ودُرت حوله لأجد بابًا آخرًا يواجه البحر والمرفأ، فطرقته من دون إجابة، فعدت وجلست على المرفأ الصغير أدلي ساقي في الماء.

وبدافع المزيد من الملل أخرجت هاتفي وعدت أتصفح محادثتي القصيرة معه، كان اسمه دكرور، فقط دكرور، أغرب اسم سمعته في حياتي، لا يبدو اسمًا مكسيكيًّا أو أمريكيًّا، ممكن أن يكون اسمًا للهنود الحمر من سكان أمريكا الأصليين، بحثت عن ذلك الاسم فلم أجد عنه سوى أنه اسم جبل في مصر، فلم أزدَد سوى حيرة.

صورته الشخصية كانت وهو يقف على مركب ويرفع يدًا تشير إلى حوت معلق في الهواء يبدو كما لو كان طار من الماء فقط لأخذ الصورة معه، ورغم أنها تبدو واقعية في ظاهرها، إلا أنه من المؤكد أنها معدلة بطريقة ما، إذ يصعب تصديق أنه انتظر حوت يطير من الماء بجانب

المركب لالتقاط صورة كهذه، فرصة كتلك لأخذ صورة تبدو مستحيلة، وذلك مما جعلني أزداد يقينًا بأنه محتال آخر.

لكن المحتال هذه المرة مهووسًا بالحيتان بشكل خاص، فقد أخبرني أنه قد عاش في بطن حوت لبضعة سنوات في منتصف القرن التاسع عشر، كما أني قمت ببحث بسيط عن ذلك المكان قبل أن أصل إليه، "بحيرة سان إجناسيو"، لم أجد في ذلك المكان ما يثير اهتمامي، فقط أنه مكان توالد ومرتعًا لنوع من الحيتان تسمى الحيتان الرماديّة، يأتي السياح إليه لمشاهدتها فحسب، وذلك الرجل دكرور يعمل كمرشد لمشاهدة السياح لتلك الحيتان.

كنتُ قد سألت في أحد مواقع التواصل: لم قد يعيش المرء مائة وثلاثين عامًا دون أن يشيخ؟، جاءني الرّد من ذاك الرجل أنه يعرف الإجابة دون أن يخبرني بها، وحين سألته: كيف ذلك؟، لم يرُد، وحين سألته: كيف تعرف ذلك؟، أخبرني أن عمره مئتان عام ولا يزال يبدو في عقده الرابع، بل إنه يبدو أصغر في الصورة، كما أنني رغم أن عمري أكثر من مائة وثلاثين عامًا؛ إلا أني أبدو كأني خرجت من مرحلة المراهقة لتوّي.

أخبرني الأطباء أني لدي معدل نمو بطيء جدًا يتراوح بين خمس إلى عشر سنوات كل سنة، وتعجبوا من أني لست قزمًا بل كنت أنمو لأصبح رجلًا طبيعيًا مكتملًا، فقط سيستغرق الأمر أكثر من الطبيعي، جعلني ذلك أقدر أن عمري يتراوح بين مائة وخمسين ومائة وثلاثين عامًا، من دون أم أو أب ليخبرني بيوم ميلادي، مؤكد أنهما قد ماتا قبل أن أعيهم، فقد كنت في هيئة تسمح بدخول المدرسة وقد تخطيت الخمسين، وطوال النصف الأول من القرن العشرين كنت أبدو في بداية مرحلة المراهقة، كما أخبرني الأطباء أيضًا أن لدي طفرة تجعلني لا ينمو لي شعرًا أبدًا، فكنت دائمًا ما أضع شعرًا وحواجب مستعارين.

ومنذ أن بلغتُ أشدّي وأنا أبحث عن سبب مقنع لكيفية العيش لهذه المدة، فقط بعض المحتالين كانوا يضعون نظرياتهم الخاصة، أحدهم أخبرني أن

أمي ولدتني في بحيرة ماء الحياة، وآخر يقول أنه لا شك أن أحد والدي كان ملاكًا، وآخر يدعي أني نفسي ملاك، وآخر قال أني شيطان، وآخر قال أن هناك روحًا شيطانية قد انتقلت إلى ذلك الجسد، وها أنا بصدد محتال آخر لديه كذبة أخرى.

عدت أقرأ رسالته التي قرأتها عشرات المرات دون أن أستوعبها أو أفهم معناها: "تقول المصادر الموثوقة التي لا شك في صحتها؛ أنه في زمنٍ بعيد كان هناك نبي اسمه يونس قد مكث بداخل بطن حوت لأيام، لكن لا يوجد شيء يقول أنه كان آخر من فعل ذلك، أو أن ذلك الحوت كان الوحيد الذي بإمكانه فعلها. فإذا تجرأت وارتكبت المعصية، فلا تتجرأ وتركب البحر، لا تظن بذلك أن تنجو وتهرب من القصاص، ربما إن هربت إلى أرض أخرى ستفلت، لكن في البحر ينتظركَ الجلاد...

توقفت عن القراءة حين سمعت صوتًا آتيًا من الماء، لم أتبينه ولم أفكر في ماهيته، حتى عاد يتكرر ورأيت مصدره، كان حوتًا ينفث عمودًا من البخار الأبيض كنافورة، أعجبت بشدة لرؤيته رغم أني قد رأيت الكثير من الأشياء العجيبة على مدار أكثر من قرن، إلا أنني لم أرَ حوتًا بعيني من قبل، وأثناء ما كنت أتتبعه بإعجاب سمعت من ورائي صوتًا آخر آلفه، صوت خطوات إنسان.

كان رجلًا قد خرج من المنزل حاملًا حقيبة على ظهره ويجر أخرى وراءه كأنه مسافر، ويبدو أنه لم يلحظني أجلس على الممر، فنهضت إليه واستوقفته:

- مهلًا!.. يا سيد!

التفت الرجل وعقد حاجبيه يحدجني باستغراب شديد وقال:

- ماذا تفعل هنا؟ من أخبرك أن تأتي هنا؟

كان رجلًا آسيويًا ليس فيه ما يميزه سوى أنه كذلك، ثم أشار إلى المركب الذي في البحر وأردف:

- لقد فوّتَّ الموعد، الرحلة خرجت بالفعل!
- أي رحلة؟! لقد جئتُ لأرى السيد دكرور
- دكرور؟؟!!

قالها بتعجب شديد حتى أنني ظننت أني قد أخطأت في هجاء ذلك الاسم الغريب، لكن قلت بثقة:

- نعم دكرور! هل تعرفه؟ هل يعيش هنا؟
- دكرور!... دكرور هو من أخبرك أن تأتي إلى هنا؟

قالها يتساءل مع نفسه، ثم قال كأنه تذكر شيء:

- معذرةً! ماذا قلت اسمك؟

فكرت "لم أقل"، وقلت:

- إدوارد براون.. نادني إدي!

فصافحته، ثم قال بعد تفكير وتردّد:

- يوزي!.. لحظة من فضلك!

وابتعد يتكلم في هاتفه وهو ينقل بصره بيني وبين المركب في الماء، ثم عاد وقال وقد بدت عليه السعادة:

- معذرةً يا سيد إدي! سيأتي أحدهم ليقلّك، يجب أن أذهب الآن...
- مهلًا! هل هذا فندق أو ما شابه؟
- لا، ليس تمامًا، وداعًا يا إدي!

"يبدو رجلًا طيبًا" فكرت في ذلك وعدت أجلس على المرفأ أشاهد البحر بحثًا عن حيتان أخرى، إلى أن لاحظت قاربًا صغيرًا بمجدافين يقترب من ناحية المركب الشراعي الكبير.

جاء سريعًا رغم أن رجلًا واحدًا هو من كان يجدف، ورسا به إلى المرفأ وصعد منه الرجل، وهذا أيضًا لم يكن دكرور، إذ كان رجلًا من أصول

إفريقية رفيع وطويل، كان وسيمًا ويعتمر طاقية لم أرَ شعرًا تحتها، جاءني يبتسم وقال وهو يمد يده للمصافحة:

- مرحبًا أنا سام**!**، وأنت يجب أن تكون إد...
- إدوارد براون.. نادني إدي**!**
- إدي؟**!!** حسنًا**!** فليكن إدي إذًا.. من بعدك يا سيد إدي**!**

نزلنا إلى القارب، وبدأ سام يجدف وحده بعد أن عرضت عليه المساعدة ورفضها باحترام، فجلست أمامه وقلت:

- إذًا أنت تعرف دكرور؟
- نعم، نحن أصدقاء
- إذًا أي نوع من الأسماء هذا الدكرور؟**!** أليس له اسم أخير حتى؟

ردّ سام باقتضاب لكن لا تزال الابتسامة على وجهه:

- إنه ليس لديه اسم ثانٍ حتى يكون لديه اسم أخير

تعجبت من الإجابة كثيرًا فسكتُّ بعدها، ثم سرعان ما رأيت نفثة حوت أخرى، فأشرت إليها بانفعال فقال سام:

- سترى الكثير منها في الأيام القادمة**!**

وصلنا إلى المركب بسرعة ولاحظت أن عليه اسم "أطلس"، فصعد سام أولًا ثم ساعدني، وربط القارب بمؤخرة المركب، وقاد الطريق إلى المقدمة، ولم يكن المركب أفضل حالًا من القارب الصغير، فقد كان متهالكًا وكل خشبة فيه تصدر صريرًا.

كان هناك ما بدا كمنصة لها سور صغير تخرج من ميسرة المركب، يقف عليها حوالي عشرة أشخاص منهم بعض الأطفال، وجميعهم يرتدون سترات النجاة إلا واحد، وبعضهم يخرج نصف جسده خارج القارب وبعضهم الآخر يلتقط الصور، فعلمت أنه السياح.

كل ذلك لم يلفت انتباهي بقدر الحيتان التي حول المركب، أربعة أو خمسة ربما أكثر، كانوا يسبحون حول تلك المنصة ويُخرجون رؤوسهم الضخمة بجانبه، ويعانقهم الأطفال والكبار ويربّتون على رؤوسها، وأثناء ما كنت أشاهد بدهشة وإعجاب قال سام:

- هل تريد أن تراهم عن قرب؟

وافقت بعد تردّد، فنزل أولًا وتبعته فزلّت قدمي لأستقر على المنصة محدثًا صوتًا لم يلفت انتباه السياح إلا ذلك الذي لا يرتدي سترة نجاة، التفت إليّ ورفع نظارته الشمسية على جبهته يرمقني في ثبات، وكان هو دكرور.

أول ما لاحظته فيه هو أنه يضع عدسات لاصقة على عينيه، ثم لاحظت أنه يبدو فعلًا في عقده الرابع، إلا عينيه يبدوان في عمر المئتين، كانتا عميقتان جاحظتان بعض الشيء ما حولهما أغمق بقليل من لون بشرته الخمري الفاتح، يوجد القليل من الرمادي على جانبي شعره، لكن لحيته الخفيفة فيها من الرمادي أكثر من الأسود.

ظل يحدجني في ثبات دون أي تعبير على وجهه، حتى أصبح الأمر غير مريح، وأصبحت متردّدًا من أن أقدم له نفسي، حتى قال وهو لا يزال يثبت عينه عليّ:

- حسنًا أيها الرفاق! لقد انتهينا.. أرجو أن...

قاطعَته غمغمات الامتعاض وصيحات الاعتراض من الأطفال، وأنا نفسي شعرت بالخيبة بدون سبب، ثم قال جميعهم بصخب:

- مرة أخيرة فقط! لن نعود إلا بعد أن نراها مرة أخيرة!

هدأهم دكرور وقال بابتسامة:

- حسنًا! ولكن ستساعدوننا تلك المرة

علت هتافات الفرح من الجميع، ووقف دكرور عند حافة المنصة وسط البقية عن يمينه ويساره، ووقفتُ بجانب سام عند طرفها، ثم قال دكرور:

- حسنًا مثل المرة السابقة

وحنى جسده من سور المنصة ووضع كفه في الماء كأنه يغترف منه وفعل الجميع المثل، وفعلتُ مثلهم في استغراب وإعجاب، ثم قال دكرور:

- مستعدون! مستعد يا سام!

رفع إليه سام إبهامه، فأردف:

- عند العد ثلاثة! واحد.. اثنان...

قال لي سام:

- شاهد هذا!
- ثلاثة!

قالها دكرور ورفع كفه عن الماء إلى السماء وفعل الجميع المثل، وفي نفس اللحظة خرجت ثلاثة حيتان عملاقة تطير من الماء، ليبدو الأمر كأننا رفعناها بأيدينا المجردة، ثم عادت تهوي في المياه بعنف محدثة اضطرابًا هائلًا فيها حوّلت سطحها إلى زبد أبيض.

ووسط ذهولي وخوفي الذي يثير الأدرينالين في عروقي؛ كان باقي السياح يصفقون بأيديهم ويصيحون بسعادة، ودكرور ينحني إليهم بحركات مسرحية كأنه انتهي من فقرته في عرضًا سحريًا.

لا أنكر إعجابي الشديد بالأمر، وأن ذلك الدكرور الغريب قد أثار اهتمامي وفضولي، كما لا انكر بعد ما رأيت؛ أن صورته الشخصية من الممكن أن تكون حقيقية وليست معدلة.

وعاد الجميع إلى متن المركب على مضض، ثم أبحر به دكرور وسام لكن لم يعودا إلى المنزل، بل أبحرا حتى خرجا إلى مياه المحيط، ومنه إلى بحيرة أخرى، حتى وصلا إلى مرفأ آخر أكبر عنده مخيم صغير وسيارات، فنزل السياح وهم يودّعون دكرور وسام بحماس، ثم لم يبقَ على المركب سوى نحن الثلاثة.

كانا يتكلمان بعيدًا عني ويبدو عليهما العصبية وهما ينظران إليّ من حين لآخر، ثم جاءني دكرور وهو يمد إليّ يده ويقول:

- معذرةً يا سيد...

صافحته فسكت فجأة، وظل ينظر إلي ويتفرّس فيّ كأنها أول مرة يرى إنسان، فقلت قبل أن يصبح الموقف أكثر غرابة:

- أنا سعيد لأننا تقابلنا أخيرًا يا سيد دكرور!
- أه! وأنا أيضًا... دعني أدعوك إلى العشاء اليوم يا سيد إد، وسنتكلم حينها
- حسنًا.. لا بأس!

بدا دكرور مشتتًا وحائرًا بعض الشيء، وعاد إلى سام يتكلمان، ثم أبحرا عائدين إلى المنزل.

المنزل واسع من الداخل وهادئ ومريح ذو أثاث بسيط وجميل، والنوافذ تطل على المياه كأنك في مركب في عرض البحر.

قال سام:

- يبدو أنك متعب يا إدي، دعني أدلك إلى غرفتك
- هل هذا فندق؟
- لا، ليس تمامًا..

وتبعته إلى أعلى فقال دكرور بابتسامة غير واثقة:

- أراكَ على العشاء!

قادني سام إلى غرفة من أربعٍ في الطابق الثاني، وقال:

- إذا احتجت أي شيء سأكون في الغرفة المقابلة

كانت غرفة صغيرة جدًا تبدو ملكًا لأحد من قبل، وأكثر ما أثار انتباهي كانت شعورًا وشوارب ورموش وحواجب مستعارة بشتى الأشكال والألوان، وإذ كنت مرهقًا جدًا فلم ألقِ لذلك بالًا، ونلت قسطًا من النوم

واستيقظت بعد أن أتى الليل، فنزلت إلى أسفل ولم أجد سوى دكرور جالسًا في هدوء تام وفي ظلام شبه تام فبدا كأنه يتأمل، فتعمدت أن أقطع عليه تأمله وسعلت فالتفت إلي وحيّاني بإماءة وابتسامة، بادلته التحية وجلست بالقرب منه، وسألته بعد مدة:

- من أين أنت يا دكرور؟
- مصر

قالها باقتضاب كأنه يتعمد إسكاتي ولم ينبس أحدنا بكلمة بعدها، ورغم تعجبي إلا أني فكرت "حسنًا هذا يفسر الاسم".

ثم قال دكرور بعد مدة طويلة من الصمت كأنه انتهى من تأمله:

- أرجو أن تكون استمتعت اليوم يا إدي
- أه! أنا لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا
- حقًا؟! أعتقد أن هذا ممتع بالنسبة لأحدٍ قد عاش...
- مائة وأربعين سنة، أكثر أو أقل عشر سنوات
- أه! كدتُ أنسى...

قام دكرور وجلب شيئًا من على الطاولة وقدمه إلي وقال:

- العشاء!

كان العشاء عبارة عن بيتزا باردة، ورغم أنني لم أكن جائعًا جدًا إلا أني كنت ممتنًا جدًا، فشكرته وأكلت في صمت، حتى عاد يقول:

- ومن أين أنتَ يا إدي؟
- الولايات المتحدة

زفر ضحكة ساخرة وقال:

- أه! لم أكن واثقًا من أنك سوف تأتي
- ولا أنا.. أرجو ألا يكون ذلك مضيعة لوقتي
- أنا أعلم لمَ جئتَ يا إدي، لكن لا أعلم بما أخبرك

- حسنًا.. أرجو أن تعرف لأني قطعت مسافة طويلة لكي أعرف أنا أيضًا
- هناك أشياء أصعب من أن تقال، وحكايات أقسى من أن تحكى

تعجبت من الكلام الذي يبدو في غير موضعه، وقلت:

- ماذا؟!.. لكنك تعرف لماذا عشتَ مئتان عام
- مئتان وثمانية تحديدًا
- لكنك تبدو...
- في السادسة والعشرين، أو ربما أبدو في عقدي الرابع، لكن الأمر بدأ وأنا في السادسة والعشرين
- ما الذي بدأ؟

سكتَ دكرور يقلب الكلام في رأسه ثم قال:

- حياتي في بطن الحوت!

فكرت "لقد بدأ الهراء سريعًا"، فقلت مدعيًا الاهتمام:

- وهل هذا ما أعطاك تلك الحياة الطويلة؟

قال دكرور بتردد وحيرة:

- من الصعب القول.. لكن...

قاطعته:

- على حد علمي.. فأنا لم أدخل بطن حوت من قبل، ومع ذلك...

قاطعني:

- هل تحب القراءة يا إدي؟

تعجبت من تغيير الكلام المفاجئ فقلت:

- القراءة!! بالطبع!.. لماذا؟!!

قام دكرور من دون أن يرد، وصعد السلم إلى العلية، وسرعان ما سمعت جلبة آتية من أعلى، ثم عاد حاملًا صندوقًا بين يديه ووضعه على المنضدة، ثم أخرج ما به ووضعه أمامي فكانت أوراق صفراء قديمة تبدو بالية، يحتويها غلاف جلدي من دون أن يمسك الورق معًا.

قرأت المكتوب على أول صفحة "سكان أطلس"، ولاحظت أنها مكتوبة بآلةٍ كاتبة وليست مطبوعة، ثم قلت:

- ما هذا؟
- هذا ما يصعب قوله

قلبتُ أول صفحة وقرأت العنوان على الصفحة التي تليها "الأبكم"، ودون أن أقرأ ما تحته عدت أسأل:

- ما هذا يا سيد دكرور؟

قال دكرور بحماس:

- إنها مذكرات، أو يمكنك القول أنها سيرة ذاتية، أو هي قصة جزء صغير من حياتي مكتوب كرواية
- رواية!!! اللعنة! لا تقل أنها عن مغامرتك في بطن الحوت
- بالضبط!

فكرت "كان يجب أن أعلم أنك محتال آخر"، ثم قلت بيأس وضيق:

- لمَ لا تخبرني بالأمر سريعًا لكي أرحل سريعًا
- وأين المتعة في ذلك؟! كما أني لا أريد أن أحكي عن الأمر، فأنا أجيد الكتابة أكثر من الحكي

تنفست بهدوء لكي لا أنفعل وقررت أن أجاريه، فأشرت إلى الأوراق وقلت:

- إذًا سيخبرني ذلك لماذا نعيش كل هذا العمر من دون أن نشيخ؟
- سيخبرك بأكثر من ذلك بكثير

- مهلًا! لكنها قصة حياتكَ.. ما علاقتي أنا بقصة حياتكَ أنتَ؟
- لستُ متأكدًا حقًا، لكنني أعدك أنك ستجد فيها الإجابة عن أسئلتك

فكرت لمدة وأنا أبتلع قضمة أخرى من البيتزا، ثم قلت:

- إذًا هل آخذه معي أم لديك نسخة أم ماذا؟
- هل تريد أن ترحل؟ أنا أرحب بشدة أن تكون ضيفي للمدة التي تلزمك، كما أنه لا يوجد نسخة أخرى ولا أريد أن يخرج هذا الكتاب من هذا المنزل

تابعت أكلي في استغراق، أفكر في ذلك العرض بإمعان أكثر، فوافقت أخيرًا إذ لم يكن هناك ضير من المكوث لبضعة أيام أخرى وإعطاءه فرصة، فبدَت على دكرور السعادة الشديدة حين فتحت الكتاب وعدت أقرأ اسمه وسألته:

- ماذا يكون أطلس؟

تلاشى البريق من عينيه وأجاب:

- إنه الاسم الذي أطلقوه على الحوت

نجحت بصعوبة في عدم إبداء ابتسامتي الساخرة، وإن بدا التهكم في صوتي حين عدت أسأله:

- وأين أطلس الآن؟

ازدرد دكرور ريقه بصعوبة وأشار بسبّابته إلى قلبه وقال في أسف:

- إنه هنا!

لا أعلم لماذا شعرت بالأسف أنا أيضًا، فقد شعرت بالاستياء من نفسي وبالشفقة على الرجل بالرغم من أني لا أصدقه، إلا أني تعجبت من أنه يشعر بالأسف على ذلك الحوت الذي من المفترض أنه أكله واحتفظ به في بطنه، ثم قلت وقد اختفى التهكم من صوتي هذه المرة:

- ظننته أحد تلك الحيتان الذين رأيتهم اليوم على المركب

- بالطبع لا، لقد كان أطلس عظيمًا ومهيبًا، وبالطبع كان أضخم بكثير، لقد كنا اثني عشر رجلًا في جوفه
- ماذا! ألم تكن وحدك؟!

ابتسم دكرور ابتسامة طيبة وقال:

- أعتقد أنه يجب أن تشرع في القراءة الآن، وأرجو ألا تفسد متعتها بالأسئلة

ثم نهض وهو يقول:

- سأحضر القهوة!

فأخذ الصندوق وانصرف، فعدت أقرأ وبدأت بالعنوان على ثاني صفحة...

الفصل الأول

"الأبكم"

(1)

خرج من الباب الخلفي لمنزله وفكر "المنزل ليس المكان الأنسب لتذهب إليه بعد أن ترتكب الجريمة".

إذ ليس من المستبعد أن ترتكب فيه الجريمة الثانية، هرع إلى الشارع وهو يتخبط في المارة، فخلع رداءه الملطخ بالأحمر بعد أن لاحظ النظرات الخائفة التي تحدق فيه، وإن لم يعرف كيف يخفي يديه الدامية، حتى وجد دلوًا به ماء على باب منزل توقف عنده ليغسل فيه يديه، فخرجت امرأة وعنّفته قبل أن ترى وجهه وتكفهر ملامحها، فقالت بهدوء وعلى وجهها علامات الذعر:

- الأبكم!.. إنه أنت!! أنت من يبحثون عنه!!!

وقبل أن تصرخ سحب سكينه من وراء ظهره ووضعه على فمه، ثم أخرج لسانه ومرر عليه السكين كما لو كان يقطعه، في تحذير لا يحتاج إلى الكلام ليخبر أن تصمت، فتسمّرت المرأة في مكانها وظل هو يراقبها حتى يتأكد أنها قد فهمت، وتأكد بالفعل عندما أغشي عليها.

أراد أن يستكمل طريقه الذي لا يعلمه إلى الآن، فوجد رجالًا يحملون العصيان والسيوف يقتربون، فابتعد من الجهة الأخرى يحاول أن يتوارى عن كل شيء، ولسببٍ ما شعر بالراحة أنها جهة البحر، ولسببٍ ما قرر أن يذهب إلى الميناء.

وأثناء سيره المتوتّر مرّ من أمام الماخور الذي كان فيه ليلة البارحة والليلة التي تسبقها والتي تسبقها، حتى كان بمثابة منزله في بعض الأيام، وإذ كان الزبون المثالي فقد كان معروفًا في المكان، وكانت العاهرات يرحّبن به قبل حتى أن يدخل، لكن ليس هذه المرة، فحين اقترب أُغلقت

شـــرفات المكان ودخل من كان منهن على الطريق يســـتدرجنَ الزبائن، فاستوقف إحداهن كانت معه الليلة الماضية؛ بعصبية أخافتها فقالت دون أن يَسأل:

- ماذا تريد الآن؟ المدينة بأكملها تبحث عنك، وسيقتلونك إذا ما وجدوك، ارحل عن هنا!!

أخرج من رداءه عملة فضـيّة كانت آخر ما معه، وقدمها لها وهو يبتسـم ابتسامة غير واثقة، فضربت يده لتسقط العملة وتجري على الأرض، فهرع وراءها ليســتعيدها، ثم رجع إلى العاهرة ليجدها تركض إلى باب الماخور، فركض وراءها وكاد يدركها، لكنها دخلت وصفقت الباب في وجهه.

عاد إلى طريقه نحو الميناء يفكر "هذا أيضًـــا لم يكن المكان الذي تذهب إليه بعد أن ترتكب جريمتين"، وحين اقترب أن يصـــل إلى الميناء ســـمع صــوتًا يألفه طوال حياته لكن لم يكن يلقي له بالًا طوال حياته، حتى صـــار عنده مجرد إعلان عن الأوقات، أو عن مواضع الشمس في السماء.

سمع صوت الأذان في حياته ربما آلاف المرات، لكن هذه كانت أول مرة يدرك أنه يناديه، وأنه يجب عليه تلبية النداء، تتبع الأذان إلى مصـدره فوجد المسجد عن يمينه، لكن عن يساره كانت وجهته الأصلية، الميناء.

رغم أنه لم يدخله ســوى بضـــع مرات في حياته إلا أنه كان هناك جزء صـــغير مبهم في أعماقه يريده أن يفعل، ذلك الجزء الصـــغير يعرف أن المســـجد هو ملجأ لا بأس بـه لأحد قد ارتكب جريمتين أو أي عدد من الجرائم، لكن الجزء اليائس البائس منـه أخبره أنـه لا يجب أن يدخل ذلك المكان المقدس وهو غير طاهر، ولا يزال أثر الدماء على يديه، ولا يزال أثر الثمالة في عقله.

على الجانب الآخر كان البحر، وما وراءه من عوالم أخرى وبلدان أخرى وحياة أخرى، كان دائمًا ما يشــعر أن هناك شــيئًا يناديه في البحر، أو ربما هو البحر نفســه، وأن مصـيره سـيأخذه إلى مكان ما وراء البحر رغم أنه لم يركبه في حياته قط، ربما الآن الوقت الأنســب لتلبية نداء البحر والســعي

وراء مصـيره، ربما سـيأخذه إلى بلاد العثمليّة أو ربما فرنسـا أو إيطاليا أو أي مكان غير هنا، فكر في ذلك فانتابه شعور بالاطمئنان يكاد لا يذكر، لكنه كان كافيًا لأن يحسم أمره.

بدأت وفود الرجال الصـالحين بالمجيء لتلبية نداء الصـلاة، وبدأ المكان يزدحم قبل حتى أن ينتهي الأذان، لكنه قرر ألا يعبأ به كما فعل طوال حياته، وابتعد رويدًا عن المسجد إلى الميناء لتلبية النداء الآخر.

وجد الميناء هادئ جدًا بالنسـبة لوقت الظهيرة ربما لأنه موعد الصـلاة، لكن كان هناك بعض الرجال يحمّلون سـفينة بالبضـائع والأمتعة، وهؤلاء أيضًا ذهبوا حين أقيمت الصـلاة، وانتظر إلى أن أصـبح المكان شـبه خالٍ وتوجه إلى إحدى السفن.

لم تتردّد قدمه في الصـعود إلى متن السـفينة، لكن قلبه كاد أن يخرج من صدره من شدة خفقانه حتى أنه يكاد يسمعه وهو يصرخ فيه "ماذا تفعل أيها الجبان الرعديد؟! إلى أين تظن نفسك ذاهب؟ لن تجرؤ"، لكنه أبى أن يسمع خفقات قلبه وصعد على كل حال، وأول ما فعل انتابته رعشة هزّته، وشعر بالخَدَر في سـاقه، والتنميل في رأسـه، وانتابت القشـعريرة كامل جسـده، واشتدت الرياح فجأة وأظلم الجو قليلًا رغم صفاء السماء، وتمايلت السفينة فاختل اتزانه وجلس يختبئ وراء بعض الأمتعة، فتكوّر على نفسـه وانتظر أن تبحر السفينة.

ركب السـفينة دون أن يودع أحدًا، متسـللًا لم يكن معه أجرة الركوب، لم يكن معه سـوى سـكينه والملابس التي عليه، كان قلبه يرجه رجًّا، وجسـده يرتعد من البرد، ومعدته ورأسه يؤلمانه من أثر الثمالة، كل ذلك، ومع تمايل السـفينة المسـتمر، وتذكره لكل ما فعل اليوم؛ جعله يشـعر بالغثيان ويتقيأ ما في بطنه، ثم هوى على جانبه وغاب عن الوعي بجانب قيئه.

كان ذلك في أواخر العام 1840.



كان يسبح وحيدًا في المحيط.

هو كل العالم بالنسبة له، ذلك العالم الشاسع الذي لم يعلم له حدود، فلربما هناك ألف يابسة لها ألف شاطئ، لكن المياه في المحيطات كلها واحدة، بغض النظر عمّا يدّعيه المدّعون من أن هناك ثلاثة محيطات، فهو بإمكانه أن يسبح بمحاذاة أيّة يابسة وسيمر بشواطئ تلك المحيطات الثلاثة، قبل أن يجد نفسه قد عاد حيث بدأ.

ليس بعيدًا على شيء كالمحيط وهو أكبر شيء في العالم؛ أن يكون أسكن شيء في العالم، ذلك السكون السرمدي كأنه نائمًا منذ الأزل، ومهما ضربَته العواصف وحاولَت إيقاظه فهي فقط تملّس على جزء يسير من سطحه.

ربما يظن أهل اليابس أن حياة أهل المحيط كلها في الأعماق، وهذا غير صحيح، فهناك قِلّة منهم يتحتّم عليهم زيارة السطح والتعرض للهواء من حين لآخر، فهم ملعونون بذلك كأن لهم حياتين؛ حياة سمك، وحياة حيوان.

فحياته كحيوان تُحتّم عليه القيام برحلة كل فترة إلى سطح المحيط طلبًا للنَفَس من الهواء، أما حياته كسمكة فهي التي يعيش فيها في أعماق المحيط حُرًا، بل ملكًا في ذلك الجزء الأكبر والأظلم من عالمه، ليس ظلمة ليل، فالمحيط لا يعبأ بليل أو نهار، لكنها ظلمة خاصة، ظلمة رغم كل نور.

تلك القِلّة الملعونة من سُكان المحيط، وهو على رأسهم؛ لا تتنفس من الماء كالأسماك، ولا تعيش على اليابسة كالحيوانات، لكن ما يجعلهم ملعونين أساسًا هو أنهم يتشاركون ذلك الهواء وذلك النَّفَس مع كائنات أخرى هي الأكثر أنانية ووحشية وتجبّرًا وتكبّرًا، وبالنسبة له فهم الكائنات الأكثر إثارة للاهتمام.

يصادِف البشر كثيرًا أثناء سباحته بالقرب من السطح، هم أيضًا يسبحون لكن من فوق سطح الماء فقط دون أن يمسّوها، وفي حين أنهم يهلكون في

المياه، فقد أحضروا معهم قطعة صغيرة من اليابسة، دائمًا ما تبدو له كأنها تطوف في السماء على سحابة، تلك اليابسة التي يسمونها سفينة تعينهم على خوض المحيط، في تكبّر وغطرسة منقطعي النظير، وكثيرًا ما يراهم ينزلون من تلك اليابسة الصغيرة إلى واحدة أصغر، لتقرّبهم أكثر منه ومن التعساء أمثاله ممن يشاركونهم الهواء، ليس لأي شيء سوى لقتلهم.

يقتل البشر الحيتان لأسباب عديدة، لكنه مهما عَلِمَ من تلك الأسباب فلا يستوعبها حقًا، رغم أن لديه قدرة نادرة على إعمال عقله مثلهم، وهذه لعنة أخرى تجعله أكثر تعاسة وبؤسًا من كثير من الحيتان الأخرى العادية.

وكان البشر قد قتلوا كل الحيتان من فصيلته، أو هذا ما يدّعون، فعلى الرغم من أنه لم يرَ حوتًا من فصيلته يشبهه منذ أن قُتِلت أمه أمام عينيه؛ إلا أنه لا يصدق أنهم قُتِلوا حتى أُبِيدوا، فلطالما كان يشعر بهم في مكان ما بعيد في المحيط، فكل حوت ملعون بعقل يفكر هو حوت لديه القدرة على الإحساس بالحيتان الأخرى العادية من نفس نوعه، وليس مجرد الإحساس بل يتحكم فيهم بكل معاني الكلمة.

فكثيرًا ما يرى حيتان مميزة مثله وهي تُحرك حيتان أخرى عادية لكن من نفس الفصيلة، يجعلونهم يذهبون في أي مكان ويغنون لتوصيل رسالات لمكان آخر، ورغم أنه لم يقابل حوتًا من فصيلته من قبل؛ إلا أنه متأكدًا من أن لديه تلك القدرة على التحكم فيهم.

إذًا فهو حوت، وهو حوت يعقل، وهو حوت بإمكانه التحكم في حيتان أخرى، وهو حوت ضخم جدًا بشكل يفوق العادي بمراحل، لكن ليس كل ذلك ما يميزه عن باقي الحيتان الصغيرة البلهاء، فهناك قدرة أخرى هي ما يُعرَف بها وتُميّزه حقًا، أو هي اللعنة الأساسية التي يعتقد أنها السبب الأول في كل تلك اللعنات، من دون أن يعلم لها من سبب.

فهو حوت ذو جَوْف.

أي أنه ملعون برصد البشر العصاة البائسين ممن اتخذوا البحر مهربًا ممّا فعلوا على اليابسة، فيتسببون بذلك في صداع لا يطاق يصيبه ويصيب كل حوت ذو جوف مثله، بل ويجب عليه أن يبتلع هؤلاء العصاة ويحتفظ بهم في بطنه حتى يذهب ذلك الصداع، وبذلك تكتمل كل أركان اللعنة.

بدأ معه الأمر منذ زمن طويل بصُداع يهشم رأسه، كان يظن أنه بسبب العاصفة، فكان ذلك الصداع يشتد كلما اقترب من العاصفة ويخفت كلما ابتعد عنها، ومع ذلك كان ينجذب له لا إراديًا كأنه يعلم أنه سيذهب عن رأسه إذا وصل لمصدره، لكن في أحيان أخرى كثيرة يأتيه ذلك الصداع ولا تكون هناك عاصفة، لكن دائمًا ما يكون هناك سفينة بشر.

وفي مرة كان الألم في رأسه لا يطاق، والبحر ثائر، والعاصفة عارمة، وسفينة البشر في خضمّها تسابق الأمواج وتجاهد ألا تنقلب، وهو يسبح حولها يسابقها لكن دون أن يمسّها، ثم فجأة نبض شيئًا في البحر تزامنًا مع ضربة كالمطرقة على رأسه، فتوقف عن السباحة بعد أن أعيته تلك الضربة والصداع أصبح يقتله، حينها وجد أن السفينة قد انقلبت وأسقطت آلاف البشر من عليها في البحر.

ومن بين كل البشر كان واحد بعينه، شعر بأن هذا الإنسان بالذات هو مصدر كل ألم وكل صداع، والسبب في كل لعنة وكل شر في العالم، أراد أن يتركه ليغرق مع البقية، لكنه شعر أن ذلك لن يجدي في إنهاء عذابه، ثم أراد أن يقتله بنفسه، لكن ذوي الأجواف لا يفعلون ذلك أبدًا، كما أن ذلك أيضًا لن ينهي عذابه، ومن ثَمّ فكر أن يفعل الشيء الذي يعلم أنه العلاج الوحيد لدائه، والذي لم يكن يستوعبه أو يصدقه مهما أُخبِر بأنه قادر على فعله.

يعلم فقط أن أول حوت ذو جوف قد ابتلع رجلًا وأخرجه بعدها، ثم انتشر الأمر بين الحيتان الأخرى ذوي الأجواف وليس كل الحيتان، وكرروه من

بعد الحوت الأول مع بشر آخرين، لكنه لم يُرِد أن يصدق أنه أيضًا قادر على فعل ذلك.

سبح بوهن إلى ذلك الرجل وقرب إليه فمه يدفعه ويحركه به، كأنه يتأكد إن كان لا يزال حيًّا، ثم فتح فمه وأطبقه عليه وأدخله في جوفه، من دون أن يأكل له لحمًا أو يهشم له عظمًا، وما هي إلا لحظات حتى ذهب عنه الصداع.

لم تكن تلك آخر مرة يلتقم فيها رجل ولم يكن ذلك آخِر من يدخل جوفه، توالت المرات بعدها حتى صار جوفه مكتظًا بالرجال، وكوّن معهم علاقة أغرب ما تكون بين بشر وحوت، فبغضّ النظر عن أن البشر عامةً لطالما كانوا يثيرون اهتمامه؛ إلا أن هؤلاء الذين في جوفه قد أثاروا شفقته وعطفه، فأي ما قد آلَ بأي منهم إلى جوف حوت؛ لم يكن هينًا أبدًا.

وها هو إنسان بائس آخَر يخطو في البحر مسببًا له صداع آخَر يضرب رأسه، صار كثيرًا ما يبتعد عمّا يسبب له الصداع، لكن هذه المرة كان قويًّا لا يخفت مهما ابتعد عنه.



(2)

ربما لم تكن هناك فرصة ليحلم حتى، استيقظ على ركلة في منتصف وجهه جعلت أنفه ينزف على الفور، وقبل أن تتكرر الركلة أخرج سكينه بسرعة ونهض ليجد نفسه لا زال على السفينة وجميع بحارتها يلتفون حوله، كما وجد نفسه في عرض البحر وهناك يابسة بعيدة تكاد لا تُرى لم يلقِ لها بالًا، فكل ما شغله هو هؤلاء البحارة الغاضبين الذين لا يبدو أنهم ينوون خيرًا.

سحب سكينه ولوّح به أمامه وهو على أتم الاستعداد لاستخدامه، فتراجع البعض بسخرية قبل أن تهوي على يده عصا غليظة شلّت يده وأسقطت السكين منها، عادت نفس العصا تهوي على رأسه وتمكّن من تفاديها، لكن لم يكن سريعًا كفاية ليتفادى أخرى على ظهره.

وبمجرد أن سقط انهالت عليه الركلات والضربات واستمرت حتى لم يعد يشعر بجسده، ثم استمرت حتى أرهقهم ضربه، ثم استمرت حتى غاب عن الوعي مرة أخرى، كل ذلك ولم تصدر منه آهة واحدة، فهو لن يقولها وإن أراد، أو حتى وإن كان يستطيع.

لم يكن أبكمًا بالكلية فهو قادر على الكلام متى أراد، لكن كلامه كله كان همسًا خفيضًا كفحيح الثعابين، فكان من الصعب على من حوله أن يسمعوه، كما أن عملية الكلام نفسها بالنسبة له كانت تتطلب بعض الجهد وتحمل للألم في حلقه، فكان يبكي ويضحك ويتألم كل ذلك في صمت، وإذ كان الأمر كذلك منذ أن كان في الثانية عشر؛ فقد عزف عن الكلام برمّته واختار أن يكون أبكمًا بكل رضى وتواضع، رغم أنه يرى أن كلامه يعد تفضّلًا منه على من يسمعه.

هذه المرة كانت غفوة بسيطة لكنها كانت كفيلة بأن يحلم بأنه يغرق، لكنه في الحقيقة كان يُسكَب على رأسه دلوًا من الماء البارد، وشعر بقليل من الامتنان حين ساعده اثنان على الوقوف إذ لم يكن قادرًا على فعلها وحده، ثم تحوّل امتنانه إلى جحود بعد أن ربطوا يديه حول الصاري وراء ظهره.

جاءه رجلًا وأمسكه من فكه بقوة، وعلم أنه الربّان حين قال بازدراء وغضب:

- كيف صعدتَ إلى متن سفينتي دون أن يلحظك أحد؟

لم يرُد وظل يرمقه في تحدٍ، فأخرج الرجل خنجره ووضعه على رقبته وأضاف:

- قل لي ممّ تهرب وربما سأعفُ عنك

وظل يرمقه في تحدٍ وكبرياء لا يليق بأحد في مثل هذا الموقف العصيب، وعلى مثل هذا الحال الذي يرثى له، وفكر **"**لن تســـمع مني كلمة حتى وإن كنت ستعطيني حياتي في المقابل**!"**، فشدّد الرجل قبضته وضغط بالخنجر حتى جرح عنقه، وحين بدا أنه سيذبحه حقًا؛ استوقفه فتى صغير من البحارة قائلًا:

- مهلًا**!** أليس هذا هو الأبكم من يبحثون عنه؟ انظروا إلى رقبته**!** لقد قالوا أن هناك ندبة في حلقه

قال الربّان وقد تحول ازدراءه إلى تعجب:

- إذًا أنت هارب بالفعل**!**.. ألهذا الأبكم اسمًا؟
- أه كنتُ أذكره**!** اسمه غريب**!** اسمه...

أجاب رجل آخر:

- يسمونه دكرور يا سيدي.. دكرور الأبكم

شعر دكرور بقليل من الإعجاب أنه صار معروفًا لكن لم يُبدِ ذلك أيضًا، ثم قال الربّان:

- وماذا فعلتَ حتى يبحثون عنك يا سيد دكرور؟

فأدلى كل من كان له دلوًا بما فيه:

- الحكايات يشيب لها الرأس يا سيدي.. يقولون أنه قتل عائلته كلها و...
- نعم وصنع من ألسنتهم عِقدًا ووضعه حول رقبته
- لم يصنع منها عِقدًا، بل صنع منها حساءً شهيًّا وأكله...
- لا لا**!** بل قطع لسان الحلاق الذي تسبب في تلك الندبة، وأطعمه إيّاه
- إنه لم يقتل أحدًا، بل كان يقطع ألسنة البهائم ويأكلها نيئة
- سمعت أنه كان يقطع لسان كل عاهرة أثناء ما كان يضاجعها
- بالفعل وكان يضعه في...

صاح الربّان:

- كفى!!!

فكر دكرور " تبًا! كنت أريد أن أعرف أين أضـــع ألســـنة العاهرات"، والتفت الربّان إليه وقد تحول تعجبه إلى قلق حين وجده يبتســـم ويضـــحك ضـحكات صــامتة جعلته مخيفًا، بالذات بعد ما قيل عنه، فقال الربّان والقلق في صوته:

- أيها اللعين! لابد أن ما فعلتَ ليس هينًا كي يقال عنكَ مثل ذلك

لمس دكرور القلق في صوت الربّان، فاستمر في ضحكه الصامت الذي لم يجعله يبدو سـعيدًا بقدر ما جعله يبدو أنه قتل عائلته، وصـنع من ألسـنتهم سلسلة، وأكل ألسنة البهائم نيئة، وقطع ألسنة العاهرات وهو يضاجعهم.

ثم قال أحد الرجال للربّان:

- يجب أن نقتله يا سيدي

استدرك عليه آخر:

- بل يجب أن نعيده إلى البر

فقال الربّان حاسمًا الأمر:

- بالتأكيد لن نعود، كما أنني لن أقتل مجنونًا على متن سـفينتي، سـنُبقِي عليه، لكن اتركوه مقيدًا



شارفت الشمس على الغروب، وعزفت الرياح الباردة أغنيتها على أوتار خفية معلنة عن قدوم العاصــفة رغم أنها لا تزال بعيدة، اعتاد دكرور طوال حياته على المطر يأتي فجأة ويذهب فجأة، لكن رؤيته وهو قادم في موكبه العظيم الذي يسمى العاصفة كان شيئًا يثير الرهبة حقًا.

تنبأ البحارة أن العاصفة لن تصلهم إلا بعد حلول الظلام فسرّعوا من وتيرة العمل لينتهوا منه قبل ذلك دون أن يقتربوا من الصاري المربوط فيه دكرور، فلم يعيروه انتباهًا كأنه غير موجود، فقط كان بعضهم يتفقده من بعيد ثم يشيح عنه حين يبادلهم النظر.

غير ذلك لم يكن دكرور يفعل أي شيء حتى بدا جزءًا من الصاري، ومن حين لآخر كانت رأسه تسقط على صدره من شدة النعاس والتعب والألم، ربما غفا بضع مرات لكنها لم تكن كافية ليبقى مستفيقًا واعيًا بما حوله، ثم قررت عينيه بعناد أن تنغلق لتنام.

ومرة أخرى استيقظ قبل أن ينام بالقدر الذي يسمى نومًا؛ على أذان صلاة المغرب، وسرعان ما اصطف جميع البحارة يؤمهم رجلًا يبدو أكبر من الربّان، تاركين دكرور وراءهم وقد شعر بشيء من الضيق، لكن حتى وإن سمحوا له بالصلاة معهم، وحتى إن كان طاهرًا؛ فهو قد نسيَ ما يقال فيها.

انتهت الصلاة وتفرق الجمع ولا تزال السماء زرقاء قاتمة، ثم أمر الربّان بإنزال كل الأمتعة إلى الكوثل، وربْط كل ما سيبقى على السطح؛ استعدادًا لقدوم العاصفة، ثم سأل الفتى الصغير:

- ماذا عن الأبكم؟

رمق الربّان دكرور ونزل إلى قمرته دون أن يجيب الفتى، وتبعه بحارته فصار سطح السفينة خاليًا ومظلمًا إلا من نور مصباح بعيد لا يصل ضوئه إلى دكرور، فبدا كأنه مختفيًا في الظلام وفكر غير عابئًا بأي شيء آخر في الحياة "أخيرًا قد حان وقت النوم".

لم يكد يغلق عينه حين أفزعه صوتًا قريبًا يقول:

- هل أنت ظمآن؟

جفل دكرور بعصبية فصدم مؤخرة رأسه بالصاري وراءه، ورأى رجلًا يبتسم بوداعة ويحمل مصباحًا بيسراه، وبيمينه يحمل قربة ماء ويقرّبها إليه، ثم لما دقق فيه النظر وجده الإمام، الذي عاد يقول:

- لا تخَف يا فتى، هاك! لابد من أنك ظمآن

ثم وضـــع القربة على فمه ورفعها فشـــرب دكرور وهو ينظر إليه بقلق وتعجب، وبعد أن ارتوى وضـع الإمام القربة وأخرج كسـرة خبز وغمسـها في شيء ثم وضعها في فم دكرور الذي زاد عجبًا حين وجد طعم العسل في فمه، أخذ الرجل يكرر الأمر عدة مرات وبعد أن نفد الخبز عاد يسـقيه ثانيًا، ثم جلس بجانبه وقال وهو لا زال يبتسم:

- ربما لم تفعل أي شيء مما قاله البحارة، لكنك فعلتَ شيئًا.. صحيح؟

رَد دكرور بإماءة بسيطة بعد برهة من التردّد، فأردف الإمام:

- لا شك أنه شيء تستحق العقاب عليه.. صحيح؟

لم يرُد دكرور ولم ينتظر منه الرجل أن يفعل فقال:

- كما أني لا أعتقد أنك مجنون أيضًا، إذ ليست تلك عيني مجنون

ثم نظر إلى عينيه وأضاف بسخرية:

- ربما أصبحت عينك تتكلم بدلًا من لسانك

ورغم أن مقته وكبرياءه من المفترض أن يمنعاه من الشـــعور بالامتنان حتى؛ إلا أن دكرور أحس أنه يجب أن يشكر ذلك الرجل، فنحّى عناده جانبًا ووضع كبرياءه وراءه، وهمس:

- أنا لستُ أبكمًا حقًا!

رفع الإمام رأسه ببطء وقد تحولت ابتسامته إلى العبوس والتعجب:

- ماذا؟!! ماذا قلت؟!!

ثم نهض وقرّب أذنه من دكرور الذي أجاب هامسًا:

- أنا لستُ أبكمًا حقًا.. إنه فقط صوتي لا يرتفع أكثر من ذلك
- لقد كاد الربّان أن يدق عنقك.. لِمَ لَمْ تقل شيئًا إذًا؟
- لا يستحق هؤلاء الأوغاد أن يسمعوا مني كلمة، وذلك الوغد خاصةً

- احفظ لسانك! إنه أخي

بدأت العاصفة تقترب أكثر وتتضح زمجرتها أكثر وتطغى على صوت الأمواج والرياح، وصوت الإمام وصوت دكرور بالأخص، فاقترب الإمام أكثر وبذل دكرور جهدًا أكبر ليرفع صوته بالهمس:

- إذًا هل تعلم ماذا سيفعلون بي؟
- في أفضل الأحوال ستباع إلى أول تجار عبيد سنقابلهم
- ماذا عن أسوأ الأحوال
- غالبًا ما يكون أسوأ شيء يحدث في البحر هو الغرق، لكن أنت بالذات يمكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير
- وكيف ذلك؟
- لست متأكدًا.. أنت فقط تذكرني بالنبي الصالح يونس عليه السلام

قال دكرور بسخرية:

- أنا أذكركَ بنبي صالح؟! أشكّ في ذلك

يذكر دكرور أسماء جميع الأنبياء ويعرف بعض قصصهم لكن دون أن يذكر أيهم فعل ماذا، وربما أراد الإمام أن يحكي ماذا فعل النبي الصالح يونس عليه السلام؛ لكن قاطعه الفتى الثرثار من وراءه قائلًا:

- سيدي! يريدكَ الربّان في قمرته
- أخبره أني قادم

ثم عاد إلى دكرور وربّت على كتفه وقال بابتسامة:

- لا تقلق.. لا أظن أنه يوجد حيتان كثيرة في البحر المتوسط، سأخبر الربّان أن يدعك تنام في الزنزانة الصغيرة في الأسفل قبل أن تأتي العاصفة، وسيكون كل شيء على ما يرام

ثم انصرف تاركًا دكرور في حيرة مما ستؤول إليه الأمور، ربما من المرجح فعلًا أن يباع كعبد "لا أظنني أصلح للعبودية بأي شكل"، ومن

المرجح أيضًا أن يغرق "حسنًا.. لن يكون ذلك بالأمر السيء"، لكن ليس من المرجح أن يحدث ما هو أسـوأ، ثم نظر إلى حاله وإلى السـفينة من حوله وهمس بصوت يسمعه "ماذا يمكن أن يحدث أسوأ"، فكر أن ينام لكن ذكّرته العاصفة أنها لن تدعه يفعل بأن برِقت ثم زأرَت معلنةً عن حضورها أخيرًا.

التفت عن العاصـفة وهو يشـعر بقليل من الملل وكثير من البلل؛ بعد أن غادر الإمام، ليجد الفتى أمامه مرة أخرى يحوم حوله ويتفحصـه عن كثب بفضـول، ثم طرق على الخشـب بطريقة معينة، ليصـعد خمسـة من رفاقه، ففكر دكرور أنهم جاءوا ليصـحبوه إلى الزنزانة، لكن حين رأى العصـيان والسكاكين في أيديهم؛ علم أنها لن تكون صحبة سارّة.



بغض النظر عن الفتى الصغير فقد كان الخمسة الآخرون شبابًا يافعين، ربما أصغر من دكرور بعض الشـيء، جاء أكبرهم حجمًا وأبغضـهم سحنة والوحيد بينهم الذي يحمل سـكينًا؛ ووقف أمام دكرور وأشـار إليه بسـكين وقال:

- ربما خدعتَ الجميع بأنك أبكم لكنك لن تخدعني

ثم بصق على الأرض وأردف:

- نريدكَ أن تلعب معنا لعبة.. ببساطة إذا قلت "آه" ستخسر

فكر دكرور وهو يبتسم "ألعب تلك اللعبة منذ أربعة عشر عامًا ولم أخسر إلى الآن"، رأى الفتى ابتسامة دكرور فضحك هو الآخر وقال:

- أه**!** أعلم أنك ستحبها

وفعل تمامًا ما توقعه دكرور، إذ وضع سن سكينه على صدره وبدأ يدفعه ببطء، لكن لم يدعه دكرور يتعدى قماش قميصـه حتى، فركله أسـفل بطنه فانحنى الفتى وابتعد، ثم انهالت ضـربات العصـيّ على دكرور، ثم كفّوا

وقيّدوا ساقه وعاد الفتى البغيض يغرس سكينه في صدره في نفس الموضع لكن تلك المرة كانت أسرع كثيرًا.

وكما هي عادته؛ التزم دكرور بقواعد اللعبة التي يتقنها فلم يصدر منه صوت أنفاسه حتى، ثم تراجع الفتى ليشاهد ما صنع فلم يبدُ عليه الرضى وهو يقول:

- أتعلم؟! يجب أن نغير قواعد اللعبة...

وعاد يسحب سكينه من صدر دكرور فآلمه ذلك أكثر من غرسه، ثم قال وهو يفك قيده من وراء ظهره:

- الآن إذا قلتَ "أرجوك" فستخسر، ربما ستخسر اللعبة لكن ستكسب أننا سنتركك وشأنك، حسنًا فلنبدأ من الآن!

تحرر دكرور من قيوده وفكر "لقد جعلتَ اللعبة أسهل كثيرًا"، وقبل أن يستعد للمقاومة نزلت عصا على رأسه أسقطته أرضًا دون أن يغيب عن الوعي، ثم عادت الضربات تنهال على جسده حتى لم يعد قادرًا على تحريك شيء فيه، فربطوه بحبل حول صدره يمر من تحت إبطيه، وجرّوه به إلى المقدمة، ورآهم يلفون الطرف الآخر حول العمود الأفقي الذي يخرج من مقدمة السفينة، وقال الفتى أخيرًا:

- كم أنك تجيد هذه اللعبة! أحسنتَ! لقد فزت...

ثم حمله بمساعدة البقية وأنزلوه برويّة من مقدمة السفينة إلى البحر حتى غُمِس كله في المياه الباردة، وظل يضرب المياه حوله بعصبية، قبل أن يُرفَع مرة أخرى حتى أصبحت قدماه فقط ما كانا منه في الماء، فصار كأنه يقف عليها دون أن يسقط.

أول ما فكر فيه دكرور وهو على ذلك الحال هو أن ينام بالطبع، لكن الجرح الغائر في صدره، والحبل الرفيع الذي يضغط عليه، والأمطار التي تشتد مع كل قطرة تسقط؛ كل ذلك كان مما منعه عن النوم بل وعن التنفس حتى، وقال في نفسه "أخيرًا قد وصلت الأمور إلى أسوأ ما يمكن".

قطع تفكيره وربما قطع نومه الوشيك؛ صوت غريب عالي طغى على صوت المطر، كان كصوت موجة عالية تزحف على الشاطئ أو كصوت سكب الماء على الحطب الملتهب، تبعه رائحة كريهة من حيث لا يدري، فالتفت نحو مصدرها فرأى طيفًا شفافًا طويلًا سرعان ما بدّدته الأمطار، لكن لم يلقِ دكرور لأي من ذلك باله وبدأ يغيب عن الوعي شيئًا فشيء، ورغم امتنانه لذلك؛ إلا أنه تلك المرة لم يكن بسبب النعاس بل بسبب الإعياء والسقم، وتلك المرة كانت كفيلة لأن يحلم.

وقف دكرور وحده في ثبات وشموخ يشاهد مشنقته وهي تتأرجح مع الرياح على منصة الإعدام التي في وسط الميدان الكبير لم يكن وحده على المنصة فقط لكن في كل الميدان بل في كل العالم أدخل رقبته في حلقة المشنقة بكل استسلام ورضى وانتظر أن تنفتح المنصة من تحته ثم تذكر أنها لن تنفتح إلا إذا سحب الجلاد المقبض مدّ ذراعه وسحبه فانفتحت المنصة من تحته لكن لم يسقط على الفور نظر أسفله فوجدها حفرة عميقة ليس لها قرار ولم يرَ فيها شيئًا لكنه سمع صوتًا من داخلها يناديه دكروور دكروووور ودون سبب أو سابق إنذار سقط في الحفرة متوقعًا أن يشتدّ الحبل حول عنقه فيكسره أو يخنقه لكنه ظل يهوي كأن الحبل قد انقطع

استيقظ دكرور فجأة ليجد الحبل يشَدّ بفعل ثقله بعد أن كان مرتخيًا بطريقة ما، ويجد شيئًا يتحرك من تحته لكن دون أن يرتفع عن سطح الماء، ففزع وظل يلتفت حول نفسه بعصبية، وحاول أن يتسلق الحبل لكنه كان أضعف من أن يحمل ثقله كما أن الحبل كان أرفع من أن يقبض عليه، وفي نفس الوقت تناهى إلى سمعه صوت ينادي:

- دكروور! يا أبكم!.. يا دكروووور!

ظن أنه لا يزال يحلم، لكن الأحلام لا تكون بهذا الوضوح، فتأكد أنه الواقع بقتامته، وعلم أنه الإمام من يناديه، وسمع صوت خطواته على طول سطح السفينة جيئةً وذهابًا، سمعه يقترب فنظر أعلاه ولم يرَ سوى يده تمسك بسور السفينة، ثم سمعه يصيح من فوقه مباشرةً:

- يا دكرور!! أين ذهبتَ أيها الأبكم؟!!

فتساءل دكرور في نفسه عمّا إن كان لديه صوته فهل سيستعمله لطلب النجدة؟، جعله الخاطر يشعر بالمرارة، إذ كان خلاصه يبحث عنه ويناديه من فوقه، وهو غير قادر على نجدة نفسه بأي شكل، وذلك مما جعله يشعر بالشفقة على نفسه، هذا الشعور بالذات هو ما كان يحاول تجنبه طوال حياته، ثم حين كف الإمام عن مناداته وسمع صوت خطواته تبتعد، وإذ إنه قد قاوم ذلك الشعور أكثر من مقدرته على المقاومة؛ فلم يجد حرجًا من قليل من البكاء.

جعله كل ذلك لا يلحظ سرعة السفينة وشدة الرياح وعلوّ الأمواج، *إلى أن* لطمته أحد تلك الأمواج فكفّ عن البكاء على الفور، ثم توالت الأمواج كل واحدة أعلى من سابقتها، حتى حضرت موجة غاضبة عالية، واجهتها السفينة بشجاعة بأن اعتلتها حتى كادت أن تطير من فوقها في الهواء، لكن سرعان ما عادت تسقط كأنها تهوي من أعلى جرف، ودكرور بين رحى تلك المعركة بين السفينة والبحر، يغرق مع كل هجوم ويتأرجح من مقدمة السفينة بقوة في جميع الاتجاهات كأنه معلق من قرن ثور هائج، والحبل الرفيع يكاد أن يخلع ذراعيه من إبطيه.

وظل يرتفع أعلى السفينة حين تهبط هي من على الموجة، ثم يعود ليسقط معها بعنف، وهو يحاول في كل مرة أن يتمسك بأي شيء من السفينة حتى تمنى أن يسقط عليها، فلن تؤذيه السقطة أكثر مما قد حدث بالفعل.

هدأت السفينة لبرهة وإن لم تهدأ سرعتها، قبل أن يلاحظ دكرور موجة عالية بدت كأنها آتية من بحر آخر أكبر وأعلى من هذا الذي هو فيه، أسرعت إليها السفينة كأنها تستعجل حتف دكرور أولًا وحتفها هي ثانيًا، واخترقتها من أعلاها في شجاعة منقطعة النظير، ثم خرجت منتصرة من الجهة الأخرى وبدأت رحلة سقوطها، فارتفع دكرور عنها بقوة *إلى أن* بلغ آخر الحبل واشتدّ حول صدره، ولاحظ أخيرًا أنه فوق سطح السفينة تمامًا وأنه سيسقط عليه بعد ثانية، لكن مرّت تلك الثانية وتبعتها أخرى وهو لا

يزال في الهواء، حتى ظن أنه قد مات وتلك هي روحه وقد صعدت لتحاسَب، لكن حدث ما هو أسوأ.

علم دكرور متأخرًا أن الحبل قد انقطع فلم يخِفه ذلك بقدر ما أرعبه أنه صار حُرًّا كطائر يطير في السماء، وأنه من الممكن أن يسقط في الماء وليس على السفينة كما أراد.

بالطبع مثل تلك الحياة البائسة، ومثل ذلك اليوم القاسي؛ يجب أن ينتهوا مثل تلك النهاية المأساوية، وأخيرًا سلّم دكرور لما هو آتٍ، وأرخى جسده لكي يحمله الهواء، لكن الهواء كان أضعف من أن يفعل، وسلّمه تسليمًا إلى البحر، لكن أظلمت الدنيا قبل أن يصل إليه، فنام دكرور من فوره أو ربما قد مات، لن يعرف حتى يستيقظ، أو يظل نائمًا إلى الأبد.



(3)

كان قد عاد لتوّه من رحلته إلى السطح للتنفس عندما شعر بضربة على رأسه، فسبح بسرعة يبتعد عنها كما تعوّد أن يفعل، فقد كان كثيرًا ما ينتابه الصداع وكثيرًا ما يتولى عنه مبتعدًا، لكن هذه المرة كان قويًا لا يخفت مهما ابتعد عنه، فعاد يسبح إليه معتمدًا على شدة الألم في رأسه لتحديد طريقه.

لم يسبح كثيرًا حتى وجد نفسه قريبًا من يابسة، ولقيَ أمامه عاصفة هائلة عَلِم أنها تلك المكلّفة بإغراق ذلك الإنسان المزعج، لكنها لن تصله إلا بعد حين، فقرر أن ينتظر العاصفة لتدركه أولًا، لأنه إذا سبقها إليه لن ينوبه سوى شدة الصداع الذي يكون على أشده وهو بجانب السفينة التي عليها الرجل الشقيّ.

وأثناء انتظاره وجد سفينة أخرى تقتل الحيتان عرفها فقط من رائحتها فقط، فقرر أن يُخرِج إليها رجاله، فأصدر أغنيته المميزة التي يعلمون أنها تخبرهم بأنه وقت الخروج، والتي لم يفهموا سواها.

لم يكن رجاله يفهمون أي من أغانيه التي فيها يتحدث إلى حيتان أخرى أو إليهم، لكنهم كانوا يفهمونها بينما هم نائمون، ففي الأحلام يتحول الغناء المبهم إلى كلام واضح مفهوم، فيخبرهم في أحلامهم بأشياء ويخبرونه بأشياء، ولذلك كان يحب عندما ينامون.

فتح فمه بجانب السفينة من دون أن يظهر على السطح، وخرج من جوفه الرجال الواحد تلو الآخر ما عدا واحد لم يكن يخرج أبدًا، ثم انتظرهم حتى انتهوا ولم ينتظر كثيرًا.

ما يحدث هو أنه يُخرِج الرجال من جوفه إلى تلك السُفُن التي لا تفعل سوى قتل الحيتان، يخرجون إليها لإغراقها وقتل كل من عليها، لأنهم يعلمون أنه لا يقتل البشر بنفسه أبدًا، يعد ذلك نفاق بكل معاني الكلمة، لكنه كحوت لم يكن يعلم أي من معاني تلك الكلمة على كل حال.

كما أن جميع سكان جوفه يجيدون القتل بل يبرعون فيه، فيا لها من قدرة فذة! قدرة الرجل على قتل الرجل، إن لم يكن لها رادع فستصبح قدرة مطلقة، من ذاقها لذّها، ومن لذّها أبدع فيها، تكاد أن تكون موهبة لمن اتخذها هواية، كما أنها لعنة لمن اتخذها مهنة، ليس ما أثار عجبه وسيلة القتل أو إزهاق الروح فذلك أسهل ما يكون، لكنه في المقدرة نفسها، المقدرة على رفع الحربة أولًا، وليس غرسها.

لم يعلم حينها سبب فعلهم ذلك، ربما يروّحون عن أنفسهم فحسب، بدأ معهم ذلك الأمر كصُدفة عفوية كادت أن تودي بهم، بعد أن جعلهم يشاهدون صيد الحيتان وقتلها بأم أعينهم وليس في الأحلام كما كان يفعل، هو لم يكن يقصد أن تؤول الأمور إلى ذلك، لكنه أيضًا ممتنًّا لهم ولما يفعلون.

عاد رجاله كما ذهبوا ودخلوا جوفه كما خرجوا، فأكمل طريقه إلى وجهته الأصلية، ولم ينتظر حتى تغرق السفينة، لكنه كان يشعر بشيء غريب في البحر غير الرجل سبب الصداع، كما شعر بشيء غريب في جوفه أيضًا، فسأل أحد رجاله كان قد نام فور أن عاد:

- هل كلكم بخير؟

رَد الرجل:

- نعم، كان الأمر سلِسًا كالمعتاد
- أعني أليس فيكم مصاب؟
- كما قلتُ!.. كل شيء بخير كالمعتاد، لكن لمَ تسأل؟

كان المعتاد هو أن يرجع منهم جرحى ومصابين وبعضهم على شفا الموت، لكن جراحهم تلتئم وبعضها يشفى تمامًا عندما يعودون للجوف.

- لا أدري.. أشعر بشيء غريب، كنت متوجهًا لالتقام أحدهم و...

قاطعه الرجل بانفعال:

- حقًا!! هل هو وافد جديد؟!! أه! لم نستقبل وافدًا جديدًا منذ... منذ عشر سنوات تقريبًا

لم يكن يدرك الأعداد أو الحساب لكنه كان يعلم أن رجاله مكتملي العدد في جوفه، ورغم ذلك شعر بأن أحدهم ناقص أو ربما ميّت، وبالفعل كانت هناك جثة في جوفه.

ترك رجله النائم وانتبه للبقية المستيقظين، عندما كشفوا عن جثة بينهم لكنها ليست لأحدهم، فتأكد شعوره بأن هناك منهم رجلًا ناقصًا، وعاد مسرعًا إلى السفينة ليجدها نصف غارقة، أخذ يبحث حولها عن رجُله المفقود أو حتى عن جثته ولم يجد شيئًا، لكنه وجد قاربًا بعيدًا يسبح باتجاه اليابسة وسط العاصفة والأمواج العالية التي تكاد تقلبه، وعلم أنه هو.

ربما غاب عن الوعي بعدها، فلم يدرِ ما قد حدث إلا بعدما حدث، فشعر بالحيرة كأنه فقد شيئًا، بل إنه بالفعل قد فقد شيئًا، وهو بنفسه من تسبب في ذلك، شعر لذلك بالمقت من نفسه، فما قد حدث لم يحدث من قبل، فلم يعلم أي إنسان قد حاول الهرب من جوف حوت من قبل، كما لم يعلم حوت ذو جوف حاول القتل من قبل.

كان محتارًا تائهًا لا يعلم ماذا يفعل، وسأل نفسه ماذا فعل لكي يحاول ذلك الرجل بالذات أن يهرب، ورغم أن الحياة بداخل جوف حوت لا يجب أبدًا أن تكون سعيدة؛ إلا أنه حرص على ألا يشعر رجاله بذلك، كما أنهم كانوا يسكنون جوفه وراضين بتلك الحياة، بل وربما سعيدون بها، لكنه لم يعلم أن منهم رجلًا ليس راضيًا بعيشته تلك وأنه ساخطًا هكذا، وأنه مستعدًا ليدفع حياته من أجل حريّته.

عاد مرة أخرى يتوجه إلى وجهته الأولى نحو مصدر الصداع الذي ضاق به ذرعًا بالفعل، وكما كان الألم حزنًا على الرجل الذي فقده شديدًا؛ كان الألم في رأسه أشد ما يكون عندما وصل إلى السفينة، وظل يسبح من حولها بهدوء في انتظار العاصفة حتى تأتي وتغرقه بعد أن سبقها إليه.

وأثناء ذلك شعر فجأة بنبضة ضربت البحر وضربت رأسه بدورها، فعلم أن الرجل قد سقط في الماء، وتعجب حين لم يجد أحدًا في الماء، ثم وجده يتدلى من السفينة بحبل وبالكاد يلمس المياه بقدمه، فمكث حوله في انتظار أن يغرق، لكنه أيضًا لا يغرق، فأخذ يخرج رأسه من الماء ويدفعه لكنه بدا كأنه مات، لكن لا يزال يسبب الصداع.

وظل هكذا حتى عَلَت الأمواج أكثر واحتدّت العاصفة أكثر، وأخذت السفينة تسابقه وهي تعتلي الأمواج وتسقط من عليها لكن تأبى أن تغرق، وعندما أنهكته المطاردة وصارت السفينة تسبقه؛ شعر بأنها قد أفلتت حملها الذي تحمل، فأدرك مرة أخيرة أن الرجل قد سقط من عليها، فبحث عنه في المياه

ولم يجده فيها بل وجده فوقه في الهواء، فاخترق السطح بقوة فاغرًا فاه على اتساعه والتقم الرجل وهو في الهواء، وأطبق عليه فمه وعاد يهوي به في المحيط، وسرعان ما ذهب الصداع.

وإذ كان الرجل نائمًا بالفعل فقرر بما أنه أول يوم له في جوفه أن يحدّثه وربما يطمئنه، فرحّب به قائلًا:

- مرحبًا بكَ في عالمي!



الشمس لم تشرق بعد لكن السماء مضيئة على كل حال، وكتلة الغضب العظيمة التي تسمى العاصفة قد ابتعدت، مخلفةً وراءها البحر مضطربًا، رماديًا فيه شيء من الخُضرة.

كان دكرور في الماء بالفعل ينظر إلى مشرق الشمس كأنه ينتظرها، وكل ما يفكر فيه هو أنه يطفو ورأسه فوق سطح الماء رغم أنه لا يجيد السباحة، حتى سمع صوت صفير آتٍ من ورائه بدا كأغنية، أغنية عميقة تخترق صدره قبل أذنه، فالتفت إلى مصدرها ليجدها سفينة كبيرة.

وكأن تلك الأغنية كانت دعوة للركوب؛ صعد دكرور على متن السفينة بسهولة كما يصعد إلى فراشه، كانت سفينة غريبة بها شيء في غير محله لكن لم يهتم دكرور، فكل ما شغله هو أنه ليس في الماء.

شعر أن هذه أول مرة يركب سفينة في حياته، وبعد دهرًا لاحظ أنه لا توجد صواري أو أشرعة أو طاقم أو أي شيء، مجرد سطح.

انطلقت صافرة أخرى كانت أطول وأوضح لدرجة أنه أيقن أن مصدرها ليس أي سفينة، حينها شعر أنها تكلمه وأنصت أكثر فسمع صوت عميق من البحر، كأن البحر نفسه هو من يتكلم:

- كنت أقول مرحبًا بك في عالمي

فكر دكرور "لا يبدو هذا كعالم آخَر غير الذي أعرفه، إن به بحرًا يشبهه تمامًا"، ثم سأل بصوتٍ يسمعه:

- أين أنتَ؟.. أين أنا؟
- أنتَ في أمان

بالفعل كان دكرور يشعر بالراحة والأمان والسكينة على غير عادته، كما بعثت الكلمة نفسها السكينة في نفسه أكثر، نظر في الآفاق من حوله ليجد كل ما حوله بحر، وبدون سبب عرف أن هذه السفينة ليست هي نفسها التي ركبها أولًا، فالتفت حوله بعصبية يبحث عنها وسأل:

- أين السفينة التي ركبتها من الميناء؟
- إنها أيضًا في أمان.. انظر!

ودون أي إشارة نظر دكرور أعلاه إلى السماء، ليجد سفينة تسبح في سحابة، لم يظهر منها من تحت السحابة سوى بطنها، كأنه ينظر إليها من قاع البحر، لكن لا يبدو أنه في قاع البحر.

لم يَعجَب دكرور ولم يبالِ كأنه رأى طائرًا يطير، فعاد يقول:

- لكني كنت أغرق.. من المفترض أني ميّت الآن

تساءل بلا مبالاة كأن هذا أيضًا شيئًا عاديًا، فجاءه الرّد:

- بالفعل! لكن هل يبدو لك هذا مثل الموت؟

استنشق دكرور الهواء بعمق ونظر إلى جسده كأنه أول مرة يراه وقال في شرود واستغراق:

- ربما.. لا أعلم ماذا يبدو هذا، لكنه شيء غريب
- بل إنه أغرب من الموت

كان دكرور بطريقة ما يشـــعر أنه في بيته، أو أنه المكان المناســـب لأن يكون فيه، أو ربما هو المكان الذي لطالما كان يناديه، لذلك لم يسأل أولًا أين هو لكنه سأل:

- صحيح! لم تقُل من أنتَ
- ربما ليس من المفترض أن تعلم الآن، خاصةً وأنت هنا
- كما أنك لم تقل أين هنا أيضًا
- لقد قلتُ أنك في أمان، أنت الآن نائم وتحلم في أمان

شعر دكرور بالسعادة تغمره حين علم أنه نائم، لكنه تعجب من ذلك أيضًا فعاد يسأل:

- أليس من المفترض أني قد غرقت؟
- بلا!
- إذًا ألا يجب أن أكون في أعماق البحر الآن؟!
- أولَستَ كذلك؟

ارتفعت الأغنية وتوالَت الصـافرات دون فاصـل بين الصـافرة والأخرى، وبدأت السـفينة تتحرك من تلقاء نفسـها، ليس هو أو أي طاقم من يبحر بها، ثم أخذت تغوص للأبد ولا تغرق، ثم انقلبت على نفســها فجأة فدارَت الدنيا، توقع دكرور أنه ســيكون رأسًــا على عقب في داخل البحر، لكنه كان نائمًا ممددًا يسعل الماء، وأشكال بشرية غير واضحة تحيط به وسط نور أصفر جميل جعلته رؤيته يعود للنوم مرة أخرى، شـــاعرًا بالراحة والقلق أنه لا يزال حيًّا.



كان دكرور قد قدم لي القهوة وخرج من البيت، فأخذت القهوة وتأبطتُ الكتاب وصـــعدت إلى الغرفة حيث نمت، لأكمل قراءة الفصـــل الأول من روايته حتى شـــعرت بالتعب والنعاس، رغم أنني قد اســتيقظت منذ ســاعة

فقط، فجلســت بجانب شــرفة تطل على البحر ومن تحتي كان المرفأ، وفي السماء كان نصف قمر، لكنه كفيل لأن يجعلك ترى سواد البحر وموجه.

بعد أن تعيش لقرن ونصــف، وترى كل شــيء، وتذهب إلى كل مكان يمكن الذهاب إليه، وتعرف أناس أكثر مما تتذكر؛ تصــبح الأشــياء كلها متشـــابهة، والأماكن قليلة، والوجوه مألوفة، لذلك بعد أن تعيش لقرن ونصف، وترى شـيئًا جديدًا، وتذهب إلى مكان جديد، وتعرف أشـخاص جدد؛ يكون كل ذلك بمثابة تذكير كم أنك قد عشـت لفترة قصـيرة، لذلك كان هذا أفضل أيام حياتي منذ سنوات عديدة.

وربما كان أفضـل ما حدث لي اليوم هو أن بدأت في قراءة رواية جديدة، بعد أن قرأت تقريبًا كل ما يمكن قراءته، ويئســت من أن أجد رواية جديدة تستحق القراءة.

لا زلتُ غير مقتنع أنها قد حدثت بالفعل، وأن دكرور قد ألفها من مخيلته، فلم أتعجب من أنه أبكم ودكرور الحقيقي ليس كذلك، إلا أني شعرت بالشفقة على دكرور الذي في الرواية، ثم إنه ماذا فعل قبل أن يركب السفينة؟.

قطع تفكيري وأعاد إليّ انتباهي رؤية أحدهم يســير على طول المرفأ بهدوء لكن كانت لخطواته صــوت، لم أتبينه لكن علمت أنه دكرور عندما سمعت سعال سام آتٍ من الغرفة المقابلة حيث قال أنه سيكون، وصل عند آخر حافة المرفأ ووقف قليلًا، فبدا لي في ضـوء القمر الخافت أنه يكلّم أحد، إلا أني لم أسمع كلامًا، بعدها رأيته بوضـوح وهو يجثو وينحني نحو الماء، ثم عاد يقف وخطا خطوة إلى الأمام ليسقط في الماء بوضع قائم.

أخرجت رأســي من النافذة وحددت النظر أبحث في البحر بذهول، وبعد دقائق قليلة عدت أجلس حائرًا، فكرت أن أنزل وأتفقده بنفســي أو أن أخبر ســام، لكن هناك ما منعني، ربما رهبة ما مبهمة من هذين الرجلين، أو هو توجّس من ودّهما الغير مبرر تجاهي، ومن هذا المكان الغريب، والأغرب من كل ذلك كانت الرواية التي بين يدي.

انتهيت من التفكير في النزول، وفكرتُ أن أقرأ فصــــلًا آخَر من الرواية، بعد أن أثار كاتبها انتباهي أكثر، لكن غلبني النعاس قبل أن أفعل.

اسـتيقظت في اليوم التالي لا أصـدق أني قد نمت عشـر سـاعات أخرى، ربما كان بسبب السفر والإرهاق، لكن لا يزال الوقت قبيل الشروق فلم أجد ضيرًا من إكمال الرواية، فجلست أقرأ في هدوء على صوت أمواج البحر...

الفصل الثاني

"الجَوْف"

(1)

يعلم جيدًا أنه عاد إلى الوعي، لكنه لم يرِد أن يصدق أنه عاد إلى الحياة.

لم يكن في ذهنه ســـوى أجزاء من حلم غريب بدأ تلقائيًا يجمعها ليعيد تشكيل ذلك الحلم، ولم يتعجب من أنه كان يحلم أنه على سفينة وهناك أخرى تسبح في السماء فوقه، أو أنها كانت تكلمه ويكلمها، أو من أي ممّا قيل، فهو دائمًا ما يتحاور ويتكلم بصـــوت طبيعي في أحلامه، لكن هذه المرة كان صوته واضحًا لدرجة أنه لا زال يتذكره، إلا أن أكثر ما كان يتذكره من ذلك الحلم هو صوت الغناء الجميل، الذي يبدو كنحيب امرأة أكثر من غناء.

لم يشعر دكرور بأي شيء في جسده سوى حلقه الذي كان يؤلمه بشدة في مكان الندبة القديمة، كأنها استيقظت فجأة بعد أن كانت خامدة لأربعة عشـر عامًا، وأوقدت معها الحمى في كامل جســـده، ثم حين أراد أن يتقلب ليعود إلى النوم شعر بجسده يؤلمه، ليس ألم الكدمات أو العظام المكسورة أو حتى ألم الطعن في الصدر، لكنه كان ذلك الألم الحلو الذي تناله حين تشدّ جسدك بعد أن تستيقظ ويذهب الألم الحقيقي.

لاحظ ذلك فعقد حاجبيه في اسـتغراب وهو لا يزال يرقد مغمضًــا عينيه، ووضع يده على صدره مكان الطعنة ولم يشعر بها، فنهض يجلس في مكانه بعصبية وكشف عن صدره ليتأكد بعينه، لكنه لم يرَ شيئًا إذ كان المكان شبه مظلم بالكاد ترى فيه يدك، وبدأت أنفاسـه تتسـارع حين نظر إلى المكان من حوله وبدأ يفكر ويتساءل أين هو.

لم يرَ سوى مصدر الضوء الخافت الذي كان عبارة عن شبكة كبيرة غير منتظمة مثل جلد الزرافة كانت تضـــيء بالأصـــفر، وتحيط بالمكان بأكمله حتى أنها كانت تمر من تحته أيضًـــا، فدقق فيها النظر فلم يجدها شـــبكة بل كانت شقوق ضيّقة مثل أرض بور قد تصحّرت، يجري بداخلها سائل أصفر يضـيء بنفسـه، بين أحجار سوداء ليست ناعمة أو خشنة فعلم دكرور أخيرًا أنه ربما يكون في مغارة ما، وشـــعر بقليل من الارتياح من فكرة أنه لم يعُد في البحر.

ثم سمع صوت كلام فالتفت إليه ليجده ظل إنسان يمشي بالقرب منه، فعاد بسرعة يستلقي مكانه والتفت عنه إلى جانبه الآخر وأغلق عينيه بقوة، ثم تكرر الصوت وارتفع، وأصوات أخرى تردّ عليه وتضحك فعلم أن هناك أكثر من شخص وذلك مما جعله يشعر بالقلق، لكن ما جعله يشعر بالخوف والحَر رغم أن المكان ليس خانقًا بالمرة؛ هو أنه ميّز أن الأصوات تتكلم بالإنجليزية، تلك اللغة التي يميّزها ولا يعرف منها شيئًا سوى اسمها.

مكث دكرور على حاله لا يفتح عينيه وبالكاد يتنفس، قبل أن يشعر أن النور قد اشتدّ ففتح عينه ليجد المكان قد أضاء أكثر بالفعل، وشقوق النور صارت أوسع حتى أنه رآها وهي تتسع ببطء شديد يكاد لا يُلحَظ، وبعد أن أصبح الضوء يعم المكان وجد دكرور رجلًا ممددًا بجانبه مباشرةً.

جفل على الفور وزاد قلقه وتوتّره وزادت حدة أنفاسه، ثم عاد يفتح نصف عينه فلاحظ أن الرجل ينام على صدره بطريقة غريبة جدًا وغير مريحة بالمرة، فظل دكرور يتأمله حتى لاحظ والنور الأصفر يتوهج من تحته؛ دمًا يسيل من تحته فتوقع أنه مصاب، حينها استجمع شجاعته ووكزه برفق فلم يُبدِ الرجل أي ردة فعل، فوضع يده على ظهره ليتأكد من شيء لا يريد أن يكون صحيحًا، لكنه بالفعل، وجده ميتًا.

قام يقف بسرعة وابتعد بعصبية عن الجثة من غير أن يصدر منه إلا صوت أنفاسه القوي، ولم يبتعد كثيرًا حتى هوت يد من وراءه على كتفه خلعت قلبه من صدره، فالتفت ليجده رجلًا يقترب منه بهدوء رافعًا يديه علامة الأمان وحسن النية بابتسامة سمجة، لا يعبأ إن كان قد أوقف قلبه جراء فعلته.

كان رجلًا ربما في عقده الرابع طويل وذو منكبين أصغر من باقي جسده، أصهب تنم ابتسامته عن أسنان صفراء معوجة، ومعه شابًّا آخر نحيل وطويل وأسود البشرة، ورجل يزحف الشيب على رأسه وعلى صدغيه رماديًا مثل عينيه، ولم تكن ملامحه ذات الخمسين عامًا تليق على جسده الذي يبدو لشابٍ فَتِيّ يافع، ثم انضم إليهم رجل آخر ضخم البنية من قدميه

حتى رأسه، ومعه طفل صغير أحمر البشرة بدا كأنه ابنه، يصل طوله عند ركبته، ولما تكلم ذلك الأخير عرف دكرور من صوته الحاد الصغير أنه قزم وليس طفل.

وقف خمستهم أمام دكرور يكلمونه ويكلمون بعضهم بلغتهم، فتقدّمهم الأصهب وتوجه إلى دكرور وهو لا زال رافعًا يديه أمامه ويكلّمه بهدوء ووداعة ويلتفت إلى رفاقه ويضحك، وأخذ دكرور يتراجع بدوره وتحسس خصره تلقائيًا بحثًا عن سكينه ولم يجده، فكر أنه لم يخشَ أحدًا في حياته هكذا ولا داعي لأن يفعل الآن.

ظل الرجل يتقدّم ويتكلم ويضحك ويشير إلى صدره، ودكرور يتراجع أكثر حتى ظن أنه سيصطدم بجدارٍ ما، ثم نظر وراء الرجل فلم يجد أصدقاءه، وقبل ان يلتفت ليبحث عنهم أمسكته يد من كتفه وأخرى من ساقه تزامنًا مع صوت "بوووم!!"، فتراجع بعصبية وفزع لا يقارن بفزعه حين وجدهم الأسود الضخم وصاحبه القزم.

أخذوا جميعًا يضحكون خاصةً الأصهب، ونظر دكرور إلى الجدران ودقق النظر فوجد أن ليس هناك جدران، بل المكان كله كان عبارة عن أسطوانة طويلة تتسع عند أحد أطرافها وتضيق كلما اقتربت من الطرف الآخر، وهو يقف عند الطرف الواسع.

شعر بالغثيان والصداع وترنّح وأراد أن يترك جسده ليسقط، لكن حمله الرجل المسنّ رماديّ الشعر وأجلسه أمامه برفق، وأخذ يضرب على خده كي لا يدعه يغيب عن الوعي، ثم تراجع عندما تقيأ دكرور ما تبقى في بطنه، ثم قال شيئًا جعل القزم يهرول إلى الطرف الضيق من المغارة، فتأكد دكرور مما لم يُرِد عقله أن يصدقه أو حتى يفكر فيه؛ إذ سار القزم على الجدار ومنه إلى السقف ليصل إلى الطرف الآخر ليوقظ أحدًا كان نائمًا هناك على السقف.

أشـــار دكرور بذهول إلى القزم وتتبعه بســبابته، فانحنى الرجل لمســتواه يحجب عنه الرؤية، وفرقع له بأصـــــابعه ليجذب انتباهه إليه وهو ما زال يضحك هو وأصدقاءه.

ثم كفّ عن الضــــحك وقال لهم شـــيئًا بنبرة آمرة جعلتهم يكفّون أيضًـــــا، وأشار بيديه إلى صدره وقال "موريس**!**"، ففكر دكرور "جميل**!** إنه يعرفني بنفسه" ورغم أنه قد فهم ذلك إلا أنه لم يُبدِ ذلك، فبدت الحيرة على الرجل ثم أشـــار إلى صــاحبه الأسـود الضــخم وقال "مافي**!**"، ثم إلى الأسـود النحيل "ســــامبار**!**"، ثم "ســـيجورد" الأصـــــهب، وعاد يشـــير إلى نفســـه أخيرًا "موريس**!**"، ثم أشار إلى دكرور بكلتي يديه من دون أن يقول شيئًا، فعلم أنه ينتظر منه أن يخبره باسمه.

لم يحرّك دكرور ســـــاكنًا، وظل يرمقه بثبات بنظرة يغلب عليها الخوف الذي يجاهد لإخفائه، لا يعلم لماذا يشــــعر بهذا القدر من الخوف من هؤلاء الرجال وخاصةً هذا العجوز، ربما لأنه لم يرَ هذه الأصناف من الرجال في مكان واحد من قبل، أو لأنهم يتكلمون بالإنجليزية ومن الممكن أنهم إنجليز أسروه لسبب ما، لكن معظمهم لا يبدون إنجليزًا، كما أنهم يعيشون في تلك المغارة العجيبة التي تنافي كل ما هو طبيعي، كل هذا وضـــــحكهم المتكرر الذي لم يبدُ مرِحًا بقدر ما بدا مرعبًا.

فرك موريس جبينه بيده في حيرة ويأس وقال شيئًا وهو ينظر إلى السقف كأنه يكلمه فضحك رفاقه، حينها كاد دكرور أن يهمس إليه باسمه غير عابئًا بكبريائه الذي تبدّد كله، أو باللعبة التي يلعبها منذ أربعة عشــــر عامًا، لكنه انتهى عندما عاد القزم بصحبة خمس رجال آخرين.



زادت حيرة دكرور عندما زاد عدد الرجال واختلفت أشـــــكالهم وتباينت أعمارهم، لكنه تمالك نفســـه واســـتجمع شــجاعته وتأهب وهو على اســتعداد

لارتكاب فاحشـــة في حق أول من يقترب، ثم تراجع إلى جدار وراءه كان الجدار القائم الوحيد في المكان؛ وألصــق به ظهره مواجهًا لعشــرة رجال، أخذوا يتكلمون ويتصــايحون ويضــحكون ويشــيرون إلى دكرور من حين لآخر كأنهم يتشاورون في أمره.

لكنهم كانوا يسكتون ويستمعون لواحد منهم حين يتكلم فبدا أنه ذو شأن أو صاحب أمر بينهم، على الرغم من أنه كان رجلًا يافعًا ربما أكبر من دكرور قليلًا يبدو في آخر عقده الثالث، إلا عينيه كانتا كأنهما ولِدا قبله بســنوات، يتوســطهما حدقتان يلتمعان بلون أصــفر فاتح كجذوتين من لهب، لا يليق بلونه الأسمر وشعره الأسود وملامح وجهه الغليظة.

وبعد طول جدال اقترب هذا الرجل من دكرور رافعًا يديه علامة حســن النية التي أصــبحت مبتذلة بعض الشــيء، وعرّف بنفســه بالطريقة المعتادة "بوهاردي"، حينها فكّر دكرور أنهم إن كانوا يريدون به ســوءًا لما كانوا عرّفوه بأســمائهم، وشــعر ببعض الامتنان لهم بأنه لا يزال على قيد الحياة، وقرر أخيرًا أن يكافئهم بأن أومأ لبوهاردي أن فهمت.

اعتلت ابتسامة وجه بوهاردي على الفور، وصفّق الرجال وحيّوا بعضهم في ســعادة، ثم التفت إليهم بوهاردي وألقى إليهم ما بدا كدعابةٍ ما فضــحكوا جميعًا حتى هو، ثم عاد إلى دكرور ومدّ إليه يد المصافحة.

ونظر دكرور إليه وإلى يده الممتدة أمامه في تردد وعَجَب، فهو لا يذكر متى صــافحه أحد وهو يبتسم أو متى رحّب به أحد في أي مكان، وبدأ يفكر "من هؤلاء؟ ولمَ هذا الترحاب؟ كأنهم كانوا في انتظاري"، ثم قرر أن يكمل ما بدأ فأخذ بيد بوهاردي وتصــافحا، وقبل أن يســحب بوهاردي يده؛ جذبها دكرور إليه وأجبره على الاقتراب فبدا أنه سيعانقه، لكنه همس في أذنه:

- دكرور!

بدت الحيرة على بوهاردي في أول الأمر فكرّر الكلمة كأنه يســألها، ثم كرّرها ثانيًا يسأل دكرور وهو يشير إليه، فأومأ له دكرور بابتسامة حائرة، وحينها التفت بوهاردي إلى رجاله وأخبرهم بما سمع بأن صاح في حماس:

- دكرووور!

فردّها عليه رجاله بنفس الحماس وأخذوا يكررونها كأنهم يشجعونه، وهو يشاهدهم في تعجب لا يخفي إعجابًا، ويتساءل "من ذا الذي يسعد لمجرد أنك أخبرته باسمك؟"، وشعر بأُلفةٍ لم يكن يشعر بها في بيته حتى، وأخيرًا حيّاه بوهاردي بانحناءة وابتسامة ثم انصرف عنهم وهو يبدو مهمومًا أو حزينًا، تاركًا دكرور في حيرته.

وبدأ الرجال يصافحون دكرور ببشاشة الواحد تلو الآخر ويعرفوه بأنفسهم، يعرف خمسة منهم بالفعل "مافي" الضخم، و"موريس" العجوز، ثم "سيجورد" أصهب الشعر، و"سامبار" النحيل، و"أوساي" القزم الذي كان شعره عبارة عن قرص أسود ناعم أعلى رأسه، يخرج من منتصفه ضفيرة قصيرة، وتعجب دكرور كثيرًا من السعادة التي تبدو على هؤلاء الرجال وتساءل "هل انضممت إلى طائفة ما لتوي؟ يجب أن يعلموا أني لا أخطط لأن أمكث طويلًا، لكن أين المخرج من هنا؟".

وممن لا يعرفهم كان "دييجو" الذي كان يحمل وشومًا تزحف من تحت قميصه على رقبته ويضع قطعة معدنية كالحلَق في أذن واحدة، ثم "رالف" وكان رجلًا مهندمًا ويبدو عليه الوقار، ثم "تاندي" الذي كان ثالث الثلاثة سود البشرة وكان عجوزًا هزيلًا، وآخرهم وربما أصغرهم سنًا "عَمّار".

قالها بلهجة عربية سليمة، فتسمّر دكرور في مكانه وأحكم قبضته على يده أكثر، وأخذ يتفرس في ملامحة لثانية قبل أن يشك أنه من الممكن أن يكون عربيّا، إذ كان فتًى يافعًا أصغر من دكرور، أسمر بحُمرة وشعره أفتح من الأسود قليلًا، احتار دكرور في تمييز إن كان عربيًا أم لا من مظهره ومن لغته، فقرر بعد أن بدا على عمار الاستغراب وأراد أن يسحب يده؛ أن يسأله، فهمس بصوت لم يحتَج لأن يقربه منه كي يسمعه:

- أنت عربيّ؟

قال عمار بابتسامه:

- نعم...

ثم اختفت ابتسـامته فجأة كأنه انتبه للسـؤال فجأة، ودقق النظر في دكرور وقال شيئًا بلغته قبل أن يقول:

- ...أعني أنت عربيّ أيضًا؟!!

أومأ له دكرور بعصـبية وعلى وجهه ابتسـامة مُطمَئنة، ولوهلة شـعر بالاطمئنان وأن الأمور ستكون على ما يرام، قبل أن يسمع صـوتًا يعيد إليه خوفه من هؤلاء الرجال وتلك المغارة، وكل شـيء كان قد خاف منه في حياته؛ إذ كان صـوت الصـفير الذي يشـبه النحيب من حلمه الأخير، ففكر "هل لا زلت أحلم؟"، أو ربما تمنى ذلك.



عاد الخوف يستبد به أسرع وأقوى من قبل، فاقشعرّ جسده واضطربت دقات قلبه وتسارعت أنفاسه حتى أصيب بالدوّار، فجلس يضم ساقيه إلى صـدره يحاول أن يسـد أذنيه بيديه لكن الصـوت كان أقوى وأعمق من أن يمنعه، ثم أراد أن يبكي حين لم يذهب الصوت لكنه تمالك نفسه أمام هؤلاء الغرباء وإن لم يُخفِ مدى ذعره.

كان نفس الصـوت الرخيم العميق الحزين الذي يبعث الرجفة في القلوب والقشعريرة في الجسد، وفي حين أنه كان صادرًا عن السفينة في الحلم؛ إلا أنه الآن بدا وكأنه صادرًا عن المغارة بأكملها وليس له مصدر معلوم، وذلك ما جعله مخيفًا أكثر شيء.

أفاق دكرور من نوبة هلعه على صـوت الفتى عمار وهو يربّت عليه ويطمئنه من دون أن يخفي ضحكاته الساخرة، ثم وجّه الكلام للرجال بلغتهم فضحكوا وهتفوا وعاد يقول لدكرور:

- أرأيت!.. إنه يرحب بكَ مثلنا، فقط اهدأ..

أراد عمار أن ينهض لكن استوقفه دكرور بأن أمسكه من ذراعه بعصبية وأجبره على الانحناء حتى بدا أنه سيضربه لكنه همس إليه:

- أين أنا؟

التفت عمار عنه باستهزاء ولا مبالاة مستفزة إلى الرجال وكلمهم فيما بدا كأنه يترجم لهم ما قال، فضحك بعضهم وازداد غضب دكرور وأمسك بتلابيبه وأجبره على الوقوف معه، ولاحظ سكينًا معلقًا من خصره لكن لم يعبأ به، وعاد يسأل بعصبية وغضب:

- قلت أين أنا!

كان بعض الرجال يتلوّى من شدة الضحك، والبعض الآخر يبدو قلقًا، وعمار يبدو عليه أنه سئم من المزاح حين قال:

- يجب أن تهدأ أولًا وسأخبرك بكل شيء...

فتركه دكرور بعد أن سحب سكينه بهدوء دون أن يشعر، وبدت الحيرة على عمار فنظر إلى موريس دون أن يتكلم، فأخبره بشيء وصفق بيديه مرتين، وقال شيئًا لرجاله جعلهم يتفرقون، فقال عمار بسأم كأنه مغلوبًا على أمره:

- حسنًا.. دعنا نجلس أولًا

تقدم عمار الطريق وتبعه دكرور، ولم يلحظ أنه قد دارَ إلى الجهة الأخرى من المكان؛ إلا بعد أن جلس عمار أولًا ودعا دكرور ليجلس أمامه، ثم عاد يقف بسرعة حين رأى أحد الرجال يقف فوقه على السقف كالخفافيش، فرفع عمار رأسه هو الآخر ونادى وهو يلوّح بيده:

- دييجو!

رفع دييجو رأسه وبادله التحية وضحك الاثنان ثم انصرف دييجو إلى سبيله، وعاد دكرور يجلس بعد أن بدأ يشعر بالدوّار مجددًا، ثم قال عمار:

- لا تقلق، لن يقع علينا أحد.. تبًا! لم أتكلم العربية منذ.. منذ سنوات

وأضاف:

- انظر!.. هنا ليس هناك جدران أو سقف كل ما حولك أرض يمكن المشي عليها، عدا ذلك الجدار هناك...

وأشار إلى الجدار الذي كانوا يقفون عنده وأردف:

- لا أنصحك بمحاولة المشي عليه، المهم.. أيًّا كان ما يشدنا لأسفل فهو في كل مكان هنا

مرر دكرور أصابعه بين شعره في حيرة وتعب وزاد الاضطراب في معدته، ثم انحنى إلى الأمام وهمس:

- وأين هنا؟
- أمم! لا أظن أنك مستعد لأن تعرف، لكن دعنا نتعرف أولًا، لم تقل من أين أنت..

رغم شعوره بالاستفزاز الشديد إلا أن دكرور قرر أن يجاريه فأجاب:

- من مصر
- حقًا!! لطالما أردت الذهاب إلى هناك، على كل حال.. وأنا من المغرب، أه! لا تتخيل مدى سعادتي أنك هنا.. فقد كنت الوحيد العربي هنا لمدة طويلة جدًا، بل كنتُ الوحيد العربي على الإطلاق

لم يعبأ دكرور بأي مما قال وظل يحدق فيه بثبات ثم همس:

- فقط أخبرني أين نحن لكي أرحل
- تبًا! بالطبع تريد أن ترحل، كم أن هذا يفطر قلبي! حسنًا فلنبدأ من البداية، لقد كنتَ على سفينة في البحر صحيح؟!...

أومأ دكرور فأردف عمار:

- وقبلها كنتَ تهرب من شيءٍ ما؟!

ثم أضاف دون أن يتلقى أي إجابة أو إماءة:

- ثم جاءت العاصفة؟!... ثم غرِقتَ؟! أليس كل ذلك صحيح؟

ولم يدعه عمار يستوعب الكلام حتى، ولم ينتظره حتى يجيب فقال بسأم:

- بربّك! ما هي عِلّتك؟ هل أنت أبكم حقًا أم تدّعي ذلك؟!

استعر دكرور غضبًا بسرعة وهو يرمق عمار في ذهول، إذ لم يكن أحد ليجرؤ على قول ذلك من قبل، ولم يكن ذلك فقط ما جعله يغضب، إذ عاد صوت النحيب الذي يصم الأذن، وربما لمس عمار الغضب والخوف في عين دكرور فقال بهدوء وحذر:

- اهدأ! إنه لا شيء، فقط اهدأ...

ولم ينتظر دكرور أكثر، سحب السكين ووجهه إلى عمار الذي أراد أن يسحب سكينه لكنه وجده هو نفسه الذي في يد دكرور، فقال بدهشة شيئًا بلغته، ثم رفع يديه مستسلمًا وهو لا يزال يجلس في مكانه، حتى همس دكرور بعصبية:

- أين المخرج من هنا؟

أشار عمار بإصبع واحد ناحية الجدار الذي عند أول المغارة، ولم يجد دكرور فيه شيئًا يدل على أنه مخرج، لم يجد سوى الجثة التي استيقظ بجانبها على حالها، وحين لاحظ بقية الرجال يهرعون إليه وبعضهم يحمل أسلحة وحِراب؛ أجبر عمار على الوقوف ووقف هو وراءه وهو يشد شعره ليرفع رأسه ويضع السكين على رقبته، مواجهًا للرجال الغاضبين الذين يوجّهون حِرابهم نحوه دون أن يهاجموا.

وبدأوا يتكلمون بعصبية ويكلمون عمار بلغتهم، بدا عمار أنه يحاول تهدئتهم وإن لم ينجح في تهدئة دكرور، ثم علا صوت الغناء أكثر وأخذ يحتدّ ويغلظ، فضغط دكرور بالسكين أكثر حتى أدمى رقبته وهمس في أذنه مباشرةً:

- ما هذا الصوت؟

- حسنًا حسنًا!!! تريد أن تعرف أين أنتَ! حسنًا لا بأس.. كنتُ أريد أن أخبرك بطريقة أسهل، لكنكَ الآن... أنتَ في جوف حوت!
- ماذا قلتَ؟

ثم لم تكن هناك فرصة ليفكر بعدها، ارتجت رأسه فجأة فسقط أرضًا وأظلمت الدنيا ثم عادت تتوهج وتظلم، وصوت الصفير لا ينقطع ولا يخفت، وبقيَ في أذنه ثم تحول إلى غناء بعد أن غاب عن الوعي، لم يكن غناء بالكلمات أو بالموسيقى، بل غناء جميل ساحر فحسب.



(2)

شعر براحة غريبة ليس فقط في رأسه بعد أن ذهب عنها الصداع، لكن شعر أيضًا بالراحة في نفسه وفي المحيط من حوله، فكان يسبح بهدوء ووقار في ظلمة أعماق المحيط، لا يعبأ بشيء كملك حقًّا، لكنه ملك من دون حاشية أو نسل يمرر إليه ملكه، فقد كان حوتًا وحيدًا في ذلك المحيط الواحد.

يرى كثيرًا من الحيتان المختلفة يعرف أنواعها كلها، لكن لا يعرف لها من أسماء سوى بعض الأنواع التي أخبره عنها الرجال الذين يعيشون في جوفه، فالبشر وحدهم من لديهم تلك القدرة الفريدة على إعطاء الأشياء أسمائها، يفعلون ذلك طوال الوقت، بحاجة وبدون حاجة، فلكل شيء عندهم اسم، ولكل اسم معنى، ولكل معنى شعور يصاحبه.

يسمون نوعه من الحيتان "الحيتان الرمادية"، ولم يكتفوا بذلك، فسَمّوه هو "أطلس"، فهم يعتقدون أن إعطاءه اسمًا كفيل بأن يجعله إنسان.

كان رجاله الذين في جوفه هم الأنيس الوحيد لوحدته، وفي حين أنه دائمًا ما يكون أحدهم نائمًا، فلم يكف أطلس عن الحديث معهم أثناء ذلك، وفي غير النوم كان يشعر بهم ويسمعهم في جوفه ويدرك ما يحدث فيه، ليس إدراكًا

فحسب بل كأنه يرى ما يحدث رأيَ العين كأن لديه عين ثالثة في داخل جوفه، يعشق رؤيتهم يلعبون ويتقاتلون ويمرحون، فكان ذلك ما يؤنس وحدته في ظلمات المحيط الذي ليس له حدود.

لكن رغم ذلك فلا يزال هناك شيء ناقص، فهو يحتاج لأن يتفاعل مع بني جنسه الذين لا يجدهم، يُقال أن الحيتان الرمادية قد أُبيدت على يد البشر ولم يعد لها وجود، لكن أطلس وهو حوت رمادي ذو جوف؛ لا يزال يشعر بهم في مكان ما بعيد، ففي بعض الأحيان ينتابه شعور بأنه قد انتقل فجأة إلى مكان آخر من العالم، يعلم أن ذلك حوت رمادي آخَر، لكنه بعيد جدًا فلا يقدر على الشعور تجاهه بأكثر من ذلك، فلا يقدر على تحريكه أو جعله يأتيه مثلما يرى حيتان أخرى تفعل، ثم سرعان ما يتلاشى ذلك الشعور قبل أن يدركه.

لكن هذه المرة كان الشعور قويًّا لدرجة أن أطلس رأى مكان آخر غير الذي هو فيه، رأى بعيون حوت آخر مكان لم يرَه قبلًا ولا يعرف أين هو، فركّز تفكيره ليراه بوضوح أكبر، فتأكد أنه ليس مكان يعرفه.

ثم ركّز تفكيره أكثر ليحاول التحكم في ذلك الحوت لكن دون جدوى، فأخذ يسبح في دائرة لعله يقترب منه، وبالفعل ازداد شعوره به عند نقطة من تلك الدائرة، فسبح تجاهها بسرعة لكنه علم أنه ليس الطريق الصحيح إذ كانت رؤية ما يرى الحوت الآخر تتشوش وشعوره به يتلاشى، فعاد أدراجه يسبح في الاتجاه المعاكس وذلك أيضًا كان الاتجاه الخاطئ، وكان آخر ما رأى أطلس مما يرى ذلك الحوت؛ هو حوت آخَر.

توقف فجأة عن السباحة مذهولًا، لا يصدق أنه رأى حوت من نوعه، كان قد نسيَ شكل أمه التي قُتلَت منذ زمن بعيد، وبالطبع لم يرَ نفسه من قبل، ورغم ذلك فإنه متأكد من أن ذلك الحوت هو حوت رمادي يشبهه، لكن أين هو؟.

عاد أطلس يسبح وحيدًا خائبًا، لكن أيضًا مندهشًا بأن تأكد من أنه ليس وحده، وعزم أمره لأن يكثف جهوده في البحث أكثر مما كان يفعل، لكنه انشغل عن كل ذلك وعن الحيتان عندما شعر بالاضطراب في جوفه، وعلم

على الفور أن أحدهم في خطر بسبب الرجل المزعج الذي التقمه حديثًا، فأصدر أطلس أغنية سمعها المستيقظون مجرد صوت يصمّ آذانهم، بينما سمعه النائمون يقول:

- أوقفوا ذلك المجنون قبل أن يؤذي عمار!

فقال بوهاردي:

- أترى يا موريس! أخبرتك ألا نتركه وحده مع عمار

وأضاف أوساي:

- أه إن عمار يستفزنا نحن لكي نقتله، فما بالك بذلك الرجل؟! صحيح يا أطلس.. أتدري ما عِلّته؟
- لا أعلم، إنه فقط لا يتكلّم

فقال موريس:

- إذًا هو أبكم؟

ورَد بوهاردي:

- ربما، لكنه يسمع ويهمس

وقال أطلس:

- أبكم؟!! إذًا هذه عِلّة فيه؟ ربما يمكن شفاؤه!

أجاب موريس:

- ممكن.. لكن ممكن أيضًا أنه وُلِد بها
- حسنًا لا يهم الآن، ربما سأعرف منه حين ينام، والآن اذهبوا وتولوا أمره

وأجبرهم أطلس على الاستيقاظ، وانتظر قليلًا حتى نام الرجل بعد أن أفقدوه وعيه، وقرر ألا يضيّق عليه نومه فلا يعنفه أو يشتد عليه، ليس فقط لأنه جديد ولا يزال لا يعلم أي شيء، بل أيضًا لأن أطلس يشعر بالسعادة.

★★★

لم يعبأ بعودته إلى السفينة الغامضة التي كانت تبحر دون طاقم أو رياح أو وجهة، ولم يكن يعبأ بأي من ذلك أيضًا، ومن حين لآخر كان يسمع صوت النحيب صادرًا عن السفينة نفسها، ومن حين لآخر يسمع ذلك الصوت الحاد السريع الذي يشبه سكب الماء على الحطب المشتعل.

استيقظ دكرور ولم يحاول استعادة الحلم، بل ولم يحاول الحركة حتى، ليجد رأسه يؤلمه بشدة مما جعله يعود إلى عالم النوم ومنه إلى عالم الأحلام وإلى السفينة الغامضة مرة أخرى، وهذه المرة كان عليها ثلاثة رجال من المغارة، كانوا القزم والرجل الهزيل الأسود والرجل المتأنق، كان دكرور يكلمهم وشعر بالألفة تجاههم كما لو كانوا أصدقاءه منذ الصغر، لم يكونوا يتكلمون بلغتهم ولا حتى بالعربية لكنه كان يفهمهم ويردّ عليهم ويضحك على مزاحهم.

استيقظ دكرور مرة أخرى دون أن يعود إلى الوعي، ومرة أخرى؛ لم يكلف عقله عناء استعادة الحلم، ولم يكلف جسده عناء محاولة الحركة، فلم يكن مانع من العودة إلى النوم وإلى السفينة ليجدها عادت خالية مرة أخرى، ووجد نفسه يكلم أحدًا ما كأنهما يتحاوران منذ مدة...

- إذًا منذ متى وأنت فاقد النطق؟
- منذ أن كنتُ في الثانية عشر، أحد الحلاقين أو بالأحرى أحد الجزارين انتزع مسمارًا من حلقي وكان الثمن صوتي
- لكنه أنقذ حياتك، يجب أن تكون ممتنًا أكثر من ذلك
- أه نعم!، أنا في غاية الامتنان، لقد أخذ صوتي وأعطاني حياتي، يا لها من تجارة رابحة!
- يجب أن تعلم أن صوتك ثمنٍ بخس مقابل حياتك، كما أنه نادرًا ما يحصل الإنسان على كل شيء في الحياة

- ويا لها من حياة حصلتُ عليها، كادت أن تنتهي بكل صخبها لو كنتُ غرقت كما كان من المفترض
- أعذرني إذ لم يكن من المفترض أن أتركك تغرق
- لا تنتظر مني أن أمتنّ لكَ.. من أنتَ على كل حال؟

وشعر بنشوة كادت أن توقظه أنه أخيرًا قد سأل السؤال الصحيح، حتى جاءته الإجابة:

- أنا الحوت الذي أنت في بطنه
- أه صحيح**!** كدتُ أن أنسى، وماذا عن باقي الرجال؟ أعني من يكونون؟ يبدون غرباء جدًا
- إنهم رجال صالحون.. لا تؤذِهم، أنا نفسي لا أتهاون في ذلك، لقد عفونا عنكَ هذه المرة فقط

شعر دكرور بقليل من تأنيب الضمير لما فعل، ثم نظر إلى السفينة من حوله وقال:

- ولم لا تبدو كحوت؟
- أنت في حلم
- حقًا**!**.. لا يبدو هذا كحلم أيضًا
- إنها الطريقة الوحيدة التي بإمكاني التحدث بها إليك
- ربما هي الطريقة الوحيدة التي بإمكاني أنا التحدث بها
- صحيح**!** لقد تركتُ لك هدية بمناسبة حياتك الجديدة

وشعر دكرور بالامتنان الشديد وسعادة لا توصف رغم أنه لا يعلم عمّا يتحدث ثم قال:

- أريد أن أراكَ.. هل أنتَ موجود أصلًا؟
- سأحرص على أن تراني في أقرب وقت، لكن يجب أن تستيقظ أولًا

مالت السفينة فترنّح دكرور وأثناء سقوطه على جانبه؛ دارت الدنيا من حوله، وارتمى على جانبه لا يقوى على الحركة والصداع يهشم رأسه

ليســـتحيل العالم من حوله إلى عالم آخر، إذ كان الواقع بتفاصـــيله وقتامته ورائحته، كان الظلام الكئيب الذي تصـــحو في منتصـــف الليل لتجده يلف الهواء من حولك، ويلف صدرك من حول قلبك.

وهذه المرة كان يقظًا كفاية لأن يفكر أين هو، واستغرق بعض الوقت قبل أن يدرك ذلك، فكان هذا كافيًا لئلا يعود إلى النوم، وأن يتذكر ما حدث قبل أن يغشـــى عليه، وجعله يتذكر الألم الذي يهشـــم مؤخرة رأســـه، فأراد أن يتحسسها إن كانت تنزف لكن كانت يده مقيدة خلف ظهره.



بجانب الصـــداع الذي يطرق إزميلًا على عينه؛ أخذت الأفكار تتصـــارع داخل رأســـه، فهو لا يريد أن ينســـى الحلم كما يفعل دائمًا، وفي نفس الوقت كونه مقيدًا مثل البعير عند الذبح يمنعه من التفكير في أي شـــيء آخر، فظل يخبر نفســـه "الحلم لا تنسَ الحلم والحوت كان يخبرك بشـــيء، بل أشـــياء، اللعنة! أنا في بطن حوت حقًا!!".

أخذ يتلوى مثل سمكة وقعت في شبكة، وأنفاسه تتسارع بشدة وعضلات فخذه تكاد أن تتمزق من طول شدها.

- غبي!

جاء الصـــوت من ورائه فالتفت ليجده الفتى العربي الذي نســـيَ اســـمه؛ جالسًا بجانبه، وأردف:

- إن كنتَ انتظرتَ قليلًا كنتُ ســـأخبرك كل شـــيء، وما كان ليحدث أيًا من هذا...

همس دكرور بوهن وهو بالكاد يفتح عينيه من شدة الألم في رأسه:

- فُكّ قيدي!

فاقترب الفتى أكثر وقال:

- ماذا قلتَ؟
- تبًا لكَ! قلتُ فكّ قيدي أيها الوغد!

فقال الفتى بلا مبالاة:

- كنتُ أريد ذلك فعلًا، لكن بوهاردي قال أنه يجب أن تتعلم القليل من الأدب.. أعتقد أنه محق!

أسكن دكرور حركته وأغمض عينه ووضع جبينه على الأرض وقد يئس من الحركة وما تجلبه من ألم، ثم تذكر اسم الفتى "عمار!" وتذكر أن آخر ما قاله هو أنهم في بطن حوت، ورغم أنه لا يزال يشك في الأمر برمّته إلا أن مجرد التفكير فيه يجعله يشعر بالمغص.

ثم عاد عمار يقول:

- إذًا فلنكمل ما بدأنا.. أعتقد أن آخر ما قلته هو أنك في بطن حوت صحيح؟

وظل دكرور لا يحرك ساكنًا وجبهته تقبل الأرض، ولما لم يعطِه إجابة أكمل عمار الكلام:

- حسنًا أيها السيد المحترم.. أرحب بكَ معنا في جوف الحوت أطلس! والذي يبلغ قرابة المائة وثلاثين قدمًا طولًا...

فنظر دكرور إليه في محاولة أخيرة يائسة ليتبين إن كان جادًا أم يمزح، فأصابته خيبة الأمل حين وجده جادًا إلى حد كبير، وأردف:

- ما حدث لك حدث لنا جميعًا، فجميعنا هنا للسبب نفسه.. هو لأننا هربنا إلى البحر، واعلم أنه ليس من شأن أي أحد أن يعرف مما كنتَ تهرب، لا تخبر أحد بذلك حتى وإن سألك.. مفهوم؟

ثم أضاف:

- ثم عندما تركب السفينة وتبحر بكَ وتظن أنك نجوت؛ تأتي عاصفة مهمتها الوحيدة أن تغرقكَ أنتَ بالذات، من دون أن تهتم إن أغرَقَت

السفينة كلها، ثم تسلمكَ لأطلس الذي يكون في انتظارك تحت السفينة، يجب أن تعلم أنك محظوظ لأن أطلس هو من التقمك وليس حوت آخر

ابتلع دكرور الكلام رغمًا عنه، وقرر ألا يفكر في الأمر لأبعد مما قيل فيه، ولا يسأل أكثر مما قد عرف بالفعل، ثم لاحظ سكوت عمار المفاجئ ووجده يبدو مترددًا وحائرًا في أمره، ثم ازدرد ريقه قبل أن يقول:

- لقد قال موريس أن أخبرك تحسبًا لأي طارئ... أتعرف سفن صيد الحيتان؟

ثم أجاب نفسه:

- إنها سفن يصطادون بها الحيتان ويسلخونها ويقطعون شحمها ويغلونه للحصول على الزيت، وكل ذلك في عرض المحيط، يصادف أطلس تلك السفن من حين لآخر، وحينها يعلمنا كي نخرج ونصعد إلى تلك السفينة و... ونقتل من عليها ثم نغرقها...
- مهلًا! هل تخرجون؟! كيف تخرجون؟!
- سترى قريبًا.. لم يمر كثيرًا منذ آخر مرة، ويا لها من مرّة!

اشتد النور في المكان شيئًا فشيء وشعر دكرور بشقوق النور من تحته وهي تتسع، فقال عمار:

- آه! حين يضيء المكان يعني ذلك أننا قرب السطح، ويمكن أن يدق ناقوس الخطر في أي لحظة...

سكت عمار فجأة، وبعد برهة أمسكت يدٌ برأس دكرور وشدت شعره بعنف كاد أن يكسر رقبته، وشعر بأنفاسٍ رطبة في أذنه، وتمتم صاحبها بكلمات كثيرة أنهاها بكلمة "دكرور"، التي قالها كأنه يبصقها، ودكرور يصرّ على أسنانه ويغلق عينيه من شدة الألم، ولما فتحها وجد سكينًا مصوبًا قرب عينه لكن لم يتبين حامله، وتُرِكَت رأسه فارتطمت بالأرض ثانيًا، ثم قام حامل السكين وكلّم عمار ثم تركهم وذهب، بعدها أخبر عمار:

- سأفك قيدك الآن، لكن إذا حاولت أن تؤذي أحدنا ثانيًا ستندم على ذلك، إننا لا نتهاون في ذلك، هل فهمتَ؟ والآن أثبت...

قطع الحبل بين القدمين واليدين أولًا، فوجد دكرور عضلات ساقه وبطنه متيبســـة ثم أخذت ترتخي بألم حلو، بعدها فك اليدين ثم القدمين فاعتدل دكرور في مضطجعه، ومطّ جسمه كله حتى كادت أن تنفصل أوصاله، ونام على ظهره محتضنًا صدره بذراعيه يراقب عروق النور التي تريح عينه، لا يفكر في شيء ولا يبالي بشيء ولا بعمار عندما عاد يقول:

- هذه هي القاعدة الأولى لا تتعرض لأحدنا، لقد ســامحناك هذه المرة فقط، ثانيًا حين يتم اســتدعائنا للســطح لا تتقاعس، يمكنك فعل ذلك بالطبع لكننا لن نسمح لك، ثالثًا لا تحاول الهرب إذ إنك ستنجح وحين تفعل؛ ستموت.. صـدقني إن أطلس لا يغفر الفرار، أول وآخر واحد حاول الهرب كان منذ أيام قليلة وكان مصيره الموت

نظر دكرور بعصبية إلى عمار، ونهض جالسًا يلتفت بحثًا عن الجثة التي كانت ترقد بجانبه أول مرة يســتيقظ هنا، فوجدها بالقرب منهم على حالها، وأشار إليها بعصبية فقال عمار:

- أه! لا.. ليس ما تظن، ليس ذلك هو

عـاد دكرور يتمدّد على ظهره وظـل راقدًا حتى كـاد أن ينـام، وانتفض بسرعة لما سمع صوت الصافرة مجددًا، يريد أن ينتشل نفسه من الحلم إن كان يحلم، لكن سرعان ما شعر بخيبة الأمل حين علم أنه ليس نائمًا.

كاد أن ينســاه، أو ربما أراد أن ينســاه، لكن هناك جزء صـغير بداخله لا ينسى ويصدق أنه في بطن حوت حقًا، وكل مرة يتفاجأ أكثر من قبلها، وهذه المرة كانت الأغنية على ثلاث صـــافرات قِصـــار، هبّ عمار واقفًا فور ســـماعها وزعق أحدهم بكلمة، فأمســـك عمار بذراع دكرور يحثه على الوقوف وقال بعصبية:

- استعد!! سنصعد إلى السطح الآن...

★★★

اضـــطرب المكان بعد أن كان ســـاكنًا وتوتّرت حركة الرجال وعَلَت أصواتهم بعد أن كانوا هادئين، فهرع عمار ينضم إليهم في استعدادهم، تاركًا دكرور يقف وحده في بقعة شـبه مظلمة عند طرف المكان الواسـع بجانب الحائط المستقيم.

وفي غضـون دقيقة واحدة كان جميعهم مسلحين بالحِراب، وبعضـهم كان يحمل سـيوفًا، ومافي الضـخم كان يحمل بلطة كبيرة بنصـلين على الجانبين تليق بحجمه، هذا بالإضافة إلى مسدس أو بندقية لكل واحد منهم.

رأى دكرور ذلك فتذكر ما قال عمار عمّا يفعلون حين يخرجون كأنه لم ينتبه للكلام إلا الآن، لكن إذا كان القتل هو ما يســتعدون لارتكابه؛ فلم يبدُ عليهم ذلك، بل كانوا كأنهم ذاهبين للصيد مثلًا.

ثم حين عادت الصـافرات تتكرر أسرعوا ناحية الجدار القائم ومنهم اثنان يحملان الجثة، ثم توقف بوهاردي ليواجههم وتكلم فيما بدا ككلمات تشـجيع ورجاله يؤمنون على كلامه اسـتحسـانًا رافعين أسـلحتهم مع صـيحاتهم، ودكرور يقف عند الجهة الأخرى بحيث إذا نظر أحدهم فوقه لرآه، ويكاد لا يتنفس لكي لا يلحظه أحد.

ولما أنهى بوهاردي خطبته التشـجيعية التي لم تطُل كثيرًا، وأراد أن يستدير؛ استوقفته رؤية دكرور واقفًا بثبات يحدق فيهم، فأشـار إليه بحربته ووجه كلامه إلى عمار، فسار عمار إليه وهو ينظر إليه شزرًا، وأمسكه من ذراعه وسأله:

- مستعد؟

هز دكرور رأسـه نفيًا بعصـبية، فتناول عمار حربته من وراء ظهره ودفعها إليه وقال:

- أنت الآن مستعد

ثم أومأ إلى بوهاردي برأسه وبادله بوهاردي الإماءة، ثم قال عمار:

- والآن اسمع...

بعدها فقد دكرور حاسة السمع هي الأخرى، حين رأى بوهاردي يدخل يده في الحائط ويُسحَب إلى داخله، ويتبعه الاثنان حاملا الجثة، ثم باقي الرجال الواحد تلو الآخر، وعمار لا زال يكلمه فأدركه وهو يقول:

- ...سيقتلك إن فعلتَ.. بل سأقتلك أنا بنفسي إن فعلتَ، اتبعني وافعل مثلي وافعل ما أقوله لك وسيكون الأمر على ما يرام...

ثم أشار إلى أحد الرجال الخارجين وأردف:

- أترى كيف يفعلها؟.. ضع يدك أولًا ثم ادفع بجسدك إلى الداخل، واجعل رأس حربتك لأسفل

وأخيرًا تذكر دكرور أن بإمكانه الكلام فهمس إلى عمار:

- ماذا تريدني أن أفعل؟
- تبًا! ألم تسمع كلمة مما قلتُ؟
- لن أقتل أحدًا
- حقًا!.. وكيف جئت إلى هنا إذًا؟

قالها عمار وهو يشير بعينه إلى ملابس دكرور الدامية، فرمقه دكرور بنظرة باردة فأردف:

- حسنًا لا تخبرني، فقط هيّا بنا

ثم جاء الفتى النحيل وأعطى عمار حربة أخرى فأشار دكرور إليه وهمس إلى عمار:

- ماذا عنه؟
- سامبار لا يمكنه الخروج...

ثم لاحظ دكرور أن المكان قد أصبح خاليًا إلا منهم الآن، فطرأت في رأسه فكرة أن يقتلهم، لكن تلاشت تلك الفكرة حين أمسكه عمار من كتفه ونظر في عينه وقال:

- لا تخف! سأكون بجانبك طوال الوقت، لن أجعلك تستخدم تلك الحربة هذه المرة، وأعدك أني سأخبركَ بكل شيء.. اتفقنا!

ثم ابتسم وذهب حيث كان يُشفَط الرجال، وأشار إلى شِقًّا طوليًّا مظلمًا كان أوسع من شقوق النور، وقال:

- أنت أولًا، خذ نفسًا عميقًا قدر استطاعتك، هيا! سأكون وراءك مباشرةً

وربّت سامبار على كتفه وتمتم بكلمات، ثم وضع دكرور يده يتحسس الشق الكبير وفكر "ربما لن تأتي فرصة أخرى للخروج من هنا"، فعزم أمره ودفع بنفسه داخل الشق، فوجده متحجرًا مثل معظم المكان عند حافته فقط ويصبح أضيق وألين وتصبح الرائحة أسوأ؛ كلما تقدم أكثر، وشعر بماء يتدفق من مكانٍ فتذكر أنه سيصعد إلى البحر الآن وفكر "تبًا! لم آخذ نفسًا"، ثم حاول أن يرجع لكنه وجد عمار وراءه مباشرةً يدفعه هو الآخر للخارج، وذُعِر حين أدرك أن البحر هو الطريق الوحيد الآن.

خرج دكرور من ذلك النفق إلى الماء والظلام يعم المكان لكن لمح شمس تلوح من فوقه قبل أن يغلق عينيه، وشعر بعمار يدفعه لأعلى وشعر بالمياه تبرد قليلًا، ثم سبح بحركات خرقاء نحو السطح، ورئتاه فارغتان لا يجرؤ على مَلئِهما بالماء.

لم يكن السطح بعيدًا إذ إنه سرعان ما وجد نفسه يتنفس الهواء، فشهق فأصدر صوتًا لم يكن يعلم أنه يملكه، وظل في مكانه يضرب المياه ويركل البحر محدثًا ضوضاء عالية، ثم لاحظ سفينة بجانبه مباشرةً فحاول أن يسبح إليها قبل أن يجذبه عمار ويسبح به نحو باقي الرجال الذين يتعلقون بالسفينة من أسفلها، فتعلق دكرور بشبكة كبيرة ملقاة على جانب السفينة مثل البقية، لا يفكر في شيء سوى أنه لا يجب أن يفلت الشبكة، وكان على استعداد أن

يكمل بقية حياته هكذا، لا يريد أن يصعد إلى السفينة ولا يريد أن يعود إلى البحر ثانيًا.

وتعجب حين وجدهم خمسة فقط، وبعد انتظار لم يطُل أُلقيَ شيئًا في الماء أمامهم ربما كان حجرًا صغيرًا، وبهدوء شديد بدأ الرجال يتسلقون الشبكة إلى متن السفينة، فقال عمار وهو يصعد:

- لا يجب أن تبقى هنا، تعالَ معي ولا... أين حربتك؟

فتركه عمار وأكمل طريقه وهو يتذمر.

ثم ما لبث دكرور أن سمع خطوات مسرعة، تبعتها شهقات متحشرجة، تبعها ارتطامًا مكتومًا، تبعه صيحات، تبعتها صرخات، تبعتها جثة تلقى أمامه في البحر خضبت المياه بالأحمر في ثواني.

ثم ضُرِب جرسًا فعلت الصيحات أكثر، وعلا وقع الأقدام على الخشب، ثم رأى أحدًا يَلقِي بنفسه من مقدمة السفينة، وأخذ يسبح مبتعدًا عنها إلى لا مكان، ولم يبتعد كثيرًا حتى طارت حربة من السفينة لتستقر في ظهره أسكنت حركته من فورها، ثم سمع بعدها طلقات نارية مدوية مع صيحات معركة حقيقية.

شعر دكرور بالدوار من شدة أنفاسه ومن تسارع الأفكار في عقله، فكر أنه يجب أن يصعد ليوقفهم، لكن ذهبت الفكرة حين رأى الجثة التي تطفو أمامه، ثم فكر أن يسبح ويهرب بعيدًا، لكن هذه الفكرة أيضًا ذهبت حين رأى الجثة البعيدة والحربة الراشقة فيها، ثم فكر أن يصعد لينضم إليهم وربما يساعدهم، أو فقط ليشاهد ما يحدث.

فاستقر أمره على أن يصعد وليحدث ما يحدث، وما أن وضع أول قدم على الشبكة لمح شيئًا في الماء بجانب الجثة العائمة تبدو كصخرة بيضاء كبيرة، دقق النظر فيها فرآها تنفلق نصفين، فتوقف قلبه وعقله وتيبّس كل جسده، حين أدرك ماهية هذه الصخرة، إنه هو، الحوت، إنه **"أطلس!"**.



فصلًا آخر مثيرًا لكن لا يفسر أي شيء، حملتُ الكتاب تحت ذراعي وخرجت من غرفتي، واختلست النظر إلى الغرف الأخرى فوجدتها خالية لكن يبدو أن هناك من كان يسكنها، كنت أعلم أن ذاك الرجل الذي قابلته أول ما وصلت، والذي نسيتُ اسمه؛ يعيش هنا، لكن يبدو الأمر أن هناك أكثر من ثلاثة فقط يعيشون هنا.

نزلتُ لأجد دكرور يجلس كما كان البارحة، وسام بجانبه يجلس أمام حاسوبه ولا يزال يعتمر طاقيته كما كان البارحة، فحيوني بابتسامات وقال سام وهو يقدم لي القهوة:

- لم نرِد إقلاقك
- أه أنا لم أنم هكذا من قبل

رأى دكرور الكتاب في يدي فقال بمرح:

- كم قرأت؟
- فصلين
- فصلين فقط؟! ما رأيك إذًا؟
- أعذرني يا سيد دكرور! لكنني لم أصدقكَ، ولا زلت لا أصدقكَ، فلا تنتظر مني أن أصدق أن تلك القصة حقيقية

ضحك دكرور وسام، وقال سام:

- لك الحق في ذلك يا إدي، أنا نفسي لم أكن أصدقه لفترة

وزاد ضحكهم، ثم قال دكرور:

- وما رأيك فيها كقصة خيالية إذًا؟
- لا يمكنني الحكم من فصلين، لكنها لا بأس بها حتى الآن
- حسنًا خذ وقتكَ يا إدي، ولا تستعجل

ثم أردت أن أكمل القراء لكن قلت:

- هل من أحد آخر يعيش هنا؟ غيركم... صــــحيح لقد رأيت رجلًا آخر عندما وصلت هنا البارحة، كان اسمه... يوزي! نعم!

بدت عليهما الحيرة كأنهما لم يعلما بشأن ذلك الرجل، ورَدّ سام:

- أه يوزي! إنه صديقنا.. ويعيش معنا بعض الأصدقاء، لكنهم ليسوا هنا الآن

ثم قلت لدكرور:

- حدثني عن عملك يا سيد دكرور، ولمَ أنتَ مهووس بتلك الحيتان هكذا؟
- لماذا أحب الحيتان؟!! ألن تحب شيئًا لطالما قاتلتَ من أجله؟
- وكيف تجعلها تفعل ذلك؟ هل تروّضهم مثلًا؟

قلتها وأنا أرفع يدي لأحاكي ما فعلنا على المركب وخروج الحيتان من الماء، فضحك دكرور وسام فشعرت بالحمق لذلك، وفكرت أن أسأله إن كان أطلس هو من يفعل ذلك من تحت الماء، لكن لا يبدو ذلك منطقيًّا، كما سيجعلني أبدو أكثر حمقًا ورَدّ دكرور:

- نعم، يمكنك القول أني أروّضهم

وأضاف سام:

- لطالما كان هناك حيتان أكثر إنسانية من البشر يا إدي!.. تذكر ذلك!

ثم تركتهم وخرجت إلى الشرفة التي تطل على البحر، وأكملت القراءة...

الفصل الثالث

"مثل السَّمَك"

(1)

كأن مثانته كانت تتحين تلك اللحظة منذ أن خرج إلى الماء، فأطلقَت العنان لنفسها دون حرج لينساب الدفء بين ساقيه، وانسابت معه قدرته على الحركة.

غاصت الصخرة في الماء وظهر جسد على السطح، ممددًا في هدوء عجيب، طويلًا كطريقٍ سيأخذك إلى البرّ في نهايته، عليه خطوط وأخاديد تتلاقى وتتفرق كخريطة لعالم آخر، خريطة تعمّها الندوب والقشور والبقع البيضاء عند مقدمته، أما باقي جسده فكان رماديًّا شاحبًا كالقمر إذا انطفأ.

إنه هو بالفعل.

إنه كل حقيقة قاسية اختبرها البشر وكل صدمة صعقت أحدهم، رؤيته كانت كالاستيقاظ من الحلم على مشارف النوم، أو كالماء البارد على الجسد المحموم، إنه كل شيء يخرجك من عالمك، ويقلب كيانك، ويمزق توقعاتك، ويعكر صفو أحلامك.

تطفو أمامه أقبح حقيقة رآها في حياته، حقيقة لا تتورع عن إبداء قبحها وقسوتها، ولكي يعلن عن نفسه بجلاء أكثر رفع ذيله الأسود العريض الذي يبدو أنه قد قُضِمَ منه قطعة؛ فوق الماء ونفث عمود رذاذ أبيض متلألئ من ظهره في خُيَلاء بَيِّنة، فقبّلت قطرات الرذاذ ذات الرائحة الكريهة وجه دكرور، فلذعت جلده واقشعر جسده وقد أفاق من إغمائه الذي طال دهرًا، لا يعلم لماذا يعجز عن الالتفات عنه، "ماذا أفعل الآن؟ كنت مقدمًا على فعل شيء، ما هو؟ منذ متى وأنا أتعلق هكذا؟".

ثم غاص الحوت واختفى تحت السفينة، فلم يجد دكرور أمامه سوى الجثة العائمة على بحرٍ من دمائها، رؤيتها فقط أعادت إلى عقله كل فكرة كانت قد هربت منه حين رأى الحوت.

أكمل دكرور طريقه إلى متن السفينة بعد أن استعاد شيئًا من رشده، وما أن كاد يصل وجد الرجل المهندم ينظر إليه من أعلى متعجبًا، ربما كان

يتساءل إن كانت إحدى الجثث قد عادت لتنتقم، مد الرجل إليه يدًا يقطر منها الدم ليساعده على الصعود وهو يتمتم بكلمات، لكنه تجاهلها وصعد بنفسه.

ولم يلحظه أحد، إذ كان أحدهم يحمل جثة على كتفه ينزل بها إلى الكوثلة، ووراءه اثنان يمسكان بأخرى أمام بعضهما من الذراعين والقدمين، وآخَر يجر جثة من يدها، والبقية جالسين بوجوه ممتقعة وعيون شاردة في بقعة دم مجاورة أو يدين راجفتين، لا يفعلون شيئًا غير الجلوس، مرر بصره بينهم فوجدهم جميعًا ملطخين بالأحمر وحرابهم يقطر منها الدم كأنها هي المجروحة، وظلوا على حالهم فترة، حتى بدأ بعضهم في جمع الحبال، وبدأ آخرون يقومون بأعمال أخرى، وكل ذلك في صمت وهدوء.

جاء عمار وجلس بجانب دكرور دون كلام، ثم جاء أحد الرجال الذين كانوا يحملون الموتى ومعه طبق صغير يحتوي على التفاح، فألقى بتفاحة إلى الرجال الواحد تلو الآخر، حتى عادت الابتسامات إلى وجوههم شيئًا فشيء وعادت ألسنتهم إلى عملها، وألقى تفاحتين واحدة لدكرور وأخرى لعمار لكن التقط عمار كلاهما وضحك، ثم قال عبارة إلى صاحب التفاح أنهاها بـتاندي، فرد عليه تاندي بنبرة تحذيرية رافعًا تفاحة عطنة فوق رأسه متوعدًا، فضحك عمار أكثر وأعطا دكرور تفاحته، فذهب تاندي إلى سبيله.

ثم قال عمار وهو يمضغ التفاحة:

- كيف حالك؟

لم يعِره دكرور اهتمامًا وظل يتأمل تفاحته دون أن يأكل منها، فأردف:

- أعلم فيما تفكر.. إننا وحوش، قتلة، مجرمين.. كل هذا صحيح، وأعلَم أنك رأيتَ ما يكفي لأن تحكم، لكنها ليست الصورة كاملة، فقط لا تحكم الآن

تناول قضمة أخرى من تفاحته وأردف:

- أتعلم.. أنا أيضًا صعدت أول مرة دون أن أعلم شيئًا، حتى أني فكرت أن أطعن دييجو، لكن اختلفت الأمور كثيرًا بعدها

- لماذا تفعلون ذلك؟

سكت عمار لبرهة يفكر في إجابة ثم قال:

- نحن نعيش في بطن حوت إن لم تلاحظ، كما أننا فقط لا نحب صـــيد الحيتان ولا الحوّاتين، انتظر وسترى.. ثم إن جميعنا كنا مجرمين قبل أن نأتي إلى هنا، ولم يضـرنا أن نكون كذلك بعد أن أتينا، أم أنك كنت قديسًا؟

ثم بدا أنه لاحظ أنه قال شيئًا خاطئًا فقال:

- تبًا!، معذرةً يا سيد! لم يكن ينبغي أن أقولها هكذا، لكن أتعلم.. سيخبركَ أطلس بشكل أفضل

التفت دكرور وراءه إلى البحر بحثًا عن الحوت ولم يجده فسأل:

- أين هو؟

التفت عمار معه وقال:

- ربما ذهب ليقضي حاجة ما، سيعود قريبًا.. دائمًا ما يفعل

أصـبحت الأمور بالنسـبة لدكرور لا تحتمل، وكل شـيء أصـبح أكثر من مقدرته على التفكير، فهو لا يريد أن يسـلم نفسـه لفكرة أنه سـيعيش في بطن حوت ما بقيَ من حياته، وكلما فكر في الأمر أكثر تأكد أكثر أن لا مفر منه، ثم سأل عمار وهو لا زال يشاهد البحر وراءه:

- وما الذي يمنعني من قتلك والهرب؟
- أولًا أنت غبي، ثانيًا أين ســـتذهب ونحن في وســـط المحيط؟، ثالثًا والأهم؛ لقد قتلنا لتوّنا تسعة وعشرين بحارًا... تبًا! أريدكَ أن تعلم أننا كلنا في هذا معًا، وأننا إخوتك الآن ولســـنا أعداءك يا... ذكرني ماذا كان اسمك؟
- دكرور

ضحك عمار وقال:

- أي اسم هذا؟! لا يمكن أن يكون هذا اسم مصري، لا يمكن أن يكون اسم إنسان حتى

ابتسم دكرور رغمًا عنه نصف ابتسامة، فلاحظها عمار وقال بطيبة:

- أعلم أنك تظن أن الأمور ستكون أسوأ، لكننا سنحرص على أن تكون أفضل يا دكرور

شعر دكرور بقليل من الألم في صدره مكان الطعنة، وعاد ينظر أمامه وربما أراد أن يردّ، لكنه وجد بوهاردي واقفًا أمامهم عاقدًا ذراعيه إلى صدره، وينظر إليه بغضب لم يُخِفْ دكرور بقدر ما أخافته ملابسه الدامية، وفكرة أنه قد ارتكب القتل منذ دقائق، ثم وجه إليه الكلام بحِدّة كأنه يعنفه، فشعر دكرور بالارتباك والتوتر رغم أنه لا يفهم كلمة مما يقال، فتولى عمار الرّد عليه في تحدٍ، وسرعان ما تبادل الاثنان الكلام الحاد وعلا صوتهما، حتى أنهى بوهاردي الكلام بكلمة أخيرة وجهها إلى كليهما وتركهم وذهب إلى سبيله.

وأحس دكرور ببعض الحرج والامتنان لعمار، فمن الواضح تمامًا أنه كان يدافع عنه، ثم عاد عمار يجلس وقال:

- لا تعبأ به، بوهاردي طيب لكنه... فقط لا تعبأ به
- هو القائد بينكم؟
- شيء من هذا القبيل، إننا فقط نستمع لما يقول

ثم ازداد الألم في صدره ومع كل نفس، فوضع يده داخل قميصه فأعادها دامية فازداد ألمه وقلقه، لاحظ عمار ذلك فسأل بلا مبالاة:

- ما هذا؟ متى حدث ذلك؟
- طعنة، قبل أن... كنتُ أظن أنها قد التأمت
- صحيح.. ما المشكلة في صوتك

رفع دكرور رأسه وأشار إلى الندبة على حلقه وهمس:

- إصابة قديمة
- منذ متى؟
- أربعة عشر عامًا
- تبًا! إنها مدة طويلة، لكانت شُفِيَت بحلول الآن...



سعل دكرور وعقد حاجبيه في استغراب وحدج عمار بنظرة لا تحتاج إلى الكلام لتخبر أنه لا يفهم ماذا يقصد، فأجاب عمار على تلك النظرة:

- فهناك منا من كان حيًا معافًا قبل أن يغرق، وهناك من غرق وهو مصابًا أو شبه حي

اعتدل دكرور في جِلسته ونظر لعمار بتركيز أكثر، ولما عرف عمار أنه أثار اهتمامه أكمل كلامه في حماس أكبر:

- أترى موريس هناك...

وأشار إلى الرجل العجوز الذي لا يبدو ذلك على خفة حركته، وقال:

- كان ضابطًا على سفينة في الأسطول الفرنسي دمرت سفينته فقُذِف منها وهو فاقدًا الوعي، ودييجو...

وأشار للشاب صاحب الوشوم بجانب موريس وأردف:

- ...كان قرصان إسباني تشاجر مع أحد زملاءه وخسر طبعًا فألقوه من السفينة، وتبين له بعدها أن نصفه السفلي قد شُلّ وأصبح عاجزًا عن المشي من إثر الضرب، وهناك رالف...

وأشار إلى الرجل المهندم الذي كان أمامهم شبه راكع يتكئ على حافة السفينة وأردف:

- ...كان معافًا حين غرق لكنه أصيب أكثر من مرة في...

قطع عمار كلامه بعد أن دقق النظر في رالف وهمّ إليه بسرعة، فوجده قد وقع ممددًا على ظهره يسعل دمًا وينزف من أنفه، فربّت على صدره ومسح الدم عن أنفه في ثبات انفعالي عجيب كأنه معتاد على ذلك حتى أنهم تبادلا الابتسامات، ثم نادى عمار على بوهاردي وأشار إلى الشمس التي اقتربت من الغروب، فالتفت إليهم لكن نظر إلى مكان آخر كأنه لا يراهم.

وازداد سعال دكرور بشدة كأن في حلقه ترابًا، وحين ساءت حالة رالف ذهب إلى باقي الرجال فكان منهم يقفون عند سور السفينة يشاهدون البحر في ترقب، وبجانبهم كان دييجو يجلس ممددًا ساقيه أمامه، ويربّت على صدر تاندي الذي كان مستلقيًا يسند رأسه على فخذ دييجو، ويئنّ ولعابه الدامي يسيل من بين شفتيه.

"ما بال هؤلاء الرجال؟ لقد كانوا بخير ويقتلون على ما يرام منذ قليل"، وكز دكرور ظهر أحدهم وندم حين وجده موريس، ثم أشار إلى عمار ورالف الممدد بجانبه فقال موريس شيئًا لبوهاردي وتوجّه ناحيتهم، ولما أراد بوهاردي أن يتبعه لم يكمل الخطوتين حتى اصطدم ببرميل كبير أمامه مباشرةً، واختل توازنه من الصدمة فعاد موريس وأجلسه وساعده سيجورد، فجلس وهو يضع يديه على عينيه ويفركها، ولاحظ دكرور سيجورد وهو يسعل الدم في راحة يده فمسحه في ردائه بسرعة ونظر إلى دكرور بازدراء كما لو كان قد رأى عورته.

شعر دكرور بصدره يحرقه بشدة مكان الطعنة ففكر والتعجب واضح على وجهه "ربما صاروا مثل السمك.. يموت حين يخرج من الماء"، ثم اشتد سعاله حتى لم يقدر على الوقوف مستقيمًا، وحينها صاح القزم من أعلى الصاري، وأشار نحو الأفق وقال شيئًا جعل الرجال تهتف في فرح، ثم نزل مافي الضخم بسرعة إلى أسفل ومعه بلطته، وسرعان ما سمع صوت طرق على الخشب.

وذهبوا حيث أشار القزم ليجدوا الحوت يتقافز فوق سطح الماء بجسده الهائل، يغوص ثم يعود ويخترق الهواء، يوشك أن يطير بزعنفتيه

الصـــغيرتين قبل أن يجذبه البحر إليه مرة أخرى، وقد اســترهب دكرور حجمه الهائل حين رآه بوضـــوح فوق ســطح البحر، فحيّاه الرجال بحماس وبادلهم التحية حين وصــل إلى جانب السـفينة بأن نفث رذاذه عاليًا، وسـأل دكرور نفسـه "هل يجب أن أفرح بعودته؟"، ربما لا، لكنه شـعر براحة غير معلومة السبب حين رآه.

رفع سيجورد تاندي العجوز عن دييجو وحمله بين ذراعيه كالطفل، وسار بوهاردي وهو يضـــع يدًا على عاتق موريس وبالأخرى يتحســس الهواء أمامه، فبدا وكأنه أصــابه العمى، بل إنه بالفعل قد أصــابه العمى، عاد مافي من أسـفل وحمل دييجو على ظهره ليتعلق برقبته وأرخى سـاقيه أسـفله فبدا كأنهما لا يعملان، وتوجهوا جميعًا إلى جهة الســفينة التي عندها الحوت، ثم وقف موريس وبوهاردي على حافة الســفينة وقفزا منها معًا بجانب الحوت الذي كان ممددا يكشف جزءًا صغيرًا من ظهره فوق سطح الماء، وفغر فاه على اتساعه فدخل الرجلان سابحين إلى داخله.

"أه بالطبع! إنه وقت العودة" بعث الخاطر الارتباك في دكرور، وجعله ينظر خلفه لا إراديًا إلى الســفينة نظرة أخيرة علّه يجد مهربًا، لكنه وجدها خالية كأن لم تغنَ بالأمس، وقد نهته بقع الدماء البنيّة والحِراب الدامية؛ عن التفكير في الهرب، ولاحظ أيضًـا أن السـفينة مائلة فعلم ماذا كان يفعل مافي في الأسفل، وأدرك بعد أن انتهى تفكيره في الهرب؛ أن هذه السفينة ستغرق خلال ساعات.

وأثناء ما كان دكرور يقف يتأمل السفينة في استغراق جاءه عمار وقال:

- فقط لا تفكر فيما تفكر.. سـنعود إلى الجوف الآن، هيّا تعالَ وسـاعدني مع رالف

كان القزم أوساي قد نزل من أعلى الصاري وساعدهم في لف حبل حول رالف، فأنزلوه رويدًا إلى الماء وتبعه أوساي وأخذه واختفى تحت الماء.

بدأت الشمس تزيّن أفق البحر كأنها جوهرة صفراء على تاج أزرق، بالكاد تلامس السطح ولا تغوص، ثابتة لا تصعد أو تنزل في غروب أبدي، فجعله

منظر الغروب الأحمر المهيب لا يريد أن يرفع عينـه عنـه، ومرة أخرى شعر دكرور لوهلة بسيطة أن الأمور ستكون على ما يرام.

ثم لف عمار ملاءة حول حربتين وبندقية وأشـــياء أخرى وأحكم ربطها، وألقاها بجانب الحوت فزفر زفرةً ضـــعيفة كأنه يتعجلهم، فنظر عمار إلى دكرور وقال بابتسامة طيبة:

- لنقفز معًا!

ودون أن يفكر دكرور في خيـاراتـه الأخرى حتى وإن كـانـت موجودة، ودون أن يلتفت وراءه؛ سلّم أمره وأومأ إلى عمار وسحب نفسًا عميقًا وقفزا معًـا، فغـاص قليلًا في المـاء وارتفع ثـانيًـا، نظر دكرور بـارتيـاب إلى الفم العملاق البشـــع المفتوح أمامه، وتشـــبث بظهر عمار وتبعه وهو يغلق عينه بشدة كأنه لا يريد أن يرى نفسه وهو يودي بها إلى تهلكتها، فدخلا من الشق الضيق وخرجا من الجهة الأخرى كأنهم يولدون من جديد.



(2)

المكان ساكن وساكت إلا من أصوات السعال، وأنين التألم الخافت، بعض الرجال مستلقٍ على الأرض، وبعضهم قد نام بالفعل أو ربما ماتوا، لا سبيل للتمييز.

نظر دكرور وراءه إلى الباب حيث دخل فلم يجده، اختفى إلا شِـــقًا طوليًا رفيعًا بقيَ مكانه، لا إراديًا وضـــــع كفه علي الحائط لعله يجد ثقب مفتاح أو أي شيء، ثم تراجع وهو يتساءل في حسرة "كيف عدت إلى هنا بإرادتي؟".

ثم عاد يلتفت إلى المغارة ونظر إليها بعين أخرى كأنه أول مرة يراها، تلك المرة نظر إليها كجوف حوت، إذ لم يعد هناك مجال للشـــك في الأمر بعد كل ما رأى، وتخبطت مشاعره تجاه هذا المكان وهؤلاء الرجال؛ بين أن

يعتبره بيته وهؤلاء هم أهله، وبين أن يعتبره سـجنه وهؤلاء هم المحكوم عليهم معه، في الحالتين يجب أن يعيش معهم.

وأثناء ما كان يتأمل المكان وجد عمار نائمًا أعلاه على السـقف، فسار نحوه بخطوات حذرة، وقد شعر بالدوار حين رأى نفسه رأسًا على عقب من حيث كان، ثم ركله بقدمه وجلس بجانبه فقال عمار باستياء:

- ماذا تريد؟.. استرح قليلًا فقد بذلت مجهودًا اليوم
- لم نكمل كلامنا
- سنكمله حين أستيقظ.. أعدكَ بذلك

وعاد لينام ثانيًا فأمسـكه دكرور من ذراعه بعنف أجبره على الجلوس أمامه، فقال عمار وقد زاد استياءه كثيرًا:

- حسنًا أنا مستيقظ الآن، فقط أخبرني بما تريد يا دكرور

وإذ كانت الأمور أكثر من أن يسـتوعبها عقله أو ذاكرته؛ لم يدرِ دكرور ماذا يريد أن يعرف حقًا فاكتفى بأن همس:

- ماذا يحدث لهؤلاء الرجال
- آآه حسـنًا! كنا نتكلم عن كيف جاء كل منا إلى هنا، وكنت أخبرك عن رالف.. صحيح؟

أومأ له دكرور فأكمل عمار:

- أيًا كان ما فعل.. فقد ألقوه عقابًا له على ذلك، لقد كان بحارًا جنديًا في الأسطول الإنجليزي كما ترى، كان معافًا حينها لكنه أصيب أكثر من مرة في أكثر من مرة نصعد فيها إلى سفينة، لكنه محظوظ رغم ذلك.. فهناك دوراي ولويس ماتا منذ زمن قبل أن آتي إلى هنا، لكنني أذكر زيمان الذي مات منذ عشـرين سـنة تقريبًا، فلترقد أرواحهم في... تبًا! لا يهم
- مهلًا! عشرين سنة؟!! كيف تذكره منذ عشرين سنة؟!
- أه! أنا هنا... إذا كنا في العام 1841 فأنا هنا منذ...

ضيّق عمار عينه كأنه يفكر في شيء صعب، ثم قال بعد برهة:

- منذ ثمانية وعشرين عامًا تقريبًا

تمنى دكرور أن يكون قد أخطأ السمع أو أنه يكذب أو يمزح حتى، فسأل بشك:

- كيف... كم عمرك؟
- أنا في الخامسة والأربعين، حسنًا أريدكَ أن تهدأ الآن.. ربما أبدو في الثامنة عشر لكننا لا نشيخ هنا.. أو ربما نفعل لكن ببطء شديد، مفهوم؟!

ربما لمس عمار الحيرة والقلق على وجه دكرور فقال:

- أعلم أن الأمر يبدو جنونيًا لكن الزمن هنا أكثر جنونًا، خمّن كم يوم قد مر منذ أن جئتَ إلى هنا؟

فكر دكرور برهة قبل أن يجيب وهو غير متأكد من إجابته:

- أنا هنا منذ البارحة وربما كنت نائمًا ليومين على الأكثر...
- أنت هنا منذ عشرة أيام

وما أن قالها عمار حتى شعر دكرور على الفور أنه من الممكن فعلًا أن يكون قد مر كل ذلك الوقت، لكن دون أن يعرف كيف، ثم قال عمار:

- لا تقلق! ربما يمر اليوم كساعة والأسبوع كيوم والسنة كشهر وربما العكس، آخر يوم قبل أن تأتي مرّ علينا كالدهر، ولسبب وجيه أعتقد!
- إذًا منذ متى جاء أول من جاء هنا؟
- لقد كان بوهاردي، وكان تحديدًا منذ مائة وأربعة وعشرين عامًا، اللعنة! إنه الآن في عامه الثمانين بعد المائة

وسكتا لبعض الوقت حتى بدا أن عمار سيغشى عليه من شدة النعاس، فباغته دكرور:

- ماذا عن بوهاردي؟

- ماذا عنه؟
- ماذا حدث له؟ بدا أنه قد فقد بصـــــره بالأعلى، ألذلك علاقة بلون عينه الأصفر الغريب؟

ردّ عمار وهو يفرك عينيه في حيرة وتعب:

- لا، إنه شــــيء آخَر.. إن الأمر معقد، أممم! لا أدري كيف... لقد كان فاقدًا لبصره قبل أن يغرق، لكن ليس قبل أن يغرق بكثير

تذكر دكرور الجرح في صدره فتحسسه ليجد نفسه لا يشعر به رغم أنه لم يلتأم فقال:

- إذًا الجروح تشفى هنا؟
- الطفيف منها يشفى تمامًا، مثل تلك...

ومدّ عمار ذراعه كاشــفًا عن ندبة طويلة بطوله، وأشـــار إلى ندبة أخرى تمتد من رقبته إلى كتفه، وتلك أيضًا لم تبدُ هينة، وأردف:

- لقد اســتغرقت هذه ثلاث ســنوات حتى تندمل، لكن هناك جروح تهدأ وتتوقف عن النزف وأنت بداخل الجوف، ثم تعود لتنفتح وتكمل نزيفها فور أن تخرج، مثل رالف كما رأيت...

ثم تثاءب وأردف:

- وهنـاك جروح تقتـل على الفور مثـل دوراي وزيمـان كمـا أخبرتـكَ، وهناك جروح تقتل لكن ليس على الفور، لا تُخرِج الروح في لحظتها مثل... أه! لا يهم
- ماذا عن البقية هنا؟ كيف غرقوا؟
- آاه بحقكَ!! حقًا ألم تتعب من الأسئلة وكل هذا الجنون الذي سمعته؟
- ...
- تبًا لذلك! من أيضًـا.. تاندي أردوه وألقوه حتى لا يدفعوا عنه ضــريبة للسـفن المضــادة للعبودية، ومافي أيضًــا كان على سـفينة عبيد وألقوه حتى يخففوا الحمولة لأنه ضخم، وأيضًا سامبار حين أصيب بالمرض

ألقوه حتى لا يفشي المرض بين باقي العبيد وتفسد البضاعة، لذلك لا يخرج من الجوف كي لا يعدينا نحن، وأوساي...

ثم ضحك فجأة وهو يقول:

- ذلك الوغد الصغير! ألقوه حين اقتربت العاصفة لاعتقادهم أنه جلب إليهم سوء الحظ، ثم ضربتهم العاصفة على كل حال وغرقوا، ودائمًا ما يتباهى ذلك الحقير أن إلقاءه كان السبب في غرقهم

ابتسم دكرور رغمًا عنه، ثم عاد عمار ليكمل وقد ذهب عنه بعض التعب وإن لم يذهب ضحكه:

- وسيجورد كان يعمل على سفينة صيد حيتان، وأغرقه الحوت الذي كانوا يصطادون، ويقسم ذلك البائس أن تلك كانت أول مرة يعمل فيها على سفينة تحويت وأول مرة يشارك في الصيد

ثم أضاف:

- من أيضًا؟.. أنا غرقت في العاصفة، وبوهاردي أيضًا، وأوين وويليام أيضًا، قد ذهبا منذ شهر لتفقد اليابسة... أرجوكَ لا تسأل الآن!، وهناك بيدرو بالطبع الذي مات أيضًا منذ سنة تقريبًا، وأخيرًا هنري...

ثم اقترب عمار أكثر وأخفض صوته وهو يقول:

- غرق في عاصفة، وكان يعمل على سفينة تحويت هو الآخَر لكنه كان حوّاتًا متمرسًا، وفي المرة قبل الأخيرة التي نخرج فيها، قبل أن تأتي أنت بيوم؛ اختبأ هنري بداخل السفينة وهي تغرق وهرب على متن قارب نحو اليابسة القريبة، لم يرَ أحد ما حدث سوى بوهاردي، الذي كان نائمًا حينها فرأى أطلس وهو يدركه ويقتله، كانت صدمة كبيرة علينا جميعًا بعضنا لم يتعافَ منها حتى الآن، ربما لأن أطلس لم يقتل أحدًا من قبل

زاد انتباه دكرور أكثر وشـعر بالفضـول الشـديد؛ حين سـمع كلمة هرب، وربما أراد أن يستفسر عن كيفية حدوث ذلك لكن استوقفه عمار قائلًا:

- والآن لقد تعبتُ حقًا يا دكرور، دعني أخبركَ بما أردتُ أن أخبركَ منذ البداية.. أتعلم! جميع المرضى والمجروحين وأصحاب العاهات؛ كلهم كانت إصـــاباتهم حديثة، لكن أنتَ عاهتكَ عمرها أربعة عشـــر عامًا صحيح؟!

أومأ له دكرور باستغراب فأردف:

- لا أعلم بشأنها، لكن لم لا تجرب أن تتكلم الآن؟ أعني أن ترفع صوتك بالكلام..

"ماذا تريد؟!!"، انتابته قشـــعريرة ورهبة من الفكرة وحدها، لا يمكنه أن يجرب ذلك، فكرة سماع الصوت يخرج من حلقه أثارت المغص في معدته، ولا يعلم لماذا، الأمر أشـــبه كأنه يقبض على جوهرة، يشـــعر بها في داخل قبضـــته لكن يخشـــى أن يفتح يده وينظر إليها، "لكن ما المخيف في سـماع صوتي ثانيًا؟ ماذا سأخسر إن تفقدت الأمر؟".

وكأن عمار غير موجود اســتلقى دكرور على ظهره بهدوء في موضـــع جلوسه وهو شارد، وقد اكتفى من الكلام لليوم عن الموت والغرق والمرض والعاهات، كما أنه قد تكلم في يوم أكثر مما فعل خلال الســنة المنصـــرمة بأكملها، وقد اتضح له أن الكلام مرهق أكثر من الغرق.

- أه حسنًا! ستنام أولًا، تصبح على خير...

نهض عمار وأشار إلى دكرور بسبابته وقال:

- لا تفكر في أن توقظني!

وابتعد عنه واستلقى هو الآخر ليكمل نومه.



ممددًا على ظهره؛ وضع دكرور يديه خلف رأسه وشرد في أفكاره التي تتدفق كالسيل، والتي لم يكن لها رادع إلا النوم، لكن حتى النوم كانت تطرده من عينه في عناد.

المكان مظلم كثيرًا "لابد أننا في أعماق المحيط الآن"، بعث الخاطر الوحشة في نفسه، إذ لا يفصل بينه وبين المحيط المظلم الشاسع إلا قطعة من لحم حوت، "ماذا يفعل الآن؟، لا يمكن أنه يسبح فقط"، واستغرب أن المكان ساكن وهادئ وليس هناك ما يخبر عن وجود أي حركة خارجه، ثم تذكر شكله المرعب البشع الذي بدا كأنه تعرض لحرق أو تم سلخ قطع من جلده عند مقدمة فمه "من المؤكد أنه تعرض للصيد في مرة ونجا، فجعل ابتلاع الناس هوايته".

ثم تذكر ما حدث على السفينة وأصوات شهقات الموتى ومنظر بقع الدماء البنية، وعلى الرغم من أنه ليس جديدًا عليه كل ذلك؛ إلا أنه لا يعلم لماذا شعر بالضيق لما حدث، وعلى الرغم من أن حياته على اليابسة لم تكن ترتقي لمستوى عيش الحيوانات؛ إلا أن ضيقه قد زاد من فكرة أنه سيكملها في بطن أحد تلك الحيوانات، مع بشر يبدون سعيدون راضون بذلك.

وحين بدأ دكرور يغيب عن الوعي سمع صوت عمار يتكلم، ويرد عليه أحدهم في مكان آخر، ثم زادت الهمهمات بينهم حتى صارت هتافات لكن بمرح، ثم عادوا إلى صمتهم ثانيًا وسرعان ما بدأ أحدهم يغني.

علم دكرور أنه أوساي القزم، لكنه لم يصدق أن لديه مثل هذا الصوت الملائكي، كان يغني أغنية جميلة جدًا ذات لحن هادئ من المفترض أن يريحه سماعها لكنه لم يفعل، ثم بدأ الجميع يشاركه في الغناء كأنهم ينشدون بصوت واحد، ثم سمع عمار يناديه فلم يجِبه دكرور، فقال:

- أعلم أنكَ مستيقظ يا دكرور.. الرجال يريدونكَ أن تعلم أنهم سعيدون لأنكَ هنا.. وهذه الأغنية من أجلكَ

ثم بدأ اسمه يتردّد في أرجاء المكان على ألسنة سكانه فيما بدا كتشجيع أو ترحيب، فبَضَع الدمع في عينه ربما من التأثر بألفة هؤلاء الرجال أو

بالأغنية الهادئة؛ ثم فاض حين أغمضـــها، وآلمه حلقه من محاولة دفع البكاء والحزن والكمد، فمسح دموعه وعزم أمره لينام بأي شكل، وساعده صوت أوساي الذي يصيب العقول بالخدر، كما ساعده خفوت النور الأصفر ببطء حتى أظلم أخيرًا لينام، وفور أن فعل عاد إلى السفينة.



(3)

مرّ أطلس بقطيع من حيتان العنبر التي يعرفها جيدًا شكلًا واسمًا، كان معظمها من الإناث والأمهات وصغارها وجميعهم كانوا يغنّون، يغنون نداءً على بعضهم أو على الصغار، ومنهم من يغني من أجل الغناء فحسب، ومنهن من يغنين نداءً على الذكور القليلين فيهم من أجل التزاوج، ورغم أن أطلس ليس حوت عنبر إلا أنه انجذب لذلك الغناء على كل حال.

توجه إلى القطيع قاصدًا أنثى بعينها كانت أكبرهم، لكن القطيع تفرق وتشتت عندما اقترب كأنهم رأوا سفينة بشر تريد أن تفتك بهم، لكن أطلس لم يعبأ بذلك وأسرع وراء الأنثى معميًّا بغنائها الذي لم تكف عنه، أخذ يتقرب إليها بسرعة وهي تبتعد في تمنّع لا يثير شهوته بقدر ما يثير حنقه، وحين كاد أن يدركها ظهر أمامه الذكر صاحب هذا القطيع، أحد جبابرة المحيطات وأعظم حوت عنبر ذو جوف يحوي بداخله بشرًا، والذين يطلقون عليه اسم "نون".

كان نون صديقه منذ زمن بعيد، وهو من كان يخبره أنه ذو جوف مثله، وأن الاحتفاظ بالبشر في جوفه أمر سهل، كان نون رفيقه عندما كان ييأس من فكرة إيجاد الحيتان الرمادية من فصيلته، حتى أنه إلى الآن يساعده في البحث عنهم.

قال نون من دون مقدّمات أو تحيّات:

- لم يكن عليك فعل ذلك

رَد أطلس:

- لم أعلم أنك هنا
- بالطبع لم تكن تعلم.. فقد كنتَ مشغولًا بشيء آخر
- أنتَ تدري كيف هو الحال
- لا، أخبرني كيف هو الحال
- لقد شعرت بهم مجددًا، شعرت بهم أقرب من أي وقت، حتى أني رأيت ما يرون، هل يحدث لكَ ذلك؟
- نعم، يمكنني الرؤية من خلال أعين حيتان العنبر
- ولن تصدق ماذا رأيت.. لقد رأيت حوتًا آخر لم أرَ له مثيل من قبل
- ربما كنتَ تحلم بأمك
- لا، لم يكن ذلك حلمًا، أنا أعرف الأحلام، كما أني نسيت شكل أمي
- وأين كان ذلك؟
- ليس بعيدًا عن هنا
- صدقني لقد بحثت في كل بقعة من هذا المحيط ولم أجد لهم من أثر

ثم سبِحا إلى جانب بعضهما هائمين في المحيط معهم عددًا من حيتان العنبر، الذين كان نون يتحكم فيهم كأنه يسوقهم بالحبال، وقال نون:

- هل شعرت بذلك الصداع؟ لا بد أن ذلك الإنسان كان شديد البؤس لكي يتسبب في صداع كهذا
- لا تقلق بشأنه.. إنه في جوفي الآن
- بالطبع، أليس هذا نوعك المفضل من البشر؟ أن يكونوا أكثرهم شقاءً
- ثم يتضح أنه أكثرهم إثارة للشفقة

وأضاف نون:

- وكيف حال رجالك؟
- مزعجين أكثر من أي وقت

- لطالما كان البشر كذلك.. لكن أعني ألم يلقَ أحدًا منهم حتفه أثناء ما تخرجهم؟
- لا، آخِر من مات منهم كان منذ مدة، لكن هناك اثنان قد خرجا إلى اليابسة منذ مدة ولم يعودا إلى الآن

كان أطلس يثق في رجاله لدرجة أنه يُخرِج منهم إثنين أو ثلاثة على الأكثر؛ إلى اليابسة لتفقد أحوالها وربما للاستمتاع بوقتهم، ولم تخِب ثقته فيهم سوى آخر مرة عندما خرج إثنين منهم ومكثا أكثر من المعتاد.

رَد نون:

- هذا خطؤك يا صديقي، لا أدري كيف تسمح لهم بالخروج إلى اليابسة
- فعلتها أكثر من مرة، وكل مرة يعودون، لكن هذان لا أعرف بشأنهما

أخبر أطلس نون منذ زمن عمّا يفعل رجاله من أمر إسقاطهم للسفن، فاستنكره في البداية لكن سرعان ما صار يقلده، ثم أخبر كلاهما حوت أزرق صديقًا لهما يدعوه البشر "كيانج"، فاستنكر كيانج الأمر في البداية لكن سرعان ما صار يقلدهما، بعدها قرروا أمرهم على أن يتولى كلًا منهم محيطًا من المحيطات الثلاثة، فأطلس كان يتولى السفن في المحيط الأطلسي الذي يعيش فيه، ونون في المحيط الهندي الذي يعيش فيه، وكيانج في المحيط الهادي الذي يعيش فيه أيضًا، فكانوا الوحيدين من ذوي الأجواف الذين يفعلون ذلك، وربما الوحيدون الذين يُخرِجون من في أجوافهم أصلًا، فقرروا أمرهم بألا يعرف أي حوت آخر بهذا الأمر.

غيّر أطلس الموضوع عندما تذكر أن أحد رجاله قد حاول الهرب منذ أيام قليلة، وبالطبع لم يُرِد أن يعلم نون بالأمر، فقال:

- ماذا عن رجالك؟
- كم أنهم مثيرين للشفقة بعضهم يجيد القتل وبعضهم لا.. إلا أنهم جميعًا يعشقون سفك الدماء، رغم علمهم أن ذلك يقتلهم أيضًا، ومع ذلك...

قطع نون كلامه عندما وجد سفينة قد أنزلت قواربها لصيد حيتان العنبر التي حولهم، فقال نون:

- ها هم التعساء.. أتريد أن تتولى أمرهم؟
- لا، لم يمضِ يومًا على آخِر مرة، كما أننا في منطقتكَ، مهلًا ألستَ قادرًا على التحكم في حيتان العنبر وجعلها تهشّم تلك السفينة؟
- صدقني.. قد جرّبتُ أكثر من مرة، وكل مرة... لا أقدر على فعلها، حتى أني أحسد الحيتان العادية عندما تهشم القوارب وتخرق السفن

لم يَعجب أطلس من ذلك، فهو يعلم أن الحيتان ذوي الأجواف لا تقتل البشر بأي شكل، ثم تركه نون واقترب من السطح وسرعان ما خرج.

ثم لاحظ أطلس رجاله يغنون فظل يستمع لهم ويغني معهم حتى نام معظمهم، وقرر أن يزورهم في أحلامهم.



السفينة سليمة ليست مائلة، وعليها كل أشرعتها، وعليها تقريبًا معظم رجال الجوف الذين كانوا يجلسون في هدوء كأنهم يستجمّون.

هناك صوت غناء لا يعلم دكرور مصدره، لكن بدا كأنه آتٍ من أعلى، فنظر إلى أعلى الصاري الرئيس ولم يجد أوساي هناك، لكن هذا صوته وهذه أغنيته ولا تزال تأتي من أعلى، كأن السماء نفسها هي من تغني، ورأى في السماء سفينة تسبح في سحابة وتلك أيضًا كانت تبدو بخير.

ذهب دكرور إلى المقدمة ليرى الغروب، كان نصف السماء مخضب بالأحمر والنصف الآخر أزرق مثل البحر، لكن الشمس لم تكن هناك، لاحظ ذلك ولم يَعجَب منه، ثم أدرك أطلس وهو يقول:

- لابد أنه كان يومًا طويلًا

وبالرغم من أنه لم يكن وحده على الســـفينة إلا أنه علم أن أطلس يكلمه هو، فرَد:

- نعم.. يوم صعب فعلًا
- أعدك أن الأمور ستصبح أسهل
- لا أنا لم أوافق على هذا
- أخشى أنه لا يوجد خيار آخر.. إنها الحياة كما ترى
- لكن ليس هكذا
- لا يوجد حياة هكذا وحياة هكذا! الحياة هي الحياة، وهي دائمًا أفضـــل من الموت
- حياة الحرية تختلف عن حياة السجن هذه
- لكن هل الموت أفضل من حياة السجن هذه؟
- أه بحقك! أعفني من الكلام عن الموت، لقد رأيت وسمعت ما يكفي منه اليوم، لا أنكر أن ما يفعله هؤلاء الرجال يثير إعجابي، لكن أليس هذا قاسيًا بشكل مبالغ

رَد أطلس بغضب كأنه قد تلقى إهانة:

- قاســيًا! هل تعرف حتى معنى القســوة؟ هل ســمعتَ عنها في حياتك الصغيرة البائسة تلك؟ لا تحدثني عن القسوة ولم ترَ ما رأيتُ...

بدأ البحر يضطرب والرياح تشتد والسفينة تتمايل، وبدأ الحلم يتحول إلى كابوس شــيئًا فشــيء، وبدأ دكرور يشــعر بالقلق وعدم الأمان، بعد أن كان يشــعر بالاطمئنان والراحة من مجرد وجوده على هذه الســفينة والكلام مع أطلس، وتضاعف كل ذلك حين أكمل:

- لا تحدثني عن القسوة ولم تختبر الموت مع كل نفس تتنفسه ويجب أن تســتعد لأن يكون الأخير، لا تحدثني عن القســوة ولم ترَ إخوتك وهم يزفرون الدم ولا تجرؤ على الاقتراب منهم حتى لا يصــيبكَ المثل، لا تحدثني عن القســوة ولم ترَ أمًا تُقتَل بجانب ابنها وهي ترضـــعه، لا تحدثني عن القسوة ولم ترَ قسوتك بعد

كان دكرور في موقف لا يحسد عليه بالفعل ولا يعلم بما يرُد، كأنه يعلم أن كلمة خاطئة أخرى ستودي به، فقال بحذر:

- لا لم أرَ أي من ذلك
- بالطبع لم تفعل، حسنًا حان الوقت الآن لكي ترى بنفسكَ...

فجأة ظهرت الشمس في الأفق، فارتفعت عن سطح البحر فجأة، وشعر دكرور بأنه يرتفع معها هو الآخر، ودارت الشمس في السماء نصف دائرة حتى غاصت في الجهة المقابلة فأظلمت السماء في ثانية، وسرعان ما انقشع الظلام وصعدت الشمس ثانيًا، ودارت أسرع من المرة الأولى، ودكرور لا يزال يرتفع في الهواء نحو السفينة التي بين السحاب، وصارت الشمس تشرق وتغرب دون كلل بسرعة، ثم أسرع، ثم أسرع، حتى أصبح النهار مجرد ومضات، وبعد مدة بدت كدهر توقفت الشمس قبل أن تغوص ثانيًا، ووجد دكرور نفسه على السفينة التي كانت في السماء ويصعد إليها، لكن كان حوله البحر وليس السحاب.

زعق صوت بنداءٍ من فوق الصاري الرئيس، فالتفت دكرور ودُهِش حين وجد السفينة بكامل طاقمها، الذي دبت فيه الروح فور سماع ذلك النداء، وأخذوا يرددون نداءه في حماس شديد.

وبسرعة أنزَلوا قاربين في الماء فركب دكرور إحداهما مسلوب الإرادة، وجلس يشاهد البحارة يجدفون بكل ما أوتوا من قوة لكن لم يتبين إلى أين يذهبون، حتى ظهرت أعمدة الرذاذ ليست بعيدة، فكر أنه لا بد من أنه أطلس، إلا أن نفثة أطلس التي رآها كانت أعلى وأكبر من هذه بكثير.

همّ رجلًا يقف عند مقدمة القارب كان يجدف مع باقي الرجال، وأمسك بحربة ثم صوّبها نحو الماء متأهبًا، فوصلوا عند أحد مصادر النفث ووقف دكرور ليتبينه، فوجده حوتًا لونه أسود ممتلئ الجسم وليس طويل، يبدو كسمكة صغيرة مقارنةً بأطلس، حاصره القاربين من الجهتين وهو يسبح ببطء شديد، لا يهرب أو يغوص في الأعماق وينجو بحياته كأنه لا يراهم، أو يراهم لكنه لا يدري أنهم يريدون قتله.

برز من كل قارب رجلًا ممســـكًا بحربة، ولما أصـــبحوا على جانبي الحوت، شـــدّ أحدهما جســـمه ورفع حربته وراءه، ورماها لتصـــيب ظهر الحوت مباشرةً، فأخذ يتلوى ويضرب الماء بذيله ثم غاص ليس بعيدًا وعاد يقفز بوهن من الماء، ولما هدأ قليلًا أخذ الرجلان يتناوبان عليه بالطعنات وشـــاركهم في ذلك بقية من كان يجدف حتى ســـكنت حركة الحوت تمامًا، وبدلًا من الرذاذ الأبيض اللامع نفث دمًا في الهواء وأمطر الرجال وخضب وجوههم بالأحمر، فعلَت صـيحات الفرح من قلوبهم، وهم باسِـطو أذرعهم ليتعرضوا لأكبر قدر من الدماء كأنهم يغتسلون بها.

عاد دكرور مع البحارة إلى السفينة يشعر بالاختناق من الدم الذي يسيل على وجهه من دون أن يمسحه عنه، وعادت السفينة تبحر بسرعة، وعادت الشمس تغوص من جهة وتصعد من الأخرى، حتي توقفت في كبد السماء.

وســـمع نفس الصـــيحة من أعلى الصـــاري، فأنزَل نفس الرجال نفس القوارب، وجدفوا نحو أعمدة الرذاذ واضطرابات بيضاء في المياه، وتكرر كل شـــيء مع اختلاف الحوت، فذلك أطول وذو رأس عظيم، وأســـرع ومراوغ أكثر من الآخر، حتى أنه لمس أحد القوارب فقَلَبه بمن عليه من رجال، قبل أن يرميه الرجل على القارب الآخر بالحربة لترشق في ظهره، فبدا على الحوت الغضـــب والثورة فضـــرب البحر بذيله قبل أن يغوص بســـرعة في الماء، والحربة لا تزال تخترق ظهره، وغاص حتى ظنوا أنه سيسحب القارب معه، لكنه عاد إلى السطح بعد أن خارت قواه، وطُعِن حتى نفث الدم، وصرخ الرجال نفس صرخات الانتصار الهمجية.

عاد دكرور مع البحارة إلى السفينة، وأبحرت السفينة بسرعة، ودارت الشـــمس عدة مرات حتى توقفت، فأطلق النداء وأُنزِلَت القوارب، وضـــرب الحوت قاربًا وهشمه إلى شظايا فقُتِلَ رجلًا، ثم طُعِن الحوت على كل حال، وزفر الدم ولم يهتف البحارة.

وعاد دكرور مع البحارة إلى الســـفينة، وعادت الســـفينة تبحر بســـرعة، وعادت الشـــمس تغوص من جهة وتصـــعد من الأخرى، حتي توقفت قبيل

مغيبها، فأُطلق النداء، وأُنزِلَت القوارب، وطُعِن الحوت، وزفر الدم وصـــاح الرجال.

وظل المشهد يتكرر مرة بعد أخرى، حتى ظن دكرور أنه قد علق في هذه الحياة إلى الأبد، وكل مرة ينزل مع القارب يشـــهد الطعن ويتخضـــب وجهه بالدماء، وهو مســـلوب الإرادة بالكامل، لا يقدر على منعهم من القتل، ولا على منع نفسه من المشاهدة.

عاد إلى الســـفينة فوجدها قد عادت خالية من بحارتها، فانهار جاثيًا على ركبتيه ويديه يسـعل ويئنّ في ألم، ووجهه وملابســه ويديه مضــرَّجين بالدم الأحمر كأنه نُقِع فيه ويتقاطر من شعره.

لم تكن رؤية الدماء بهذا الكم هي ما جعلته يشـــعر بالاختناق والحنق والضـــيق، بل ســـماع صـــيحات الفرح فور رؤيته كأنه يســـمع الغناء أثناء الجنازة، فقد أصـابت شـيئًا في نفسـه جعله غير قادر على التقاط أنفاسـه من شدة الكمد والسقم، وحين اختلط أنينه ببكائه سمع أطلس يقول:

- هل رأيت ما يكفي؟ أم تريد أن تعود؟

هرع دكرور إلى حافة السفينة وقال بعصبية وهو يلهث:

- لا!!! لا يمكنني العودة ثانيًا
- هل أنتَ متأكد؟ تلك كانت ســفينة واحدة في ســنة واحدة.. هناك آلاف السفن وآلاف السنين وآلاف آلاف الحيتان
- حسنًا لقد فهمت لمَ تكرههم هكذا، أنا أيضًا أكرههم، فقط لا تعيدني إلى هناك، أيًا كان ذلك
- معذرةً يا صديقي دكرور، كان يجب أن ترى الأمر بنفسك، كان يجب أن ترى القسوة التي كنتَ تتحدث عنها

عاد إلى البحر سـكونه، وإلى الرياح نسـماتها، وإلى السـفينة ثباتها، وإلى الحلم هدوءه وإلى دكرور سكينته، وبدأ يستعيد اتزانه رغم كل ما رأى فقال:

- ما الذي فعلتَ؟ وكيف فعلته؟

- تلك كانت ذكريات، ليســـت لي بالطبع، لكنك في حلمي ويمكنني أن أريك أي ما أريد

غيّر دكرور الموضوع فقال:

- إذًا هل يفعل رجالك ما يفعلون انتقامًا لكل ما يحدث أم ماذا؟
- الرجال يفعلون ذلك لأن ذلك ما الرجال، وهؤلاء الرجال بالأخص، فذلك ما يجيدون فعله، وما يريدون فعله، وأنا ممتن لذلك أشد الامتنان
- أعتقد أني أفهمكَ، ربما سأساعدهم في المرة القادمة
- هذا عظيم! كل شيء سيكون على ما يرام يا صديقي، بالمناسبة.. لِمَ لَمْ تفتح هديتك بعد؟
- أيّة هدية؟
- الهدية التي استعدتها من أجلك بعد أن فقدتَّها

علم دكرور في لحظتها عمّا يتكلم، أو كأنه كان يعلم مســـبقًا، ثم أردف أطلس:

- أم أنك لا تقبل هديتي؟
- لا... أنا فقط نسيت كيف أفتحها
- فهمت.. فقط لا تهتم سأكون معك وإخوتك أيضًا.. يجب أن تذهب الآن

وما أن قالها مالت الســـفينة وتدحرج دكرور من على متنها حتى ســـقط منها، وظل يهوي إلى الســـفينة التي كان عليها أولًا، والتي لا يزال عليها رجالها؛ فصـــدرت منه صـــرخة مدوية رنّت في أذنه كأنه بداخل كهف، ولم تنقطع تلك الصرخة حتى بعد أن استيقظ منتفضًا.

الفصل الرابع
"فَتْح الهَديّة"

(1)

كان الحلم قويًا وواضحًا لدرجة يصعب معها تمييزه عن الواقع، لا سيما أن الواقع أصبح أغرب من أن يكون واقعًا، وكان الحلم أكثر واقعية من أن يكون حلمًا.

ورغم أن تأثير ذلك الحلم لا يزال باقيًا في عقله وفي داخل نفسه؛ إلا أنه تعجب مما قد قال للحوت بأنه يعجبه ما يفعل هؤلاء الرجال بالسفن وبحارتها، ولا يعلم كيف كان يتفهم الأمر، إذ بدا كل شيء منطقيًا وعقلانيًا إلى حدٍ كبير في الحلم.

وبعد مدة من الشرود والتقاط الأنفاس العصبية؛ لاحظ دكرور أخيرًا أن بعض الرجال ما يزالون نائمين، بينما البعض الآخر يحدق فيه في حيرة، فنظر في عين كل منهم قبل أن يتذكر ما كان على وشك أن يفعله بعد أن استيقظ، ضربه قلبه بقوة من داخل صدره كأنه يريد أن يخرج، عندما بدأ يضغط على رقبته حتى سعل، وسعل حتى تألم، وتألم حتى تأوّه.

في البداية تأوّه بصوت مبحوح أخرق جدًا، فجثى على ركبتيه كأنه يدفع الصوت لكي يخرج لكن ما خرج إلا صوت ضعيف يكاد لا يُسمع، فأخذ شهيقًا وأخرجه بآهةٍ واهنة كأنه يتألم، وظل يشهق ويتأوه حتى أصيب بالدوار، ثم وجد سامبار يربّت على ظهره كأنه يساعده، فاستجمع كل قوته وسحب نفسًا حتى انتفخت رئتاه وصرخ حتى كادت العروق في رقبته أن تنفجر، وأيقظ جميع النائمين في المكان، وربما جميع النائمين في البحار.

والرجال صامتون يحدقون فيه في خوف ودهشة؛ نهض دكرور وصرخ فيهم وهو ينحني ويقبض على فخذيه بقوة فردّها عليه بعضهم، فكرر صيحته أعلى فرددوها كلهم وراءه، وانضم إليهم أطلس بأغنية غليظة وعميقة كأنه يحاكي صيحاتهم، وصاحوا جميعًا في نَفَس رجل واحد.

وصرخ...

صرخ حتى خرج قلبه من صدره، صرخ حتى خرج كل الكمد والتعب من جوفه، صرخ حتى أخرج كل ما قد دخل في صدره ولم يخرج منذ عشرين سنة، صرخ حتى بكى، وبكى حتى صرخ.

سكت الجميع احترامًا لحضرة البكاء بينهم، ثم شعر دكرور بشيء يضم خصره، فهدأ قليلًا ليستوعب ما يحدث فوجده القزم أوساي يلف يديه القصيرتان حول خصره، والتف الرجال حولهم تُعانِق أذرُعِهِم أكتافه وأكتاف بعضهم، ففعل دكرور المثل مع أوساي ومع الرجل بجانبه ليجده عمار، فقال بابتسامة طيبة:

- ألم أقل لك ألا توقظني ثانيًا؟

واختلط بكاؤه بشيء من الضحك، ثم قطع أطلس كل ذلك بصافرات مميزة وقصيرة، فصاح بوهاردي بشيء في حماس وبادله رجاله نفس الحماس، ثم قال عمار:

- هيا بنا! سنخرج إلى السطح ثانيًا..

قالها وأراد الذهاب فاستوقفه دكرور ونظر إليه متعجبًا، وتعجب حين كاد أن يقول "ثانيًا!"، لكنها أبَت أن تخرج من فمه، ففكر "يا للسخرية! لقد عاد إليّ صوتي حين نسيت الكلام"، فتنحنح ثم قال:

- هل ستصعدون مرة أخرى؟

وضحك بشدة قبل أن يجيب عمار، فقد كان في صوته بحّة بسيطة وبدا أغلظ مما كان عليه وهو في الثانية عشر من عمره، أو إنه فقط أعجِب بتلك الهزة في حلقه، ثم ردّ عليه عمار وهو يضحك هو الآخر:

- لا تقلق.. ليس هناك سفن ربما نحن بالليل الآن

وبدأ الرجال يخرجون من الشق الطويل الذي كان مفتوحًا بالفعل، دون حرابهم أو أسلحتهم أو أي شيء، فاستغرب دكرور من ذلك لكنه تبعهم على كل حال، وقد تذكر أن يأخذ نفسًا هذه المرة.

★★★

كانت المياه باردة جدًا وساكنة جدًا، والنجوم مثلها ساكنة جدًا وكثيرة جدًا، حتى أنك ترى محاق القمر دائرة سـوداء وسـط تجمعات لا نهائية من الأنوار، وحولهم أفق أسود من جميع الجهات.

انتظر الحوت حتى خرج كل الرجال، ومدد جسـده الهائل على سـطح الماء، ونفث نفثته العالية التي تلألأت أكثر بفعل نور النجوم، فبدأ الرجال يرتقون ظهره ويتشبثون بالنتوءات الحجرية والقشور الصدفية على ظهره كأنهم عوالق، ماعدا أوساي فقد تمسك برقبة مافي، ثم أخذ تاندي بيد دكرور ورفعه بجانبه وأشار إلى نتوءين ليتمسك بهما.

واستقر جميع الرجال على ظهر الحوت وبدأ يسبح، فقال أحدهم:

- دكرور...

ولم يفهم دكرور كلمة بعدها، ولما أنهى كلامه قال عمار:

- تشبث جيدًا يا دكرور ولا تفلت!

ثم سـمع شـهقات الرجال دون أن يسـمع زفرات، فعرف دكرور ماذا سيحدث، ففكر "الوغد لم يقل أن آخذ نفسًا"، لكنه فعل على كل حال قبل أن يغوص الحوت في الماء.

غاص قليلًا إلى أسفل ثم عاد يتجه لأعلى بسرعة مخترقًا السطح، فطار جسـمه كله خارج الماء ودار في الهواء قبل أن يعود ويرتطم جسـده بالماء بعنف، فهتف الرجال بحماس شديد وهم يضحكون ويرفعون قبضـاتهم في انتصـار، ثم لم يجد دكرور تاندي بجانبه واتضـح بعدها أنه وسـيجورد قد طارا بعيدًا في الماء.

ثم رجع تاندي وسيجورد، وعاد الحوت يسبح على سطح الماء بسرعة، وهو يقفز قفزات قصيرة من حين لآخر، وسبحت بعض الدلافين بجانبه تتقافز من فوقه، وبدون سابق إنذار غاص ثانيًا بسرعة وعاد يقفز عاليًا.

شعر دكرور بالنشوة والحماس، وشعور كاد قد نسيَه بأن الأمور ستكون على ما يرام، وشعر بشيء غريب تجاه هؤلاء الرجال وهذا الحوت، لا يدري لماذا شعر بالشفقة تجاههم، لا يعلم ألأنهم اختبروا جميع أنواع الموت ولا زالوا يضحكون، أم لأنهم اختبروا جميع أنواع الموت ولا زالوا أحياء.

أبطأ أطلس حركته حتى سكن تمامًا وسكنت المياه حولهم حتى عكست أنوار النجوم، وبقيَ يطفو على الماء كاشفًا ظهره أعلى السطح، وعلى ظهره جلس الرجال منهكين من الإثارة يتسامرون ويضحكون ويغنون ويرقصون بطرق غريبة، ودكرور يجلس يشاهدهم بإعجاب والابتسامة لا تفارق وجهه، فجلس عمار بجانبه وقال بمرح وهو يلتقط أنفاسه:

- لم نفعل ذلك منذ زمن، كنا نفعلها في ليلة كل مرة نصطاد سفينة تحويت، لكن هذه المرة ربما كانت من أجل الترحيب بك
- هل تخرجون كثيرًا؟ أعني... لإسقاط السفن؟
- ليس هناك فترة محددة بين المرة والأخرى، في بعض الأحيان نفعلها حتى نتعب، لن أنسى حين صعدنا ثلاث مرات في ثلاثة أيام متتالية، ولن أنسى أيضًا حين مكثنا بداخل الجوف لا نخرج لقرابة السنة
- سنة!!!

وفجأة طرأ في رأس دكرور شيئًا مهمًا لا يدري كيف نسيَه أصلًا فسأل في استغراب شديد:

- مهلًا! كيف أكون هنا منذ عشرة أيام وأنا لم آكل أو أشرب؟
- هل أنت جائع؟

رفع دكرور أكتافه بلا مبالاة وقد تعجب من أنه بالفعل ليس جائعًا أو ظمآنًا، فأردف عمار:

- نحن لا نجوع أو نظمأ في الجوف، نبقى لشــــهور من دون أكل ولا نتعب أو نهلك من ذلك، كيف بظنكَ كان ســـيبقى النبي يونس في بطن الحوت إلى يوم القيامة؟
- من؟!!

تذكر دكرور الإمام الطيب من على الســـفينة، قبل أن يتذكر قصـــة النبي الذي دخل بطن حوت وعلم أنه يونس، وتذكر ما قال الإمام بأنه يشـــبهه؛ بينما كان عمار يرمقه بنظرة خالية حتى سأل:

- أنت تمزح؟!

ثم حين لم يجده يمزح قال بضجر:

- بحقكَ! كيف لا تعرف النبي يونس؟! إنه أول إنسان يدخل بطن حوت

سأل دكرور بدهشة وهو يشير إلى الحوت الذي يجلسون عليه:

- كان هنا؟
- لا طبعًا، لقد كان حوتًا آخر
- هل هناك حيتان أخرى؟!!
- ليس كل الحيتان بالطبع، القليل منهم فقط من لديه تلك القدرة

ولم يتعب دكرور نفســـه بأســـئلة أخرى، ولا يريد أن يثير عقله بأفكار أخرى، فقط يريد أن يتأمل النجوم والبحرَ الهادئ.

هدأ الرجال ونظروا إلى أوســـاي في ترقب، فبدأ يغني أغنية ذات لحن هادئ، بصـــوته الطيب الذي يبعث النوم إلى العيون والفتور إلى الأجســـاد والخدر إلى العقول، وظل هكذا حتى ظهر أول خيوط الفجر، وبدأ الســـواد الذي تسبح فيه النجوم يستحيل إلى الأزرق شيئًا فشيء.

كفّ أوساي عن الغناء فقام الرجال دون كلام، وبدأوا يختفون تحت الماء، ولاحظ دكرور أطلس من خلال الماء يدور حولهم في دائرة ويلتقم كل من يســـبح أمامه، ولم يتبقّ إلا هو وموريس، ولما همّ دكرور أن يغوص لاحظ

شـــيئًا يســـبح بعيدًا لم يتبينه في تلك المياه الســـوداء، لكنه حين اقترب أكثر اتضح أنه زعنفة سوداء طويلة.

لفت دكرور انتباه موريس وأشـــار نحو الزعنفة، فتمتم موريس بكلمات عصبية وهو يلتفت من حوله، ففعل دكرور المثل بحثًا عن أطلس ولم يجده، ولكنه وجد عشــرات الزعانف الأخرى تحوم حولهم من جميع الجهات، ثم جذبه موريس إليه بعنف وشـبك ذراعه بذراعه، وتلك كانت أول مرة يتمنى دكرور أن يأتي أطلس ويبتلعه.

ثم لم تكن هناك فرصـــة للتفكير أكثر حين اقتربت الزعنفة كثيرًا وقفز صاحبها فوق الماء واتضح شكله أكثر، كانت سمكة غريبة مرعبة، سمكة هي أكبر من أن تكون سمكة، وبالطبع أصغر من أن تكون حوتًا، سمكة كل جسدها أسود ماعدا عيناها كانت بيضاء شاحبة تنذر بشر، وعلى وجهها ابتسامة دائمة تنم عن أنياب تثير القشعريرة في الجسد.

رأى دكرور في أعينهم البيضـــاء شــرًا يتجه نحوهم مباشــرةً عاقدًا على الفتك بهم، فأيقن أنهم هلكى لا محالة وســـلّم أمره، ثم لاحظ إحدى تلك الأســـماك تقترب كثيرًا وتقفز خارج الماء باتجاههم، وقبل أن ترتطم بهم أظلمت الدنيا فجأة وقد أطبق أطلس بفكيه عليهما، فاضـطربت المياه وتقلبوا بداخل الفم العظيم كأنما تضربهم ألف موجة.

وأول ما دخلا الجوف حاول دكرور أن ينادي على عمار لتحذير باقي الرجال مما رأى، لكن موريس وضع يده على فم دكرور بسرعة، ووضع سـبابة يده الأخرى على فمه، في تحذير لا يحتاج إلى كلام ليوضــحه أن لا تتكلم، ثم هرع إلى سامبار الذي يبدو أنه استيقظ لتوّه وأسرّ له بشيء، فعلم دكرور أنه أيضًـا رأى الأمر بينما كان نائمًا، وظل أطلس يصـدر أصـواتًا عادية لمدة قصيرة وبعدها سكت تمامًا.



(2)

علم أطلس أن هناك خطبًا في المياه بالفعل، ليس فقط شعوره برجاله عندما يكونون في الماء، لكنه كان شيء آخر، فبادر هو بالتقامهم بسرعة ثم رأى شيئًا في الظلام من تحته، فغاص إليه ليجده جثة سمكة قرش تسبح في دمائها، ظل قليلًا يفكر فيما قد يفعل شيء كهذا، إلى أن عاد ينظر إلى السطح ويجد عشرات الحيتان القاتلة تسبح في حلقة حول إثنين من رجاله، فسبح إليهم بسرعة غير عادية فاتحًا فمه فأطبقه عليهم قبل أن يدركهم أحد تلك الحيتان.

يسمي البشر تلك الحيتان "أوركا" أو "الحيتان القاتلة"، وذلك لسبب وجيه، فبغض النظر عن شكلها المرعب المميز، أو سلوكها العدائي تجاه أي شيء؛ إلا أن ما يجعلها تستحق ذلك الاسم هو أنها رغم صغر حجمها فهي لا تتورع من قتل الحيتان الأكبر منها حجمًا والأعظم منها قوة، لكن بالطبع ليس الحيتان ذوي الأجواف من مثل أطلس، وفي أحيان كثيرة تقتل الحيتان القاتلة ليس للتغذية أو للدفاع عن نفسها؛ بل من أجل القتل فحسب، وذلك ما يجعلها في بعض الأحيان أسوأ من البشر.

ثبت أطلس في مكانه من دون أن يتولى أو يهرب، فأحاطت به مئات من الحيتان القاتلة تسبح من حوله في دائرة طولية كأنه عالق في زجاجة دون أن يجرؤوا على الاقتراب منه، إلى أن جاءه أكبرهم وكبيرهم المسئول عنهم وآمرهم، لطالما كان أطلس يعرفه ويتكلم معه لكنه لا يأمنه أبدًا، فلم يكن يحتكّ به كثيرًا أو بأي من الحيتان القاتلة، وقال ذلك الحوت:

- أراد الصغار أن يلعبوا مع رجالك فحسب

لم يكن يتحدث سوى بتلك النبرة التي لم يعلم أطلس كيف يسميها حينها، لكنها بالتأكيد كانت تهكّم، ثم رَد:

- أهذا حقًا؟
- نعم، فقط أخرِجهم وسيحظون بوقت ممتع
- لقد عادوا لتوّهم

- صِرتَ تحميهم كأنهم صغارك، صرتَ لهم كسفينة بإمكانها أن تغوص في الأعماق
- إن لم آكلهم فلمَ لا أحميهم
- نعم.. أخبرني مجدّدًا ماذا يسمّوننا
- يسمّونكم أوركا
- كم أعشق تسميتهم للأشياء وهذا الاسم بالذات، أتدري.. أكاد أجزم بأني لدي جوف مثلك وبإمكاني الاحتفاظ بالبشر في داخله، لكني أفترسهم بين أسناني قبل أن يدخلوا بطني
- لذلك يسمونكم القتلة أيضًا.. أنصحك بعدم الاقتراب من سفنهم حتى لا يكونون هم من يفترسك
- لا يجرؤ البشر على الاقتراب مني
- هذا فقط لأنهم لا يحتاجون منكَ شيء
- لا شك أنهم كانوا يحتاجون من عائلتك الكثير...

وأضاف بتهكم أكبر:

- معذرةً كدت أنسى أنهم قُتِلوا جميعًا
- إنهم لم يُقتَلوا
- أما زلتَ تعتقد ذلك؟
- نعم، لقد شعرتُ بأحدهم ورأيت آخَر بعينه
- من دون أن تعلم أين هم؟ هذا غريب أتدري ربما سأساعدك في البحث
- ولمَ تهتم؟
- وكيف لا أهتم بصديقي؟

قالها الأوركا ثم بدأت الحيتان القاتلة تتفرق من حولهما، ثم أردف أخيرًا:

- لمَ لا تذهب شمالًا إلى بحر الجليد؟ هناك حوت ذو جوف يعيش وحده هناك، ربما تجده يعلم شيئًا

وقال وهو يبتعد:

- سأرسل إليك أحد الصغار إذا وجدتُ شيئًا.. ربما

لم يمانع أطلس العمل بنصيحته، فحدد وجهته وظل يسبح باتجاه الشمال بالقرب من السطح دون أن يصادف شيئًا أو يعطله شيء، وبعد أيام عديدة وصل إلى الشمال حيث البحار المتجمدة، والتي في ظاهرها موحشة وهادئة، لكنها في أعماقها ومن تحت كتل الجليد اليابسة؛ كانت ملجأً لكل كائن يحب الاختباء.

ظل هائمًا في تلك البحار لأيام من دون أن يجد شيء أو يجده شيء، إلى أن شعر بشيء آخر في المحيط جعله يترك ذلك المكان ويغيّر وجهته، وإذ لم يكن الصداع المعتاد فقد علم على الفور أنه أحد رجاله، لكن من غير أن يعرف مَن، فحرص على ألا يزور رجاله في أحلامهم حتى يتأكد من الأمر.



مرت أيام دون أن يُسمع صوت من الحوت أطلس، والنور بالكاد يخفت أو يشتد، فبدأ دكرور يشك أنه مات وأنهم عالقون هنا، وموريس وسامبار يحاولون إخفاء قلقهم الذي لا يعلم أحد عنه شيء سواه.

وبين الحين والآخر يرمقه موريس بنظرات خالية ربما ليتأكد من سكوته، وهو لا يجيد ولا يريد أن يستفسر منه عما يجري، إذ إنه لا يزال لا يفهم لغتهم بعد، كما أن موريس ذلك يثير فيه شعور لا يجيد وصفه، ليس كره أو خوف أو رهبة، إنه فقط شعور يجعله لا يريد النظر إليه أو الاقتراب منه.

كل مرة يخلد دكرور إلى النوم يتوقع أن يرى الحوت كأنه في انتظاره في عالم الأحلام، لكنه لا يكون هناك، في بعض الأحيان يجد نفسه على السفينة بصحبة النائمين، وفي أحيان أخرى يحلم بالحوت يأكله ويهشمه بين أسنانه، أو يحلم بأنه يغرق، أو بأنه يصاب بحربة في ظهره وهو يسبح مبتعدًا عن السفينة، وأشياء أخرى من ذاكرته قبل أن يغرق ويدخل الجوف، وكلها أشياء يتمنى أن ينساها.

وفي أحيان أخرى كثيرة لا يكون هناك أي شـــيء، فقط نوم، نوم طويل صافي لا ينقطع ولا تشوبه أحلام، وكل مرة يستيقظ يتيقن أكثر أنه قد جرى للحوت شـيئًا أو ربما قد مات، فينتابه شـعور بالوحشـة والخوف، ليس من فكرة موته، بل من فكرة أنه يجب عليه المكوث بداخل جوف حوت ميّت إلى أجل غير مسمى.

حياة غريبة جدًا تلك التي من دون طعام أو شـــراب، ومن دون الحاجة المُلِحَّة المتكررة لفعل شـيء بعينه، في أول أيامه حاولَت معدته بكل الطرق أن تقنعه أنه جائع وأنه يجب إطعامها، وحاولَ دكرور أن يخبرها أنه ليس جوع الطعام بل هو جوع العادة، فشيء يفعله أكثر من مرة في اليوم كل يوم على مدار ستة وعشرين سنة؛ شيء كهذا لا تختفي عادته بسهولة، وبعد أيام يئسَت معدته وسكتت، وبدأت تألَف النسيان، وبدأ هو ينساها شيئًا فشيء.

ورغم أنه لا يوجد وسـيلة لمعرفة الوقت وهم لا يخرجون، إلا أن دكرور شـعر أنه يمر سـريعًا، ليس فقط لأن الزمن يسـير بشـكل غريب كما أخبره عمار، لكن أيضًا لأن الرجال ينامون أكثر الوقت، وفي الوقت الذي يصحون فيه يلهون بكل ما أمكنهم من وسائل لهو، لديهم ألعاب طاولة وأربع طاولات شطرنج، كان دكرور يعرفها من قبل، وكان بارعًا فيها.

كما أن لديهم آلات موسـيقى، فسـامبار يعزف على ناي ببراعة، ويعزف سـيجورد على كمنجة، ومع صـوت أوسـاي الملائكي؛ يصـنع ثلاثتهم جوقة غاية في الروعة، كما أن هناك الكثير من الكتب لمن منهم يجيد القراء.

وبالطبع هناك مصـارعات إلا أنها غريبة هنا بعض الشـيء، فهي فرقتين على الأكثر، فرقة على الأرض والتي تقابلها أعلاها على السقف، وكل فرقة تتكون من إثنين يركب أحدهما على كتف الآخر ويصـارع الرجل المقابل له في الفرقة الأخرى، حتى يسقطه على أرضـه، وأول مرة يشارك دكرور في هذه اللعبة أصيب بالغثيان وانسحب من أولها حين رأى سيجورد وجهًا لوجه لكن بالمقلوب.

وجزء كبير من الوقت كانوا يمضـــونه في التدريب على القتال بالســيف والحربة، لكن لقتل رجل وليس لقتل حوت كما ينبغي لها أن تُســـتخدَم، ويتدربون على اســـتعمال البنادق والمســـدســـات، وكيفية تنظيفها من الماء وإعادة تلقيمها، دون أن يجربوها داخل الجوف بالطبع، لكن الأسلحة النارية غالبًا ما كانت تفسد بعدما تبتل بمياه البحر، فلم يعتمدوا عليها غالبًا.

لكن دكرور أمضـى أكثر وقته مع عمار يعلمه الإنجليزية، فكل رجل معه لغتين يُعلِّم إحداهما لمن معه لغة واحدة ويشـــاركه إياها، وحيث أن أكثرهم كان يتحدث الإنجليزية أو على الأقل يعرف القليل منها؛ فقد كانت لغتهم في معظم الوقت.

ومن كثرة الممارســـة وطول الاســـتذكار، ولأن عمار لا يكف عن الكلام وحكي الحكايات؛ تعلم دكرور تلك اللغة بســـرعة، وبدأ يتفاعل مع باقي الرجال ويعرف كل واحد منهم، لكنه احتاج أن يســـأل عمار عمّن مات منهم أو لم يعد موجودًا معهم:

- وكم منكم قد مات من قبل؟
- لقد شـــهدت زيمان وبيدرو، وقبلهما كان هناك دوراي ولويس، هذان ماتا قبل أن آتي إلى هنا
- ماذا عن ويليام و...
- وأوين، كانوا ويليام وأوين...

زفر عمار بيأس وأردف:

- ذهبا منذ قرابة الشـــهر إلى بريطانيا لاســـتطلاع اليابســـة، يجلبان أخبار الحروب والناس وأخبار صيد الحيتان وما إلى ذلك
- هل تفعلون ذلك عادةً؟
- ليس عادةً، لكن فعلناه أكثر من مرة، أذكر في أول سنة لي أن موريس وأوين قد ذهبا وعادا بعد أســـبوع، ومنذ زمن كان بوهاردي ورالف يذهبان مع سامبار للبحث عن علاج لمرضه لكن دون جدوى

قال دكرور في شرود كأنه يتساءل:

- وجميكم تعودون...
- نعم، وأين سنذهب على كل حال؟، أصبح هذا منزلنا الذي لا نريد أن نبتعد عنه، فكنا نعود بعد يومين أو أســـبوع على الأكثر، لكن أوين وويليام قد طالت غيبتهم، حتى أننا بدأنا نعتقد أنهما قد هربا
- ماذا عن هنري؟ أعني كيف هرب؟
- قلتُ لك أنه لم يهرب لقد مات أثناء المحاولة.. كانت طريقته مثيرة للإعجاب رغم ذلك، فقد دفع بجثة أحد القتلى بداخل الجوف، فعَدَدْناها رالف أو تاندي فهما كثيرًا ما يعودا فاقدا الوعي، ثم لم نتبين تلك الجثة إلا بعد أن دخلنا جميعًا وأغلق الجوف...

قال دكرور بانفعال:

- أهي تلك الجثة التي كانت بجانبي حين استيقظت هنا أول مرة؟
- بالفعل، المهم.. ثم علمنا بعدها من بوهاردي أن أطلس قتله، فهو من كان نائمًا حينها
- هل هو الوحيد الذي حاول الهرب؟
- إن لم نحتسب أوين وويليام... إذًا هنري هو الوحيد الذي حاول الهرب



رغم أن كل ذلك كان مثيرًا جدًا لاهتمام دكرور، لكن كان بوهاردي أكثر من يشغل تفكيره بينهم، ربما بسبب تصرفاته الغريبة أو مزاجه المتقلب، أو لون عينيه الغريب، واسمه الغريب الذي لا يليق على شكله، أو لأنه أول من جاء هنا، فقد علم دكرور أن بوهاردي قد مكث وحده لثلاث سـنوات قبل أن ينضم إليه رالف، فسأل دكرور عمار في إحدى المرات:

- من أين هو بوهاردي؟
- إنه إفريقي، من أحد القبائل أو شيء كهذا
- إفريقي؟! مثل مافي وتاندي مثلًا؟

- وسامبار.. نعم
- إذًا لمَ لا يبدو مثلهم؟ أعني أنه لا يبدو كإفريقي

بدا عمار متردّدًا وهو يجيب:

- أممم! ليس كل الأفارقة سود، أنا وأنت أفارقة أيضًا

لم يفهم دكرور ولم يقنع بالإجابة، فسأل شيئًا آخر كان يشغل تفكيره منذ أن بدأ يفكر مليًا في كل شيء:

- لقد قلتَ أن بوهاردي قد غرق منذ مائة وعشرين سنة...
- تقريبًا
- وأن عمره مائة وثمانون سنة...
- تقريبًا
- هذا يعني أنه كان في الستين من عمره حين غرق
- ...
- لماذا إذًا يبدو لي في الثلاثين؟... تقريبًا

قال عمار بدهشة:

- اللعنة! لم أكن أعلم أن لديك عقلًا بداخل رأسك.. من أين أتيت بهذا الذكاء؟!

ثم زفر بسأم وقال بامتعاض أكثر:

- اللعنة! لا أعلم كيف أخبرك.. لا أعلم حتى إن كان من المفترض أن أخبركَ
- لا عليكَ يا عمار، دكرور أحدنا.. وعاجلًا أو آجلًا لابد وأن يعرف

قال ذلك بوهاردي الذي كان يجلس على مقربة منهم بعد أن ترك كتابًا كان يقرأ فيه، وهو ينظر إليهم بعينه الصفراء التي تلمع في الظلام مثل القطط، ثم قام وسار إليهم وربّت على كتف عمار وجلس بجانبه، وجلس ثلاثتهم في صمت لمدة قبل أن يقول بوهاردي:

- لا أعلم أي جنون قد سمعته أو رأيته حتى الآن، لكن ما ستسمعه الآن شيء آخر...

ثم بدأ الضـوء يشـتد في الجوف عندما بدأت عروق النور تتسـع، ويظهر السائل الأصفر الذي يجري بداخلها ببطء وينبض بوهن، وأحد تلك الشقوق كان بجانب بوهاردي، فوضع فيه سُلامة خنصره ثم أخرجه ملطخًا يضـيء بذلك السـائل كالشـعلة، ورفعه أمام عينه وحدّق فيه حتى تماهى لون عينيه مع النور الأصفر، وقال في استغراق وهو على هذا الحال:

- كان أطلس يحكي لنا عن أشـياء غريبة يفعلها بشـر آخرون يسـكنون حيتانًا أخرى بهذا السـائل الأصـفر، لم نفهمها ولم نلقِ لها بالًا، وحتى الآن لا زلنا غير متأكدين من حقيقة ذلك النور السـائل، فقط حذّرنا أطلس من شـربه لأنه يقتل من يشـربه، وكنا نعتقد أنه ما يعطينا ذلك العمر الطويل وذلك الشـباب الذي لا ينتهي، وأنه ما يشـفي ما بنا من عِلل، لكن اتضح أن الجوف نفسه هو السبب في كل ذلك...

وأضاف:

- على كل حال.. أخبرنا أطلس عن أن هناك رجالًا يسـكنون حوتًا آخر قد اسـتعملوا ذلك السـائل في نقل الروح من جسـد معطوب إلى جسـد سليم.. من جسد لا يصلح للعيش إلى جسد معافى، فيجب على صاحب الجسد المعافى أن يضحي ويقتل نفسه بأن يشرب ذلك السائل، ويجب على صاحب الجسد الفاسد أن تكون روحه لا تزال فيه قبل أن تخرج منه إلى الجسد الآخر السليم، هل فهمت؟

كان دكرور يسـتوعب كل ما يقال لكن لا يعيه، إذ كان بالفعل جنونًا من نوع آخر، كما لم يقدر على تكذيبه بأي شـكل، فبعد كل ما رأى واختبر أصبح كل شيء سهل التصديق مهما كان، كما أنه يعلم أن ذلك ليس كل ما في الأمر فأجاب بغمغمة، بعد أن لاحظ انضمام بعض الرجال إليهم دون أن يشعر بهم، ثم مسح بوهاردي إصبعه في ردائه وقال:

- فكرنا أن نفعلها مع سامبار وأحد البحارة من على أي سفينة، لكننا كنا غير متأكدين، بعدها نسينا الأمر كله، ولم نذكره إلا عندما مات زيمان وأردنا أن نفعل شـــيئًا، لكن لم يكن هناك ما نفعله، إلى أن حدث ما حدث منذ سنتين...

وسكت فجأة دون أن يقاطعه أحد ثم عاد يقول بتردّد:

- لقد فعلناها منذ سـنتين.. حين أُصِـبتُ في مرة صـعدنا فيها لاصـطياد ســفينة، كان القتال شـــديدًا، وكاد بيدرو أن يُقتل، لكنني دافعت عنه فأصـبتُ أنا، إصـاباتي كانت بالغة والجروح كانت لتقتل أي أحد على الفور، لكني كنت على قيد الحياة حين رجعتُ إلى الجوف، وإذ كانت جراحي تقتلني أسـرع من أن يشـفيها الجوف، فقد بقِيَ جسـدي دون أن تخرج منه روحي كأنه نائمًا، وهكذا لم أمت ولم أبقَ على قيد الحياة...

سكت بوهاردي ثانيًا وبدا أكثر ترددًا وحزنًا حين أكمل:

- حتى ضَحّى بيدرو بنفسه من أجلي وأهداني جسده السليم..

ثم نظر إلى رالف وأردف:

- لا تخبرني أنه فعلها لأنني ضـــحّيت بنفســـي من أجله أولًا، رغم أنني ولجت إلى أفكاره ومشاعره وذكرياته وحتى لغته، رغم أنني أصبحت هو بطريقة ما؛ إلا أني حتى الآن لا زلت لا أدري لمَ فعلها...

وأصــبح بوهاردي أكثر تأثرًا وحزنًا، وفاضــت دمعة صــفراء من عينه، وسمع دكرور بكاء بعض الرجال دون أن يتبين أيهم، وأردف بوهاردي:

- ثم استيقظتُ لأجد نفسـي ممددًا على جانبي أحتضـن أحدًا بين ذراعي، ثم أدركت أني أحتضـــن نفســي، ورأيتني أمامي كأني أنظر إلى مرآة، رأيتُني مغمضًا عيني وسكينًا يخترق صدري

أنهى بوهاردي كلامه ومســـح عينيه وقد عاد إليه اتزانه، ثم نهض وقال باقتضاب:

- حسنًا أعتقد أن هذا كل ما في الأمر

وترك الجميع وابتعد إلى ركن لينام، ثم عاد دكرور إلى عمار ليجد وجهه مبتلًا بالدموع هو الآخر وقال:

- ألم تقل أن بيدرو هذا قد قتل على إحدى السفن؟
- أنا لم أقل ذلك قطّ

عاد دكرور يسأل غير عابئًا بحالة عمار أو بالجو المشحون بالمشاعر:

- إذًا هذا جسد بيدرو؟ إذًا بيدرو هو الأعمى وليس بوهاردي.. صحيح؟

لم يتلقَّ إجابة سوى الصمت فعدّها نعم، وسأل أخيرًا:

- وكيف فعلها على كل حال؟

لكن سامبار هو من أجابه:

- أصِبنا جميعًا بالهلع عندما عرفنا أنه لا يزال على قيد الحياة، وبينما كنا نتشاجر فيما سنفعل أو إن كان أحدنا سيفعلها أو ما إذا كنا سنفعلها أصلًا؛ كان بيدرو قد شرب النور السائل فتحولت عيناه إلى الأصفر، قبل أن يرقد بجانب جسد بوهاردي النائم، لم نكن ندري ماذا يفعل، وحتى بعد أن أدركنا ماذا يفعل لم ندرِ ماذا نفعل، ثم أحتضن جسد بوهاردي وأخرج سكينه وغرسه في صميم قلبه، أعتقد حينها أن روح بوهاردي قد خرجت ودخلت جسد بيدرو في نفس الوقت الذي خرجت روح بيدرو من جسده



(4)

ظل جميع الرجال هادئين وواجمين لفترة بعد حديث بوهاردي وقَلّ لعبهم وزاد نومهم، وقَلّ كلام دكرور مع عمار وإن لم ينقطع، ولا يزال لا صوت،

أو أي أثر للحوت في المنام، وبالكاد يخفت النور، والغريب في كل ذلك أنه لا يبدو على أي أحد أنه يلاحظ أي من ذلك، وموريس وسـامبار بالذات يزدادون وجومًا وقلقًا مع كل يوم يمر، لكنهم يجيدون إخفاء ذلك.

وفي يوم وجد دكرور موريس يجلس في وقار وهدوء كعادته، فقرر أن يتكلم معه حول ما يحيك في صـدره من أمر السـمكة المخيفة، وما حدث لأطلس، فاستفسر من عمار عن بعض الكلمات الإنجليزية وبعض قواعدها، مدعيًا الاسـتذكار والاجتهاد في التعلم، بعدها جهّز الكلمات في ذهنه ورتبها وراجعها عدة مرات، ثم سـار ناحية موريس بهدوء، وما أن نظر إليه؛ حتى نسى الإنجليزية والعربية وفقد النطق ثانيًا.

لم يكن موريس مخيفًا كما يبدو، كما أن دكرور رآه يمزح مع البقية ويمازحونه، لكن يوجد شـيء ما في عينه الرمادية الشـاحبة يثير المغص في المعدة، وكما لم يكن يتوقع؛ ابتسم موريس وأومأ برأسه قائلًا:

- سيد دكرور! صحيح ما اسمك الأخير؟
- أنا لا أعرف اسمي الثاني حتى أعرف الأخير
- أنا أقصد... أه لا يهم، كيف حالك؟
- بخير.. أعتقد
- تبدو مرتاحًا هنا، أخبرني ألا تريد أن تخرج وتعود إلى وطنك؟
- بالطبع، لكن لا أظن أنه يوجد مكان لأخرج إليه على كل حال

زفر موريس ضحكة وقال وهو يومئ بطيبة:

- سيناسبك الجوف كثيرًا

وسكتا بعدها، ومن أجل ألا يتوقف الكلام عند هذا الحد؛ أضاف دكرور:

- عرفت أنك من فرنسا
- نعم! وأنا عرفت أنك من مصر، هل غزَت فرنسا مصر بالفعل؟
- بلا.. كان ذلك قبل أن أولد.. منذ حوالي أربعين سـنة، ألم تكن معهم؟ أعني بما أنك كنت جنديًا

- لا لم أكن معهم، لقد غرقت قبلها بأربعين سنة أخرى
- إذًا أنت هنا منذ ثمانين عامًا؟

أومأ موريس بابتسامة راضية، ثم أردف دكرور بدون مواربة أو مقدمات أكثر:

- ما الذي حدث بالأعلى يا موريس؟ ماذا كانت تلك السمكة؟

اختفت ابتسامة موريس شيئًا فشيء، وبدا عليه اليأس والتعب وقال:

- كنتُ أعلم أنك ستقول ذلك.. كانت تلك حيتان قاتلة...
- حيتان!!! لم تبدُ كحيتان، إنها صغيرة جدًا
- لا تقاطعني! ليست كل الحيتان كبيرة، وحتى الكبير منها ليس كبيرًا كأطلس، بالطبع إنها أصغر من أن تكون حيتان لكنها لا تتورع من اصطياد الحيتان الأكبر منها بعشرات المرات
- هل هاجمت... هل مات؟
- لم أرَ أكثر مما رأيتَ يا فتى، لكن لا.. لا أعتقد أنه مات، أطلس ليس كأي حوت آخر
- لكننا لم نسمع صوته منذ أن عدنا، منذ... أسبوعين؟
- ربما أكثر
- منذ مدة طويلة، كما أنني لم أعد أراه في أحلامي
- ليس معنى أنك رأيته مرة أو مرتين أنك ستراه في كل منام، كما أنه في السابق كان يظل صامتًا فترات أطول من تلك
- لماذا إذًا أخفيت الأمر عن الرجال؟
- لماذا بظنك؟.. سيخافون، وحين يخاف الرجال خاصةً في مكانٍ كهذا؛ تسود الفوضى، وصدقني حين أقول أن الفوضى يمكن أن تقتل، تمكن الخوف من سامبار بالفعل وبدأ يفقد السيطرة على نفسه.. بالكاد ينام ويبكي بين يدي كل يوم تقريبًا، تخيل أن يحدث هذا للجميع

وبالحديث عن الفوضى والخوف وفقدان السيطرة؛ تمكن الخوف من دكرور هو الآخر وقال بتوتر:

- لكن ماذا إن كان قد مات؟ هل سنعلق...

لمس موريس القلق في صوته، فقال بطيبة وهو يربّت على كتفه:

- فقط لا تفكر في الأمر هكذا، أعدكَ أنه لم يمت.. انتظر وسترى
- كيف لك أن تتأكد هكذا؟ كيف لك ألا تكون خائفًا؟ أنت حتى لا تبدو قلقًا
- من قال أني لست خائفًا، أنا فقط لا أبدي ذلك، تلك هي الشجاعة، ليست الشجاعة ألا تخاف فذلك يسمى الغباء، لكن الشجاعة ألا تبدي ذلك الخوف.. والآن عِدني أنك ستكون شجاعًا يا دكرور

أعادت كلماته بعض السكينة إلى دكرور، وقد اطمأن له ولحديثه، وكلماته الخفيفة التي تراعي كونه جديدًا على هذه اللغة، وردّ:

- حسنًا أعدك
- جميل!

ظل دكرور صامتًا لبرهة، ثم قال:

- ولم تخبر بوهاردي حتى؟
- بوهاردي ليس صلبًا كما يبدو، حتى قبل... قبل بيدرو
- وأنتَ لستَ صلبًا كما تبدو

قالها دكرور فزفر موريس ضحكة قصيرة ساخرة اهتز جسده من جرائها، وقال:

- وأنت صلبًا كما لا تبدو

ثم أخذ يحكي حين غرق في إحدى المعارك البحرية بين الأسطول الفرنسي والبريطاني، وأنه ذهب إلى فرنسا مع سامبار وبوهاردي، ومرة أخرى إلى أرض مجهولة لم يفهموا لغة سكانها، وحكى عن شواطئ غريبة لم تطأها قدم بشر، وأماكن عجيبة أخذهم أطلس إليها كانت السماء فيها تتلون بالأخضر، وحكى أنهم قديمًا كانوا ينقذون الحيتان التي تعلق على

الشـواطئ، وأنـهم قابلوا أحد الحيتان وتبادلوا الأحاديث مع الرجال في جوفه، وأنـهم كانوا يتسـللون إلى السـفن ويسـرقون منـها، وتتطور الأمر إلى أن صاروا يغرقونـها، وتتطور الأمر إلى أنـهم أصبحوا يقتلون من عليها.

وكان دكرور يسـتمع إليه في اهتمام وإثارة، وفكر أنه كان عليه أن يكلمه فقط لكي يعلم أنـه أطيب مما يبدو، إذ لم تبدُ عليه هذه الألفة والوداعة حتى كلمه، ربما حياته التي أمضـاها يقاتل جنودًا آخرين وصـيادين الحيتان؛ هي ما أورثته تلك الملامح الصلبة، لكن ما وراء تلك الملامح كان شخصًا آخر.



قرر دكرور أن يقضـي وقته يسـأل الرجال السـؤال الذي لطالما شـغل تفكيره، والذي لا يعرف حتى كيف يسأله لنفسه، ألا وهو: كيف يرضى أحد البقاء هنا؟، أو كيف يتحمل أحد العيش كل هذه المدة؟، وما الذي يدفع أحد للقتل من أجل حوت؟، جميعها صـيغ لسـؤال إجابته واحدة لا يعرفها، ربما كان هنري الوحيد من حاول الهرب هو من لديه الإجابة.

وسـأل عمار أول من سـأل بعد أن اسـتيقظ أخيرًا، إذ إنه أكثرهم نومًا وكسلًا، فذهب إليه وهو مستلقيًا فجلس حين جلس بجانبه، وقال مازحًا:

- كيف ينام المرء كل هذا؟! ظنناك مت..
- وأنا أيضًا
- وما الذي يمنع؟.. أن تموت

نظر إليه عمار بتعجب كأنه أول مرة يراه وقال:

- أعتقد أن الحياة كافية لأن تمنعك من الموت

علَّق دكرور:

- لكن أليس هذا كثيرًا على أن يكون حياة، أعني المكوث هنا كل هذه المدة، وتعريض نفسك للقتل كل بضعة أيام، ومن أجل ماذا.. حوت؟

- حوت! أتسمي أطلس حوتًا؟ إنه أكثر إنسانية من كثير من البشر
- إنسانية!!
- ألم يُرِكَ كيف يتم اصـــطياد الحيتان؟ أنا لم أرَه ولا أحتاج لأن أفعل، لكن حكايات الرجال تشـــيب لها الرأس.. ما أريد أن أخبرك هو أن البشر قد تمادوا كثيرًا، ولابد من إيقافهم
- أهذا ما تفعله.. تحميه؟
- رغم أنه قادر تمامًا على حماية نفسه إلا أنه لا يفعل، أنا أشعر بالشفقة عليه، وعلى كل الأســماك في المحيطات حتى الحيتان، لم يســلم ذلك الكائن المهيب من مكر البشر.. لا سيما أطلس

ثم أضاف كأنه يكلم نفسه:

- أنا أحميه.. نعم! ولمَ لا؟! ليس لأنه أنقذ حياتي فحســـب إنني فقط... أحبه، كما أنني أكره الحوّاتين، ولا أستوعب فكرة أنهم يحاولون النيل منه كل يوم، أو أنهم سينجحون في يوم ما

سكت دكرور مبهوتًا من هذا الكلام، لا يستوعب علاقة الحب تلك، وفكر أن موريس كان محقًا، إذ إن بعض الرجال ســـينهارون حين يعلمون أن من الممكن أن يكون حوتهم العزيز قد مات، ليس لأنهم ربما سـيعلقون هنا للأبد كما اعتقد دكرور، ولكن فكرة موته نفسها.

اقترب أوسـاي يتأبط لوح شـطرنج تحت ذراعه، ودون كلام وضـعه أمام عمار وقاموا برَصّ القطع، وبدأوا مباراتهم صامتين.

وفي محاولة لكسر ذلك الصمت باغت دكرور أوساي بسؤال جعله يتوقف عن تحريك قطعته، حيث سأله:

- لماذا لم تهرب حتى الآن يا أوساي؟

سكت أوساي برهة يفكر في السؤال، ثم أجاب بصوته الصغير المرح:

- ربما لأن قدماي أصغر من قضيبي!!

وانفجر أوساي وعمار في الضحك، ثم انضم إليهم دكرور بعدما استوعب معنى كلمة معينة لم يكن يفهمها، وعاد أوساي وعمار إلى لعبتهما، فسأل دكرور ثانيًا بطريقة حاول أن تكون أكثر وضوحًا:

- أعني كيف تتحمل العيش في بطن حوت، وكل هذا القتل، وكل هذه المدة؟

ردّ أوساي من دون أن يرفع نظره عن لوح الشطرنج، يفكر في حركته:

- أنا أحب أطلس، وعلى أتم الاستعداد أن أقضي بقية حياتي في جوفه...
- لكنك في سجن!!
- أهذا حقًا؟! وأين كنتُ قبل أن أدخل هذا السجن؟ يعتمد السجن في كونه سجنًا على حالك قبل أن تدخله، وبالنسبة لحال جميعنا قبل أن نأتي إلى هنا فهذا السجن هو النعيم ذاته

ثم نظر في عين دكرور وإلى المكان من حوله وأردف:

- أترى كم هو وحيد في هذا المحيط الكبير؟ كما أنه يتعرض للقتل من مجرد تنفسه للهواء، حتى أنهم قد قتلوا كل الحيتان الرمادية من فصيلته، إنه يحتاج إلينا كي نواسيه، ليس فقط كي نحميه، لماذا بظنكَ يخرجنا من جوفه ويأخذنا في رحلات على ظهره ويسمح لنا باللعب، على الرغم من أننا هنا للعقاب؟

ثم قال عمار:

- هل أخبرتكَ عن الحيتان الأخرى ذوي الأجواف؟

أجاب دكرور:

- ليس الكثير...
- أخبرنا أطلس عن أن هناك حيتانًا أخرى تكتفي بواحد فقط داخل جوفها، لا تخرجه إلا بعد أن يتوب مما قد فعل، فلربما يمكث ذلك التعِس لآلاف السنين وحده في جوف حوت

قال أوساي قبل أن يتكلم دكرور:

- أخرجنا أطلس منذ زمن لمقابلة أحد الحيتان الطيبة بل وتســــامرنا مع الرجال في جوفه، كان صديقه أو ما شابه

ثم سأل دكرور:

- لكن لم يتُب أي منكم من قبل؟

تساءل أوساي بتهكم:

- بعد كل ما فعلنا؟
- أه فعلًا! أنا حتى لا أعلم إن كانت لي توبة
- حتى وإن كان هناك من سبيل للتوبة فلا أريد أن أسلكه

وابتلع دكرور الكلام على مضض وسكت، ولم يحتَج لسؤال باقي الرجال عن سـبب تقبلهم لمثل هذه الحياة، إذ إنه يعتقد أن إجاباتهم سـتكون واحدة أو متقاربة، هو لا ينكر أنه معجب بأطلس حقًا، فهو حوت فريد بل هو كائن فريد، لكنه ليس متأكدًا إن كان يهيم في عشقه مثل هؤلاء الرجال.

وجلس يشـاهد مباراة أوسـاي وعمار المحتدمة، حتى جاء سـيجورد هو الآخر يحمل لوح شطرنج آخر، فوضعه أمام دكرور وجلس أمامه، وابتسم إليه ابتسامة مخيفة وقال على سبيل التحية:

- دكرور!! كيف تريد أن تخسر؟
- أه! تريد أن تشعل حربًا

قال عمار متوجهًا لسيجورد:

- احذر من هذا النرويجي يا دكرور! فهو ليس غبيًا كما يبدو

وسيجورد لا يشيح ببصره عن دكرور، بعينيه السوداء ووجهه الأبيض، وشعره الأحمر، وابتسامته الصفراء، ثم قاما برَصّ القطع، وبدآ مباراتهما، بعدها انضم بوهاردي ورالف إلى جانب دكرور وسيجورد بلوح شطرنج آخر، وتبعهم سامبار ومافي، وقد اشتعلت حرب بالفعل.

انتظر دييجو وتاندي انتهاء أي مباراة، وموريس يجلس على مقربة يشاهد بمرح وقد امتنع عن اللعب، وانتهت مباراة عمار وأوساي بفوز أوساي الذي ملأ المكان بصـــيحاته ويتوعد بأن يهتك عرض من ســـيلاعبه لاحقًا، ولما طالت المباراة بين دكرور وسيجورد قال سيجورد متأففًا:

- آه! ربما لن تنتهي هذه المباراة قبل أن أرحل من هذا الجوف

فسأل دكرور:

- ومتى سترحل من هذا الجوف يا سيجورد؟
- كلامك هذا يذكّرني بأحدهم!.. ربما لن أرحل أبدًا
- لكن ألا تحب أطلس؟ ألا تريد العيش في جوفه ما بقيَ من حياتك؟ أو للأبد؟

قالها دكرور في تعجب ساخر، فزفر سيجورد ما بدا كضحكة وقال:

- حســـنًا ولمَ لا!.. طالما معي هؤلاء الحمقى، لكنني هنا منذ واحد وعشرين سنة، وتبدو كأنها الأبد بالفعل

قال آخر كلمة وألقاها إلى بوهاردي الجالس بجانب دكرور، فردّ بوهاردي مازحًا بأسف مبتذل:

- آه ســـيجورد المســـكين! هل مللتَ بالفعل؟ لا تقلق.. فالمائة عام داخل الجوف تمر في لمح البصـــر.. صـــدقني! أنا هنا منذ مائة وأربعة وعشرين عامًا، ويبدو الأمر كأنه أول البارحة، هل تراني أتذمر؟ هه!

ضـحك سـيجورد وحدج بوهاردي بنظراته الباردة، حتى أكمل بوهاردي إلى دكرور بنبرة آمرة:

- وأنتَ لا أريد أن أســـمع منكَ مثل ذلك الكلام، نحن كلنا هنا معًا ومع أطلس.. فإن كنتَ ســـتبقى معنا فلا أريد أن أســـمعك تتذمر بشـــأن الخروج، وإن كنت تريد الخروج والظفر بحريتك فلن يمنعك أحد

فرَد دكرور:

- مثل ويليام وأوين؟.. أم مثل هنري؟

قالها فأصبح سكوت الرجال أوضح، حتى قطع هذا السكوت صوت بكاء.

★★★

التفت الجميع نحو مصدر البكاء ليجدوه سامبار، يبكي ويضع يديه على رأسه ويتحرك للأمام وللخلف ويتمتم بكلمات غير مفهومة، وما أن وضع رالف يده على كتف سامبار حتى قال الأخير بصوت واضح:

- جميعكم هلكى!

قال موريس في نبرة تحذيرية:

- سامبار!!

ردّ سامبار وقد علا صوته أكثر:

- لا.. لا يمكنني فعلها بعد الآن، يمكنني البقاء داخل الجوف لألف عام.. لكن ليس... ليس وهو ميت...

وعاد سامبار لبكائه بهدوء، حتى سأل رالف:

- سامبار! اهدأ.. ما الذي تهذي به؟

نظر سامبار إلى موريس فقال وكلامه يختلط ببكائه:

- آسف يا موريس.. لم يعد بإمكاني الاستمرار هكذا...

عاد سامبار إلى الرجال وقال بعد أن تمالك نفسه قليلًا:

- لقد هاجمت الحيتان القاتلة أطلس في آخر مرة خرجتم فيها.. بعد أن عدتم مباشرةً

وبدأ سيجورد يضحك، ثم سأل بوهاردي بعصبية:

- كم حوتًا هاجمه؟

أجابه دكرور:

- عشرات!

نظر الجميع إلى دكرور، فسأله بوهاردي في ذهول:

- هل كنتَ تعلم؟!! هل كنتَ تعلم؟!!

قال الثانية لموريس فلم يجِبه أيضًا، فنهض دكرور وصاح بعصبية:

- نعم كان يعلم!! وآثر عدم إخباركم حتى لا يثير الفوضى والهلع.. والآن يجب أن نهدأ حتى نجد مخرجًا من هنا

وعَلَت ضحكات سيجورد، ثم نهض مافي وقال لدكرور معنفًا:

- ليس معنى ذلك أنه مات أيها الأحمق!

رد عليه دييجو وقد قام هو الآخر:

- لم نسمع صوته منذ آخر مرة صعدنا.. منذ أن عاد إلى دكرور صوته

وأضاف عليهم سامبار:

- ولم يسمع أحد صوته في منامه.. صحيح؟

أجاب دكرور:

- نعم كل هذا صحيح.. والآن نريد أن نعرف كيف نخرج من هنا...
- اللعنة! لا.. لا يمكنني... لا يمكنني التنفس...

قال ذلك عمار وبدأ يسعل ويتنفس بصعوبة حتى سقط على ركبتيه، فذهب إليه دكرور يساعده وقد انشغل عن باقي الرجال، وعلا ضحك سيجورد أكثر، ثم سقط أوساي مغشيًا عليه، فهرع إليه مافي يحمله كالرضيع بين ذراعيه الضخمين يحاول إيقاظه.

وبدأ الرجال يقومون ويصيحون في بعضهم بعصبية وهلع، وموريس جالس في ثبات، فأمسك بوهاردي بتلابيبه وأجبره على القيام وصاح فيه:

- هل كنت تعلم؟ أخبرني! هل كنت تعلم؟

ردّ موريس ببرود:

- هل كنت تريد أن يحدث هذا في وقت مبكر أكثر؟

وأخذ رالف يحاول أن يفصل بينهما.

ثم نهض سيجورد وهو ما زال يضحك، وأخذ حربته وتوجه بهدوء ناحية شق الباب المغلق، وسرعان ما انضم إليه تاندي، وأخذا يضربان الحائط في مكان باب، ويضعان حرابهم في الشق الطويل يريدون فتحه عنوة.

وأثناء كل ذلك كان دكرور يربت على ظهر عمار لتهدئته، نظر حوله إلى الرجال والهرج الحاصل، وحدّث نفسه أن كل هذا يثبت صحة كلام موريس بالفعل، لكن لم يكن هناك مفر من أن يحدث كل هذا وينكشف سره، "حسنًا حان وقت الخروج من هنا"، فكر دكرور في ذلك قبل أن يترك عمار عاجزًا عن التنفس، وهمَّ لينضم إلى سيجورد وتاندي، فوجدهما قد توقفا عما يفعلان وينظر كلاهما إلى رجل آخر أصلع تمامًا لا يعرفه.

حينها اهتز المكان لما رفع أطلس صوته، حاسمًا الجدل في أمر موته بصافرة عالية غليظة طويلة لم يسمع مثلها من قبل، ولما سكت أطلس بعد مدة صاح دييجو وهو يمسك بذراعي الرجل الأصلع الغريب:

- بوهاردي.. إنه أوين!

تقدم أوين بضع خطوات، وقال بابتسامة سعيدة وهو يلهث:

- إنه أنا يا رفاق!...

ثم اعتلى التعجب وجهه ما أن ألقى نظرة في المكان، فأردف وهو لا يزال يلهث:

- ماذا يحدث هنا؟!!



جاء دكرور وجلس بجانبي قبل أن أنتهي من قراءة الفصـــل الرابع، يقرأ كتابًا هو الآخر، وقلت بعد أن انتهيت:

- يبدو أن أطلس حوتًا طيبًا

أومأ دكرور بامتنان وابتسـم بطيبة دون أن يتكلم وعاد يقرأ كتابه، وعدت أسأل:

- إذًا أنت من تتحدث عنه تلك القصة.. صحيح؟
- نعم... مهلًا!!! ماذا تقصد؟!!

تساءل بعصبية وتعجب شديدين لا يليقان ببساطة السؤال، فقلت:

- لم أقصد شيء! كنت فقط أريد أن أعلم ماذا فعلتَ قبل أن تغرق

وبدا عليه الارتياح وهو يجيب:

- أه حســنًا! أممم.. ليس من المفترض أن أخبرك، تلك هي القواعد التي لا تزال قائمة حتى الآن

في ضــوء النهار ونحن جالســين بهدوء كانت فرصــة لأراه عن قرب، لاحظت ندوبًا تخرج من تحت رداءه ولا يبدو أنها كانت جروحًا هينة، ويتخلل لحيته خطًا فاتحًا خاليًا من الشــعر يخرج منها إلى وجنته، لكن أكثر شيء ملفت للانتباه كان ندبة بعرض رقبته كالسلسلة كأنه قد شُنِق من قبل أو ربما ذُبِح، ومع كل ذلك فلا يزال يعلو محياه طيبة ووداعة.

ثم قررت أن أتظاهر أني لم أرَ شــيئًا، فماضــي ذلك الدكرور ربما يكون أسوأ من الدكرور الآخر الذي عاش في بطن الحوت، وعدت أقول:

- وهؤلاء الرجال أيضًا يبدون طيبين حقًا
- هل تتهكم؟
- بالطبع أتهكم، إنهم مجرمون، أعني إن كانوا حقيقيين

ضحك دكرور وقال:

- بالطبع هم مجرمون، لكن ما يميزهم عن المجرمين أنهم يعرفون ذلك
- ذلك لا يجعلهم صالحين، أو حتى أبطال في رواية
- من قال أنهم صالحون أو أبطال؟! أتدري؟!.. منذ مئتين عام كان الناس ليدعونهم بالقتلة، والآن ربما هم أبطال.. إنه كما ترى مع مرور الزمن يزداد كره البشـــر للبشـــر.. ويزداد حبهم للحيتان، الآن لم يعد البشـــر يكرهون من الكائنات سوى أنفسهم

وأضاف:

- ومنذ... لا أدري ربما ســـبعين عامًا تقريبًا بدأوا يتذكرون أن الحيتان كائنات طيبة ومهددة بالانقراض بسبب البشر الأشرار، وذلك حين لم يعودوا في حاجة لزيوتها
- ألذلك أصبحتَ تأخذهم في رحلات بدلًا من قتلهم
- من قال أني... إنه فقط ليس هناك من سبب لقتل هؤلاء السياح البلهاء

تركت دكرور مع كتابه وأفكاره الغريبة، وعدت إلى ســـام وطلبت منه كلمة مرور شبكة الإنترنت والتي كانت "أطلس1854"، فابتسمت بسخرية وفكرت كم أنهم مهووســون بذلك الاسـم، ومكثت لبقية اليوم أتصــفح هاتفي الذي لم يتصل بالإنترنت لثلاثة أيام، ولم أكمل القراءة إلا في اليوم التالي...

الفصل الخامس

"تحت الماء إلى الأبد"

(1)

كان تاندي وسيجورد شاهرين حرابهم، وبوهاردي وموريس يمسك كلًا منهما بتلابيب الآخر، وأوساي استيقظ لتوّه لكنه بدا كالثمل بين ذراعَي مافي، وعمار يجلس يسند رأسه، وسامبار حالته يرثى لها.

رأى أوين كل ذلك وقال:

- من هذا؟

وأشار إلى دكرور الذي لم يفِق من دهشته بعد، فردّ دييجو الذي لم يفِق من دهشته هو الآخر:

- إنه دكرور.. وافدًا جديدًا

جذب أوين يد دكرور وصافحه بقوة قائلًا:

- أوه! كيف حالك؟.. مرحبًا بك معنا...

ومن دون أن يسمح لدكرور بردّ التحية التفت عنه إلى الرجال وقال:

- والآن يجب أن نجهز جميعنا لأن البحارة من السفينة التي جئتُ على متنها مؤكد أنهم رأوا أطلس وهو يبتلعني ومؤكد أنهم يبحثون عنه

قال كل ذلك بسرعة وبتوتر، والرجال يحدقون فيه مذهولين، فسأله بوهاردي بعد أن ترك موريس:

- هل جئتَ على متن سفينة تحويت؟
- نعم!
- ولم تجِد سفينة أخرى؟
- لا!...

ثم سأله رالف:

- أين شعرك؟
- لا أعلم، والآن...

قاطعه موريس:

- أين ويليام؟
- لقد مات

شـهق بعض الرجال من الصـدمة، وهوى بعضـهم يجلس في مكانه، وقال رالف بتأثر شديد:

- كيف؟
- كان مريضًا ولم نكن قادرين...

قطع أوين كلامه ورفع صوته بعصبية وأردف:

- يا رفاق! أعلم أن الأمر مؤلم، لكن يجب أن نجهز ونصـــعد إلى تلك السـفينة الآن قبل أن تجِد أطلس، أو أسـوأ.. قبل أن تهرب، بعد ذلك سأخبركم بكل شيء.. مفهوم!!!

كان أوين يرفع صـوته أكثر فأكثر مع كل كلمة، حتى صـرخ بآخر كلمة فرنّت في المكان، ثم ردّ عليه أطلس بصـــافراته الثلاث المميزة، وظل الرجال في صمتهم حتى قال بوهاردي بصوت خفيض مُتعَب:

- حسنًا، اجهزوا!

فبدأ الرجال يتحركون بتلكؤ وهم صـامتين، كلٌ بنفسـه لا يسـاعد أحد الآخر، فاستغرق الأمر وقتًا أطول، وبدا أوساي غير قادر على الوقوف بعد أن أفاق، وعمار يترنح كالسكران، وباقي الرجال واجمين لا يتكلمون.

جهز دكرور وربط حربته على ظهره ووضع مسدسه في ردائه، وبعد أن انتهى تمامًا صـفعه عقله بخاطر لم يكن يلاحظه قَبلًا "هل سـتقوم بقتل أحدًا اليوم؟!!"، لم يسـأل نفسـه ذلك السـؤال من قبل، جعله الخاطر يتوقف عمّا يفعل وتسارعت ضربات قلبه فجأة، فبحث عن عمار علَّه يساعده في محنته تلك، لكنه وجده هو من يريد المساعدة، فذهب إليه وسأله:

- هل أنت بخير؟

فأجابه عمار بوَهَن:

- لا، وأنت؟
- لا، ولا يبدو أحدًا هنا بخير

قال أوين والرجال ما زالوا يجهزون:

- الوقت صُبحًا يا رجال.. يجب أن تعلموا أن هؤلاء البحارة مسلحون وخَطِرون، والأسوأ أنهم مستعدون

سأله دكرور محاولًا إخفاء توتره:

- مستعدون لِمَ؟

أجابه أوين باقتضاب:

- لاصطياد حوت!

خرج بوهاردي أولًا من الشق المفتوح والذي لم يُفتح منذ مدة، وتبعه البقية الواحد تلو الآخر، ومعهم دكرور، تاركين سامبار وحده، وجد دكرور نفسه بعيدًا عن السفينة بعض الشيء، فسبح نحوها بهدوء محاولًا إخفاء صوت ضرباته الخرقاء في الماء، وتعلق بالسفينة مع بوهاردي ورالف وأوين وأوساي ودييجو، وبقية الرجال كانوا على جانب السفينة الآخر، وافتقد عمار بجانبه لأول مرة منذ مدة طويلة.

انتظر بوهاردي قليلًا حتى ظنّ أن كل الرجال صاروا على السطح، بعدها بدأ يتسلق جانب السفينة وحده إلى متنها، فاستوقفه أوساي حين رأى قاربًا بعيدًا، وآخر أبعد لكن من جهة أخرى من السفينة، فوضع بوهاردي سبابته على فمه محذرًا من إصدار أي صوت.

وأكمل صعوده حتى وصل إلى حافة السفينة، فتشبث بها وألقى نظرة إلى متنها، ثم أخرج من جيبه حجرًا وألقاه من فوق السفينة إلى الجهة الأخرى منها، بعدها أشار بيده للرجال أن يتبعوه.

وما أن وصل دكرور إلى المتن وجد بوهاردي ممسكًا برجل تستقر حربة في ظهره، ويضعه على الأرض برفق وحنان كأنه يضع رضيعًا في مهده، ثم سحب حربته من جثة الرجل وأشار للرجال أن ينخفضوا حتى لا تراهم القوارب، وأشار إلى أوساي أن يصعد أعلى الصاري، لكن أوساي أبى وجلس في مكانه، ورفع صوته قائلًا:

- لا.. ليس هذه المرة!

وضع دكرور يده على كتف بوهاردي وقال:

- سأصعد أنا!

فنظر إليه كل من سمعه بدهشة وقد تعجب هو نفسه من قراره هذا، فهو لم يكن مبادرًا في حياته هكذا خاصةً إن كان الأمر يتعلق بقتل أحدهم، ثم رأى مافي يصرع رجلًا آخر ففكر "أترى كم أن الأمر سهلًا!"، وأول ما بدأ يتسلق الحبال استوقفه موريس قائلًا:

- ستقابل رجلًا شجاعًا بالأعلى يا دكرور، أقضِ عليه قبل أن يتذكر ذلك

ظل دكرور معلقًا بالحبال يستوعب كلام موريس الغريب، قبل أن يواصل التسلق بثبات وثقة، وهو يحاول أن يتوارى عن القاربين، لكنه لم يعبأ كثيرًا بعد أن وجد قارب آخر وراءه، وفكر أنهم سيحسبوه أحد البحارة إذ لا سبيل لتمييز الوجوه من هذه المسافة على كل حال.

وعلى بعد خطوتين من وصوله قمة الصاري سحب دكرور حربته من وراء ظهره واختلس نظرة إلى أعلى، فرأى رجلًا متكئًا يسند رأسه بيده ولا يتحرك، ويعطيه ظهره.

حينها تردد وتَلِه واستبد به الخوف بسرعة، مما جعله عاجزًا عن الحركة، ثم تمالك نفسه وصعد ما تبقى من مسافة بسرعة، دون أن يصدر أي صوت كما تعود طوال حياته، ووقف خلف الرجل وأمسك حربته بكلتي يديه موجهًا رأسها إلى ظهره، ولا يزال الرجل لا يحرك ساكنًا، فتعجب من سكونه واقترب منه أكثر ليجده يغُط في نومه.

جعله ذلك يتردّد أكثر، وظل دكرور يقف بجانبه يتأمله حتى سمع صوت جلبة آتية من أســفل، فالتفت عن الرجل إلى متن الســفينة ووجد رجلين يتقاتلان لم يتبينهم، لكن أحدهم كان يصــيح ويلوّح بســكينه بعشــوائية، ففكر دكرور "يبدو أن أحدهم تذكر أنه شجاعًا!"

ثم صُــرِفَ عن القتال الجاري بالأســفل، وانشــغل بمتابعة ظله الذي بدأ يتحرك من غير أن يتحرك هو، وأدرك بعد برهة أن ذلك لم يكن ظله هو، بل كان الرجل النائم وقد استيقظ.



التفت دكرور بسرعة ليجد الرجل يرفع مُدْيَته، لكنه تحرك بسرعة قبل أن يهوي بها عليه، فوقف الاثنان يرمقان بعضــهما، تأهب الرجل بمُدْيَته، ودكرور بحربته وصوّبها بتوتر نحو الرجل، وقال:

- ألقِها من يدك ولن تتأذى

قالها دكرور وهو يعلم جيدًا أنه يكذب، إذ أصــبح الأمر الآن إما قاتلًا أو مقتولًا، فضحك الرجل ضحكة تنم عن أسنانه الصفراء وقال:

- ماذا؟.. هل ستقتلني بحربون الحيتان هذا؟

قالها بإنجليزية بالكاد فهمها دكرور، ثم عقد حاجبيه وأحكم قبضــته على مُدْيَته، وأشار بها نحو دكرور وأردف:

- حسنًا ربما هناك بشر يعيشون في المحيط الأطلسي بالفعل، وربما أنا ميت على كل حال، لكن سأحرص على أن تأتي معي...

اندفع الرجل بقوة نحو دكرور رافعًا مُدْيَته وهوى بها عليه، فدفعها دكرور بحربته وكرر الرجل المحاولة عدة مرات وبقوة أكبر، ودكرور يتفادى ضــرباته بصــعوبة في كل مرة لكن لا يهاجم؛، ثم وضــع مديته بين أسنانه وأمسك حربة دكرور وأخذ الاثنان يتصارعان عليها ويدفع كلًا منهما

الآخر بكل قوته، إلى أن ضـــرب الرجل دكرور في ســـاقه فاختلّ اتزانه، ودفعه حتى تدلى نصـفه من السـور الصـغير للصـاري، وأصـبحت الحربة على رقبة دكرور يدفعها الرجل بثقله وكل قوته.

كل ما فكر فيه دكرور وهو على ذلك الحال "كان يجب أن أقتل هذا الوغد قبل أن يتذكر أنه شجاعًا"، ثم أخذت قوته تخور ببطء، وارتخت قبضته على الحربة، وحين بدأ يغيب عن الوعي سمع صوتًا بعيدًا يألفه، لكن بدا أن ذلك الرجل يعرفه جيدًا جدًا، إذ إنه كان صوت نفث حوت.

وقف الرجل مفزوعًا وترك دكرور الذي أخذ يسعل بصعوبة، ودار حول نفسه بعصبية باحثًا عن مصدر الصوت، وما أن أعطى لدكرور ظهره دفعه بكلتي قدميه من أعلى الصـــاري، فســقط الرجل وهو يطلق صـــرخة عالية طويلة، ســكتت فجأة حين ارتطم بســطح الســفينة، ثم نظر دكرور إليه من أعلى فوجده قد انغرس جسـمه في خشـب متن السـفينة الذي انكسـر من إثر السقطة، والرجال ملتفين حوله فنظر أحدهم إلى أعلى وصفَّق بيديه تحيةً.

وجلس دكرور في مكانه مكفهرًا، يمسك برقبته ويحكها ويفكر وهو يسعل "لقد استحق هذا.. نعم، لقد استحق هذا"، وقام حين سمع صوت النفث ثانيًا، ليجده أطلس يســبح بجانب الســفينة، وتعجب حين رآه من مكانٍ عالٍ يناهز السـفينة طولًا بل أطول، فقد بدا كجزيرة ترسـو إليها السـفينة، ورأى أيضـًـا القوارب تقترب، ثم سمع صوتًا من أسفل يقول:

- انزل يا دكرور! نحتاجك هنا

ولما نزل قال له أوساي وهو يصفّق:

- عمل رائع يا صـــديقي! لكننا نتخلص من الموتى بعد أن يموتوا وليس قبلها

فضحك من سمعه، وردّ دكرور:

- ولِمَ لَمْ تصعد أنت أيها الشجاع؟ هذا الوغد كان ليفتك بك على أي حال
- لا حسبك! أنت لم ترَني أقاتل من قبل.. هل تريد أن ترَ الآن.. هه؟

كوّر أوساي قبضته فيما بدا كتهديد لكن دكرور لم يعبأ به، وحذر الرجال من القوارب القريبة فقال أوين:

- لندعهم يصعدون ومن ثمّ نباغتهم

ورَدّ موريس:

- لا، لا يجب أن يصلوا إلى هذه السفينة ما دمنا عليها.. سنصطادهم في قواربهم

ثم سمع دكرور عمار يناديه، فذهب إليه فوجده يشير إلى جثة الرجل الذي ألقاه، وصُعِق دكرور حين وجده لم يصبح جثة بعد، إذ إنه ما زال يتنفس ويصدر أنينًا خافتًا وعينه شاردة في السماء، فقال عمار:

- يجب أن تنهي ما بدأته!

وأعطى دكرور حربته، فوضع رأسها على صدر الرجل ونظر في عينيه طويلًا، ثم غرسها ببطء، حتى سعل الرجل دمًا وزفره من أنفه ثم مالت رأسه قليلًا وسكت أنينه، فأشاح سيجورد عنهم وعلّق على هذا المشهد:

- اللعنة! هذا بالضبط ما يحدث للحيتان

وشعر دكرور بالكآبة والضيق، ليس لأنه قتل رجلًا، بل لأنه لم يشعر بالاستياء حين فعل، فهو لم يشمئز من نفسه أو يكرهها، لكنه شعر بنشوة أعقبها شعورًا بالإحراج والخجل، وهذا أيضًا ليس لأنه قتل رجلًا، بل لأنه ولوهلة؛ أراد أن يفعلها ثانيًا.

ثم قال موريس لدييجو ورالف:

- سنبدأ نحن.. والبقية سيتبعوننا عندما تنفد ذخيرتنا

إذ إنهم الوحيدون الذين لديهم خبرة في هذه الأشياء، فموريس كان جنديًا في الأسطول الفرنسي، ورالف كان جنديًا في الأسطول الإنجليزي، ودييجو كان قرصانًا متمرسًا.

واصطف الرجال وراء سور السفينة، من الناحية التي يتجه منها القوارب وأمامهم الحراب التي جمعوها، كان أولهم رالف وآخرهم دييجو وفي المنتصف كان موريس، وبقوا متأهبين حتى تقترب القوارب أكثر.

ودكرور يجلس بجانب عمار وأوين، فسأله أوين:

- منذ متى وأنت هنا يا دكرور؟

أجاب دكرور بصوت مبحوح ومتحشرج:

- لا أدري.. ربما...

قاطعه عمار وقال لأوين:

- إنها المرة الثانية التي يصعد فيها معنا

رَد أوين:

- أوه! أنت تبلي حسنًا.. أتذكر جيدًا أول مرة، كنت...

سكت أوين فجأة كأنه تذكر شيئًا، ونظر إلى دكرور وعمار باستغراب، وأخذ ينظر إلى الرجال بعصبية كأنه قد أضاع شيئًا ويبحث عنه بينهم، ونهض بعصبية ووقف أمام الرجال ينظر إليهم أكثر، فعنفه موريس:

- ماذا تفعل؟ ارجع مكانك قبل أن يراك أحد..

لكن أوين رفع صوته قائلًا:

- يا رفاق.. أين هنري؟!!

ولم يتلقّ أي إجابة، إلا صوتًا آتيًا من الماء يقول:

- سيد إلوود؟!!

رفع أوين كلتي يديه، عندما وجد أحد البحارة يصوب بندقية نحوه، ثم انخفض بسرعة شديدة، متفاديًا الرصاصة، فقام موريس ورالف ودييجو وأمطروا القاربين بالنيران، وبعد بضع ثواني صاح بوهاردي بالإشارة فقام

وتبعه البقية يطلقون الحراب، فأصـــاب بعضـــها وأخطأ منها الكثير، إذ كان معظم البحارة يقفزون من القوارب ويسبحون مبتعدين.

وما أن كـادوا ينتهون من كل الرجـال في المـاء؛ توقف دكرور قبل أن يرمي بحربة في يده، ولاحظ أنهم قاربين فقط، وفكر في نفســه: "كان هناك ثلاثة.. أين الثالث؟"، لكن كل ما فعله هو التفكير في نفسه، إذ كان صوته قد ذهب مجددًا.

فبحث بعينه في الماء عن القارب الثالث ولم يجده، ولما التفت وجد رجلًا لا يعرفه يصوب مسدسًا نحوهم، ومن وراءه آخرون يتسلقون سور السفينة، فأطلق الرجل طلقة أصـابت رالف في سـاقه أجلسـته في مكانه، فرماه عمار بحربة صـرعته في توّها، والتفت باقي الرجال وصـوبوا حرابهم نحو الجهة الأخرى، وطُعِن كل من حاول التسـلق، وأُمطِر القارب الثالث بالنيران حتى لم يبقَ عليه حي.

ثم قال بوهاردي بعد أن هدأت الأمور:

- هل يرى أحدكم أي شيء يتحرك في الماء؟.. ولا حتى أطلس؟

فصاح مافي من مقدمة السفينة:

- إنه هنا!

فحمل رالف كلًا من دكرور وموريس وأســـرعوا به إلى المـاء، فقفزوا وغاص ثلاثتهم داخل جوف أطلس، وتبعهم الجميع دون أن يلتقطوا أنفاسهم.



(2)

كان صـراخ رالف يعلو في الجوف وموريس يحاول إخراج الرصـاصـة من ســاقه، ثم انتهى ســريعًا فســكت رالف وربما نام في مكانه، فذهب كل

رجل في طرف دون كلام ودون أن يتعرض أحدًا للآخر، كأنهم يهربون من بعضهم، فقط كانوا يحيّون أوين باقتضاب، ثم ذهب بعضهم لينام مثل عمار بالطبع، ومنهم من يستلقي أو يجلس في مكان نومه، وأحدهم كان جالسًا وحده لا يفعل شيئًا.

كان دكرور يجلس مسندًا ظهره إلى الحائط الذي فيه الشق، ينظر إلى يده التي لا تزال ترتجف منذ أن عاد إلى الجوف أو ربما قبل ذلك، لكنه لم يلحظها إلا حينها، حاول أن ينام في مكانه هربًا من يديه الراجفة ومن الرجل النحيل الذي قتله، فتذكره وفكر "يا له من رجل شجاع!"، لكنه سرعان ما تخلى عن فكرة النوم حين أدرك أن لابد له من أن يحلم بذاك الرجل وحينها لن تكون مجرد ذكرى، إذ إن الأحلام لم تعد تتورع عن سرقة الذكريات خاصةً تلك التي يودّ بشدة أن ينساها؛ وتشكّلها كيفما تشاء إلى أقبح وأقسى صورة لها.

فقرر دكرور أن يذهب للرجل الجالس وحده، لعل عينه تنسى حاجته الشديدة للنوم، فوجده أوين وأومأ الاثنان تحيةً، ثم سأل أوين مازحًا:

- كيف كان يومك؟

ضحك دكرور رغمًا عنه ورَد:

- كان أفضل من رالف بالتأكيد
- أه! مسكين رالف.. أعتقد أنه لا يمانع إضافة رصاصة أخرى إلى جسده، فهو كما تعلم تلقى رصاصتين من قبل، لحسن حظه لم تكن أي منها قاتلة
- إذًا كيف كانت رحلتك إلى اليابسة؟ كانوا يعتقدون أنك قد هربت... أنت وويليام
- لا، لم أهرب كما ترى، بالطبع فكرتُ في الهرب مرة أو مرتين، لكن إلى أين؟.. صار البشر أبشع مما كانوا منذ ستين عامًا، كنت أكرههم حينها والآن لم أعد أعرف كيف أعيش معهم، ربما أطلس أكثر إنسانية من معظم البشر

حاول دكرور أن يتذكر ممّن سمع تلك العبارة بالأمس، لكن الأمس بدا وكأنه قد مر عليه دهرًا، ثم قال:

- كيف علم البحارة بأمر أطلس؟

زفر أوين ضحكة متعبة ثم أجاب:

- أطلس أكثر ذكاءً من معظم البشر أيضًا، كان يعلم أني في البحر ما أن ركبت السفينة، لكنه وجدني بعد يومين، فجاء بجانب السفينة وأطلق نفثةً عالية ربما وصلت لأعلى من الصاري، فعرفته على الفور، ووسط ذعر البحارة من حجمه وشكله الغريب، كان قلبي يتقافز من الفرحة حين رأيته، ثم أطلق نفثة أخرى وغاص بعدها، فتركت البحارة لدهشتهم وانسللت من بينهم إلى سور السفينة المقابل فوجدته ينتظرني في الماء، ولم أضيع وقت أكثر، هممت إلى سور السفينة لكي أقفز، وقبل أن أفعل استوقفني أحد البحارة.. لن أنسى النظرة على وجهه وهو يقول: **"**سيد إلوود**!** ماذا تفعل أيها المجنون**"**...

ضحك أوين أكثر ثم أردف:

- نظرت في عينيه مباشرةً ثم قلت له: **"**لا تقلق**!** سأراك لاحقًا**"** ورفعت قبعتي تحيةً ولوَّحت له بيدي مودعًا وقفزت

ضحك دكرور مع أوين وقد أعجب بحكايته، واستراح لأوين نفسه ولم يشمئز من صلعه الكامل الذي يجعله يشبه صغير فأر ولِدَ للتو، وتوقع أنه قريبًا منه في السن، لكن أحجم دكرور عن سؤاله عن شعره أو سنه.

ثم انضم إليهم بوهاردي وربّت على كتف دكرور وهو يقول:

- لقد أبليتَ حسنًا يا دكرور

ولم يرُدّ عليه دكرور سوى بإماءة بسيطة، ربما لأنهما كانا على وشك المشاحنة قبل أن يخرجوا، ثم قال بوهاردي:

- وأنتَ ماذا حدث لشعرك؟

وضع أوين كلتي يديه على صلعته يدلكها وهو يقول:

- لا أعلم.. لقد بدأ يتساقط بعد شهر تقريبًا
- هل حدث نفس الشيء لويليام؟.. أين هو يا أوين؟
- لقد مات ويليام قبلها، لا أعلم.. ربما كان مريضًـا وهو بداخل الجوف، أو مَرِضَ بعد أن خرجنا لكنه مات متأثرًا بمرضه
- ولِمَ لَمْ تعودا على الفور؟

هز أوين رأسه في أسف وغضب وأجاب:

- لم نقدر.. فقد كنا في السجن على كل حال

رأى الدهشة والتعجب على وجه بوهاردي ودكرور، فقال:

- لماذا بظنك استغرقت شهرين حتى أعود؟

سأله بوهاردي:

- فيمَ دخلت السجن؟
- لا مهلًا! أريد أن أعرف الآن أين هنري؟
- لقد مات...

قالها بوهاردي دون تردد وبلا مبالاة، كأنه كان مسـتعدًا لها، فأغلق أوين عينيه وهز رأسه في تأثر، وبوهاردي يقول:

- ...حاول الهرب على متن قارب فقتله أطلس
- ماذا؟!! لا، لا أصدق هذا!!.. لقد كان... كيف يقتله؟!
- لقد صُدِمنا مثلك تمامًا

بدا على أوين الحيرة والدهشة وربما أراد أن يبكي، فسأل دكرور:

- أتَعْجَب من أنه قتله ولا تَعْجَب كيف أو لماذا قد هرب أصلًا؟

ردّ أوين والدهشة لا تزال على وجهه:

- يمكنني أن أتفهم لماذا يهرب أي أحد.. خاصـــةً هنري بعد ما حدث، لكن أطلس... إنـه لا يرتكب القتـل أبدًا، ربمـا أغرق قـاربًـا أو إثنين بذيله، لكن لم تصل الأمور إلى القتل قطّ، ويقتل من؟ أحد...
- لكن أليس هذا ما يحدث عقابًا لمن يهرب؟

ردّ بوهاردي:

- إلا أنـه لم يحـاول أحدًا الهرب من قبـل، أتعلم يـا دكرور.. أيًّا كـان مـا فعلنا؛ فإن وجودنا هنا أساسًا يعد عقابًا على ما فعلنا، فذلك الجوف هو الســجن وأطلس هو الســجّان، إلا أنه ســجّان طيّب، كان يزورنا في أحلامنا، يتســامر معنا، ويرينا العجائب والأهوال التي رآها، ثم بعدها أصـــبح يأخذنا في جولات على ظهره إلى أغرب الأماكن في العالم، بعدها تطور الأمر إلى أننا كنا نسـاعده في إنقاذ الحيتان الشـاردة على الشواطئ، ثم صار يسمح لنا بالصعود إلى متن السفن لسرقتها، وسمح لنا بالذهاب إلى اليابسـة للبحث عن علاج لسامبار، وفي مرة منذ زمن طويل رأيناه في المنام وقد اقتربت سـفينة كثيرًا من قتله دون أن يدافع عن نفسه، وعلمنا بعدها أنه لا يقتل البشر، وهكذا إذًا أخذنا على عاتقنا أمر ســـفن الحيتـان، فكنـا نخرقهـا لكي تغرق لكن هذ لم يكن مجديًـا وبحارتها لا يزالون عليها، حتى جاء يوم وصـــعدنا لنجد قاربًا يطارد حوتًا، ربما أرادنا أطلس أن نشــاهد فحســب، لكن تطور الأمر إلى أن أغرقنا القارب وقضـينا على كل من عليه، ثم عدنا إلى السـفينة وفعلنا المثل مع باقي الطاقم، ثم أغرقناها وهذه المرة غرقت بالفعل، لم نشعر بمدى بشـاعة ما فعلنا بقدر ما شـعرنا أننا أخيرًا قد صـنعنا فارقًا، حتى ولو بسيطًا
- إذًا نحن نحميه، أم نحمي الحيتان أم ماذا؟
- إنه لا يحتاج للحماية.. إنه قادر تمامًا على قلب سفينة بطرف ذيله، كما أنه بإمكانه ببســـاطة أن يتجنب ســـفن التحويت على عكس الحيتان العـاديـة الغبيـة، مـا نفعلـه أقرب إلى الانتقـام.. للحيتـان أولًا ولنـا ثـانيًـا، جميعنا هنا نمقت البشر لسبب أو لآخر، صحيح؟

نظر دكرور إلى أوين الجالس أمامه ولا يتكلم فقط يومئ من حين لآخر، ثم تذكر حياته كلها ورَد:

- لن أعارضك في هذا.. لكن ما الفارق الذي يحدثه ذلك؟ أعني الانتقام

أراد بوهاردي أن يجيب، لكن أوين هو من فعل:

- لقد بدأ الناس يلاحظون اختفاء سفن التحويت في المحيط الأطلسي والهادي، وهناك إشاعات يتداولها البحارة فيما بينهم حول تلك الاختفاءات، ولن تصدقوا ماذا يقولون.. بعضهم يلقي اللوم على القراصنة، وبعضهم يدّعي أن حيتانًا ضخمة هي من تحطم السفن، وآخرون يعتقدون أن بشرًا يسكنون المحيط هم من يغرقون السفن، فبدأ البحارة يخافون وهناك منهم من اعتزل مهنة التحويت برُمَّتِها، صدقني يا هاردي يصبحون أخطر مع مرور كل يوم، ما رأيناه اليوم كان عينة بسيطة
- أترى يا دكرور! ربما هذا هو الفارق الذي صنعنا، ماذا أيضًا؟
- أه! لقد ذهبنا إلى المكان الخطأ.. لم تعد صناعة التحويت مزدهرة في إنجلترا أو حتى في العالم؛ بقدر ما أصبحت في أمريكا، لقد أصبحت أمريكا رائدة تلك الصناعة، يقولون أن موانئ مثل نانتوكيت ونيوبدفورد هما عواصم التحويت في العالم الآن
- عواصم التحويت!.. أتعلم أين نحن الآن؟.. انتظر

قام بوهاردي وذهب إلى حيث يجلس وينام عادةً، ثم عاد وقد أحضر أوراقًا بالية منكمشة، كأنها ابتلت ثم تركت لتجف، فبسطها أمامه واتضح أنها خريطة، فسأل بوهاردي:

- وأين عاصمة التحويت تلك؟

أشار أوين بإصبعه في الخريطة وقال:

- نيوبدفورد ونانتوكيت.. في مكانٍ ما هنا تقريبًا
- حسنًا إن ذلك...

ســـكت بوهاردي حين وجد أن المكان قد أظلم كثيرًا، وضـــرب النعاس دكرور على الفور، وأردف بوهاردي وهو يتثاءب:

- موريس أدرى بتلك الأشياء مني.. سنتحدث إليه غدًا، أو ربما... أه لا يهم، نحن حقًا سعداء بعودتك يا أوين.. تصبح على خير يا دكرور

نهض دكرور هو الآخر وهو يترنح من شدة النوم والتعب، وقال لأوين:

- ستحكي لي غدًا لماذا دخلت السجن.. لا تنسَ!
- آه لا تشــغل بالك!، اتهمونا بســرقة ما معنا من مال.. والذي كان أكثر من اللازم بشكل يثير الاستغراب، وأنفقناه ببذخ وبغباء

قال أوين ذلك بابتســامة آســية ســاخرة، فابتســم له دكرور وتركه وذهب يبحث عن مكان ينام فيه بحيث لا يوجد أحد ينام مقابله على السـقف، فهو لا يستريح أبدًا وهو يشعر أن أحدًا سوف يسقط عليه.

وبمجرد أن اسـتلقى ووضـع رأسـه على كفه وأسـبل جفونه؛ حتى نام، وكان آخر ما فكر فيه "ربما أنا هنا لأعاقَب، لكن هل لي من توبة؟".



(3)

كان يقف أعلى الصــاري كأنه يطير، وكان متن السـفينة أسـفله بعيدة كأنه يقف على عشرة صواري فوق بعضهم، كان يترقب وينصت، وينتظر سماع شـيء لكن لم يكن يتذكر ما هو حتى سمعه، فكان صـوت نفث حوت، تزامنًا مع صوت الأغنية التي سمعها تقول:

- سمعت أنك تريد أن تتوب

قام بسـرعة يشـخص ببصـره إلى الأفق، يتلفت بحثًا عن مصـدر الصـوت، وما أن فعل حتى دفعه شيء من وراءه ليسقط من أعلى الصاري.

وصل إلى متن السفينة في لمح البصر، توقع أن تتهشم عظامه إلى مائة قطعة، لكنه هبط كأنه ينزل من على فراشه، وعلى الرغم من ذلك فقد تسبب في كسر خشب السفينة من تحته، فابتعد قبل أن يسقط إلى أسفل، وكأن شيئًا لم يكن، وقال متسائلًا:

- وحتى إن كنتُ أريد ذلك.. هل تعرف كيف؟
- وحتى إن كنت أعرف كيف.. فلن يجدي شيئًا إن أخبرتك، لكني أعرف أول خطوة للتوبة، إنك إن أردت أن تتوب فعليك أن تندم أولًا، لكن هذا أيضًا لن يجدي إن لم تكن أنت نادمًا أصلًا
- أنا بالفعل لستُ نادمًا، ولا أذكر أني كنت كذلك، ولا أظن أني أريد هذا
- إذًا مرحبًا بكَ معنا إلى الأبد يا عزيزي دكرور
- لا أمانع ذلك يا أطلس

قالها دكرور وهو يبتسم ابتسامة راضية ويشعر بالسعادة والاطمئنان وأن الأمور ستكون على ما يرام إلى الأبد، ثم عاد يقول:

- ولكن إن ندمتُ وتبتُ وكل ذلك.. فهل ستدعني أخرج من جوفك؟
- يؤسفني فراقكَ يا دكرور فأنت أحد رجالي الآن، لكن نعم
- لكن هل حقًا أني قد أخطأت لدرجة أن أعاقب مثل ذلك العقاب؟
- بحقكَ يا دكرور! فلنتفق على ألا نسأل أسئلة نعلم إجابتها مسبقًا...

ضحك دكرور وشعر بقليل من الخجل من سؤاله، ثم أردف أطلس:

- بغض النظر عن أن ما فعلتَ يستحق أكثر من ذلك؛ إلا أنه ليس السبب في أنك تعاقب أصلًا، فلا يهم حقًا ما قد أجرمته، هناك من يعاقَبون نفس العقاب لأسباب أقل بكثير، لكنه الحمق الذي يجعلك تظن أنك ستهرب من العقاب إلى البحر، وأن السفينة ستأخذكَ بعيدًا عما فعلت، إنها غفلتك عن أنك ستلقى تبعات أفعالك أينما ذهبتَ
- ماذا عن الآخرين؟.. هل فعلوا ما يستحق هذا العقاب؟ أم أكثر أم أقل؟

- ربما أنا لم يدخل جوفي أحد قد فعل شـــيئًا هينًا من قبل، جميعكم فعلتم ما لن يكفّر عنه ألف عام في جوف حوت، كأني دائمًا ما أجد أشـــد البشر إجرامًا وأشنعهم إثمًا
- وكيف تعرفنا إذًا؟ كيف تجدنا من الأساس؟
- ليســـوا كثيرين من يلجؤون إلى البحر، أو حتى إلى الغرق؛ هربًا من شـيء ما، وهؤلاء ما أن يضـعوا قدمًا في الماء حتى يسـببون صـداعًا يهشـم رأس كل حوت لديه القدرة على الاحتفاظ بالبشـر بداخل جوفه، وُهِبنا تلك القدرة مع قدرة اســتشــعار بل وشـــم رائحة هذا النوع من البشر، وحتى العواصف تستشعر ذلك فتلاحقهم

ومن دون أن يمعن دكرور في التفكير في كلام أطلس؛ شـــعر فجـأة أن هناك شـيئًا على غير ما يرام، وعلم أن ذلك الحلم صـار كابوسًـا بطريقةٍ ما، ثم سـمع شـهيقًا كالأنين الخافت، فكان الرجل الذي قتله يقف مكان سـقوطه الغائر في سـطح السـفينة، ويحني ظهره إلى الأمام ويتحرك ببطء وهو يجر ساقه ورائه ويمسك بمُدْية.

تسمّر دكرور في مكانه وشعر بالرعب في أعماق قلبه وفي كل شيء من حوله، كأن لم يكن في العالم سـوى ذلك الرجل الذي يقترب منه عازمًا على انتزاع أحشــــاءه، أراد أن يهرب، أو يجري، أو يمشــــي، أو حتى يقفز في الماء، لكن قدماه أبت إلا الوقوف والثبات بشجاعة مبتذلة، أراد أن يتكلم، أن ينطق الشـــهادة، أن يطلب النجدة، لكن كان الأمر كأن رئتيه قد فرغتا تمامًا من الهواء.

وأخيرًا وبعد مجهود لا يوصف تذكر شيئًا واحدًا فقال:

- أطلس!

قالها كأنه عاد أبكمًا مرة أخرى ويجاهد لإخراج الكلمة، ثم جاءه الرد من صوتٍ بعيد يكاد لا يُسمع:

- ليس ذلك من صنعي يا دكرور، إنه حلمك أنتَ، فقط تماسك

وظل دكرور واقفًا والرجل يقترب ببطء، وصوت شهيقه يعلو ولا ينقطع، وهو يلوّح بمُديَته في الهواء أمامه بحركات خرقاء، وكاد بعضها أن يصيب دكرور، حتى قال أطلس:

- حسنًا يا دكرور! ربما لدي حل لمحنتك تلك، لكن لا أعتقد أنه سيعجبك

ثم بعد أن استعاد دكرور جزءًا من سيطرته على نفسه ربما أراد أن يشكر أطلس، لكنه لم يستَعِد صوته بعد، فاكتفى بأن فكر "أي شيء يا أطلس!"، فردّ أطلس:

- اقفز في الماء الآن!

انحل التيبس في جسده فامتثل دكرور للأمر على الفور بأن هرع إلى سور السفينة، فأسرعت حركة الرجل فجأة وهرع يركض وراءه، وقبل أن يقترب كثيرًا من أن يطعنه بمديته كان دكرور على حافة السفينة وألقى بنفسه منها، لكنه لم يسقط في الماء، بل سقط في حفرة لها أسنان.



لم يستيقظ، ولم يظل نائمًا، ولم يكن يحلم، ولم يكن يتخيل، لقد اختبر كل ذلك من قبل ويعلمه جيدًا، فكر أنه ربما يكون قد مات، لكن حتى الموت قد اختبره من قبل ولم يكن كذلك، إنه الآن يشعر بالحياة كما لم يفعل من قبل.

شعر بالحياة في كل ما يسبح في أعماق البحر أسفله، كما شعر بها في كل ما يطفو على السطح من فوقه، شعر بالكائنات الضخمة ذات العقل الصغير في ظُلمات أعماق البحر، كما شعر بالكائنات الصغيرة ذات العقل الكبير التي تمتطي اليابسة من فوقه، وتصيبه بألم في رأسه، شعر بالأمان لفكرة المكوث في غيابة الأعماق إلى الأبد، كما شعر بعدم الأمان من مجرد فكرة الصعود للسطح ليتنفس.

سمع كل شيء تحت الماء حتى الماء نفسه، ولم ير سوى أمه، شعر بأمه أكثر من أي شـــيء، ولم يخطر على باله أنها قد ماتت، إنها فقط موجودة، وهو ممتن لذلك أشـد الامتنان، إذ كان يرضـع منها بنهم كأنه يمتص الروح منها، وأيضًا لم يخطر على باله أن عمره ستٌ وعشرون سنة.

وظل على حاله لا يعبأ بشيء، يستمتع بدفء المياه في الظهيرة، ويستمع لغناء أمه الذي يعشقه، ويستمتع بمذاق لبنها في فمه، ويستمتع بالشبع المثير للغثيان في معدته، حتى قطع كل ذلك صوت ضرب على سطح الماء، وظن أنها الدلافين، هو يحب الدلافين ويحب اللعب معها، فأسرع إليها ليجدها تلك الكائنات التي تمتطي اليابســـة، فنهته أمه وظلت ثابتة في مكانها، لأنها تعلم أنها عاجلًا أو آجلًا ستصعد للتنفس، إذ لم تكن تحسب حساب المكوث طويلًا تحت الماء، وكانت لا تخفي عنه خوفها الشـــديد، والذي قد تعوده منها، فهو لم يعهدها إلا خائفة.

اقتربت الكائنات كثيرًا، وصعدت أمه مرة أخرى مضطرةً للتنفس فتبعها، لكن ليس لكي يتنفس هو الآخر، إنه يريد أن يرى تلك الكائنات عن قرب، يريد أن يلمســها، ويعرف حقيقتها، تلك الكائنات الصــغيرة التي تثير الذعر في كل ما يعيش تحت الماء.

استغل انشـغال أمه بمراقبة أحد المراكب وانسـلّ هو من وراءها ليقترب من المركب الآخر الأبعد، فشخَص ببصره من فوق الماء، فكان أحدهم يبرز عن المركب، كان أصـغر مما اعتقد وبدا شكله جميلًا وليس مخيفًا أبدًا، لكن لا زال فيه تلك الهيبة التي لدى الوحوش.

سمع صوت أمه تناديه فالتفت إليها بسرعة وأراد أن يعود، لكن استوقفه وخزًا مؤلمًا في ذيله، ولما سبح شعر كأنه يجر عبئًا ثقيلًا وراءه، فوجد شيئًا طويلًا يخترق ذيله ويتصل بالمركب، وذعر حين رأى دمًا حوله.

لا يعلم ماذا يفعل الآن فذيله يؤلمه بشدة، لدرجة أنه لا يقدر على السباحة أو حتى الحركة، ودون أن يراها وهي آتية وجد أمه تقفز إلى خارج الماء

نحو المركب، لكنها أخطأته وقفزت على الشـــيء الذي يخترق ذيله، فانتُزِعَ من ذيله انتزاعًا، مما تسبب له في ألم لا يوصف.

بقيَ في مكانه من شـــدة الألم، وشـــاهد أمه وهي ترفع ذيلها خارج الماء وتهوي به على المركب لتهشمه إلى مائة قطعة، قبل أن يأتي مركبين آخرين يرمونها بنفس الشـــيء الذي كان عالقًا في ذيله، فأخذت تتلوى فقلبت أحد القـاربين، قبـل أن تغوص في المـاء تجر وراءهـا خطًـا أحمر يخرج من ظهرها من مكان اختراق الشيء الرفيع الطويل.

فأخذ يســبقها وهي تغوص إلى المياه الهادئة، وشـــعر بقليل من الارتياح حين ظن لوهلة أن الأمر قد انتهى وأنهم في أمان، فالتفت وراءه ليجدها قد أبطأت من سرعتها حتى توقفت تمامًا.

رآها متعبة وتريد أن تنام، رآها تختنق وتريد أن تتنفس، لا يريدها أن تنام أو تصعد لتتنفس، فقط يريدها أن تبقى معه تحت الماء إلى الأبد، فقط يريدها ألا تتوقف عن الغناء، لكنها كانت تغني الأغنية التي لم يرِد أن يســمعها في حياته، أغنية الوداع.

وضـعت مقدمة رأسـها على مقدمة رأسـه، وتعجب من أنها لم تعد خائفة، فقط كانت متعبة، علِم منها أنه مميز وأنه قوي وأن كل شـــيء على ما يرام، وأخبرته ألا يتبعها، ثم تركته وأخذت تســـبح بوهن و ببطء نحو الســـطح، وحينها بدأ هو يغني أغنية أخرى، أغنية البكاء.

ولما لم يكن هناك دموع، أو نحيب، أو ألم في الحلق؛ كان بكاؤه في قلبه فقط، مما جعل دكرور ينفجر ويطير عن هذا العالم، ويعود إلى عالم الأحلام الذي يألفه، وهو لا يزال يبكي في قلبه، وبما أن قلوب البشـــر لا تحتمل هذا النوع من البكـاء فقد أطلق العنـان لعيونـه لتنهمر دموعـه، وأطلق العنـان لصوته لتعلو صرخاته، وأول ما عاد سمع أطلس يقول:

- كم كان ذلك مثيرًا للاهتمام! لم أكن أعلم أن ذلك سينجح.. شيء غريب حقًا!

ومن دون أن يهدأ ردّ دكرور بصوت عالٍ وهو ينتحب:

- لماذا... ما الذي فعلتَ؟.. ليتكَ تركته يقتلني...
- تلك الذكرى كانت لي

وربما كانت تلك محاولة من أطلس لتهدئته، لكنه زاد الطين بلة حين قال:

- أتعلم يا دكرور.. ليتهم كانوا يصطادون الحيتان لأكل لحمها كما كانوا يفعلون في الأزمنة السابقة، لكان ذلك أكرم لنا ولهم، لكن قل لي.. ما ذنب سمكة أنها تشاركهم التنفس من الهواء وليس الماء كباقي السمك، ما ذنب سمكة أن تحت جلدها شحمًا ينير حياتهم المظلمة، أو لها زيتًا يجعل رائحتهم النتنة أفضل

سكت أطلس برهة وعاد يكمل:

- الأوغاد الأغبياء! لقد اتخذونا آلهةً، ثم قتلوا آلهتهم تعبّدًا، بعدها أصبحنا شياطين لدفاعنا عن أنفسنا وأطفالنا...
- أنا لم أكن بحاجة لأرى كم هم شياطين ووحوش
- معذرةً يا عزيزي دكرور.. كنت أعتقد أنك نسيت من هم الشياطين، حين سمعتك تسأل الرجال عن سبب فعلهم ما يفعلون..
- ولِمَ لا تفعله أنت؟
- إن وظيفتنا هي عقاب البشر بحبسهم داخل أجوافنا وليس بقتلهم.. أنا لا أقتل أبدًا، وإن كانت حياتي تتوقف على ذلك، الرجال عرضوا عليّ الاهتمام بذلك الأمر، وأنا لا يمكنني التعبير عن مدى امتناني لهم ولما يفعلون، وإن كنت لا تريد المساعدة فلك أن تبقى داخل الجوف ولن تخرج، أو تبحث عن توبتكَ وتظفر بحريتكَ

حينها ردّ دكرور وقد هدأ بكاؤه، واستعر مكانه غضبًا عارمًا:

- لا.. بل سأغرق كل سفينة بيدي، سأجعلهم يدفعون ثمن كل قطرة زيت، وكل قطعة لحم انتزعوها من الحيتان، سأجعلهم يدفعون ثمن دمويتهم وتوحشهم وغطرستهم...

اســـتيقظ دكرور في عالم الواقع قبل أن يكمل كلامه، وشـــعر بالخجل والعجب من نفســـه ومما قال، وتوقع أن يزول أثر ذلك الحلم فور أن يعود إلى النوم مرة أخرى، لكنه لم يفعل.



انتهيت من قراءة الفصـــل الخامس وقد بدأت أشـــعر بالملل من الرواية بأكملها، وأفقد الشـــغف لإكمالها، لا أنكر أن عودة أوين كانت شـــيئًا مثيرًا، لكن كنت أتوقع أن يفعل أكثر من ذلك أو يحدث شـــيئًا جديدًا، إلا إنه بدا أنه عاد من نزهة، كما أن عنوان الفصـــل التالي ليس مشـــجعًا أبدًا، فتوقفت عن القراءة ليومين من دون نيّة لإكمالها.

وفي اليوم التالي كان دكرور جالسًـــا في صـــمت كعادته، فباغتّه بطلب لا أعلم رد فعله عندما يسمعه، فقلت بتردّد:

- دكرور!

غمغم بأنه يسمعني دون أن يلتفت إليّ، فقلت بعد مدة:

- أيمكنني أن أرى أطلس؟

وفكرت "أو حتى هيكله العظمي"، فقال دكرور بعد أن رفع رأســـه دون أن ينظر إليّ:

- سأجعلك تراه عندما تنتهي من الرواية، وربما قبل ذلك

ولم أرِد أن ألح في الأمر أكثر، لكن قلت:

- كنتُ أريد أن أعرف أطلس أكثر
- لماذا؟
- لا أعلم، أنتَ فقط لم تذكره بشـكل كافٍ في الرواية، مقارنةً بقصــتكَ.. أعني قصة دكرور

- أصـــلًا تلك الرواية ما هي إلا أجزاء من ألفي صـــفحة من مذكرات دكرور، وإذ إنها رواية فقد رتبتها وحذفت منها ما ليس له دور في الحبكة والبناء الدرامي وبناء الشـخصـيات وما إلى ذلك، ثم أضـفت قصة أطلس وفصلين آخرَين؛ فقط لكي تكتمل الحبكة
- مهلًا! هل كان دكرور يكتب مذكراته وهو في الجوف؟
- لا، لقد كتبها... لقد كتبتها بعد أن خرجت

وأضاف:

- ثم إن فعلًا حياة الحيوانات أكثر مللًا من البشـر، ولطالما كان البشـر أكثر تعقيدًا وأكثر إثارة للاهتمام، أتعلم ما الذي وجدته يميز البشـر فعلًا عن الحيوانات؟ ليس العقل، فمعظم الكائنات لها عقل ومعظمهم يُعملون عقولهم بطريقة أو بأخرى، كما أن الحيوانات أيضًا تشـعر، فهي تفرح وتحزن وتغضـب وتحب وتكره، لكنهم لا يعرفون أيًّا من ذلك، فالبشر وحدهم من أجادوا إعمال عقولهم وقلوبهم ببراعة، وحدهم البشـر من لديهم تلك القدرة الفذة على فهم أفكارهم ومشـاعرهم وتسميتها وتعريفها ووصفها ووضعها في الكلمات، وذلك ما مكنهم من استحضارها بل وتمريرها إلى من حولهم إن أرادوا، وذلك ما يجعلهم أعقد كثيرًا من الحيوانات من جميع النواحي...

قطع دكرور كلامه عندما جاء سام وقال:

- سأذهب إلى المدينة يا إدي.. هل تريد شيئًا؟
- لا، شكرًا يا سام!

وما كاد سام أن يخرج حتى عاد برأسه فقط وقال لي من وراء الجدار:

- إدي!
- نعم!
- أنت تعلم من أنا.. صحيح؟
- ماذا تقصد؟

- أعني أنت تعلم أني... سامبار؟
- ماذا!!!!!

قلتها بانفعال ودهشة وأخذت أضحك بهستيرية مما أضحك دكرور وسام، فقال له سام:

- كنت أظن أنك أخبرته!

قال دكرور وهو لا يزال يضحك:

- كنت أظن أنك من أخبرته، أو أنه علم وحده

ثم قلتُ بعد أن هدأت، وبعد أن تذكرت أنه من المفترض ألا أصدقهم:

- أنتم تمزحون! أعتقد أنكم تماديتم كثيرًا في ذلك الجنون يا الرفاق

رَد سام:

- صدّق أو لا تصدّق أيها الأحمق! أنا ذاهب...

قالها سام وخرج، فعدت إلى دكرور وأشرت إلى شيء ما وقلت بدهشة:

- سامبار!!! كيف كنت سأعلم وحدي؟
- لا أعلم.. ربما لم أصِفه في الرواية بشكل كافٍ هو الآخر

استعدت في عقلي شكل سامبار الذي تخيلته من الرواية، فلم أستطع التفكير سوى في سام الذي أعرفه، وقد زاد إعجابي بالقصة، بل وحتى بدأت أصدقها، فحتى إن لم تكن حقيقية فهي تكاد أن تكون كذلك، ثم قلت:

- مؤكد أنه ليس أنتَ وسامبار فقط من تعيشون هنا من سكان أطلس، أخبرني من أيضًا
- لا!
- أرجوكَ!
- لا، ثم إني لاحظت أنك لم تعد تقرأ

تركته متذمرًا وأخذت الكتاب وصعدت به لأكمل القراءة...

الفصل السادس

"أربَع سنوات كأربَع ساعات"

(1)

التقم أطلس أوين، أحد رجاله الغائبين الذي لطالما أحَبّه وقد اشتاق إليه، وحزن بشدة على ويليام عندما علم أنه مات مريضًا، وشعر بالفقد أكثر مما كان يشعر عندما كان يظن أنهم هربا.

ثم أكمل حياته المملة الوحيدة هائمًا في المحيطات، وبين الحين والآخر يُخرِج رجاله للصيد غير عابئًا وغير مدركًا أنه في أسبوع واحد أخرجهم مرتين، وظل على هذا الحال حتى وجد نفسه قد عاد إلى بحر الشمال المتجمد، حيث كان يبحث عن الحوت الذي أخبره الأوركا أنه ربما يعلم شيئًا عن الحيتان الضائعة من نوعه.

وظل يجوب ذلك البحر وهو يغني لينادي على أي حوت ذو جوف يفهم غناءه، لكن ما فعل غناؤه سوى أن جعل كل الحيتان تفِر منه.

وكما هي عادته لكسر الملل أخرج رجاله إلى سفينة كانت قد اصطادت حوتًا وجنّبته إليها، فخرج الرجال وحرص أطلس على ألا يمسّوا المياه الباردة حتى لا يتجمدوا، وعندما شعر بأن القتال قد بدأ ظهر على السطح ونفث بجانب السفينة كأنه يشمت، بعدها سمع صوت من تحت الماء:

- هل تتعمد أن تتنفس بجانب البشر؟!

لم يُجِب أطلس على الفور ليتبين السائل، فكان حوت صائب كما يسميه البشر، لطالما كان ذلك النوع بغيض الخلقة، وذلك الحوت مع حجمه الضخم كان أبغضهم.

وربما اتضح له شكل أطلس فأردف:

- ماذا تفعل هنا؟

كان آخر ما يريده أطلس هو أن يعرف حوت آخر بما يفعل هو ورجاله بسفن البشر، فإذا انتشر الأمر بين الحيتان ذوي الأجواف فلربما يقتلونه، كما أن أطلس يرى رجلًا واحدًا في جوف ذلك الحوت، فعلم أنه من هؤلاء

المتزمّتين الذين لا يرحمون من في جوفهم ويكتفون بواحد، وعلم أن من حسن حظه أن ذلك الحوت أيضًا يرى واحد فقط في جوفه وهو سامبار الذي لا يَخرج أبدًا، فالتزم أطلس الحذر فيما يقول وأجاب:

- لا أفعل شيء
- أقصد كيف جئت إلى هنا؟
- أنا أعيش في هذا المحيط
- أنتَ متأكد؟ ولِمَ لَمْ أرَك هنا من قبل؟
- وهل رأيت كل من يعيش هنا؟

شعر أطلس بأنه تكلم بشيء خاطئ، إذ يبدو كلامه مثل البشر أكثر من الحيتان، فأضاف:

- أقصد كيف لم ترَني هنا من قبل؟
- أنا فقط لم أرَ حوتًا من فصيلتك هنا من قبل
- ماذا؟ هل رأيتهم؟ أخبرني أين هم.. أليسوا في المحيط الأطلسي؟!
- بالفعل، لقد رأيتهم... مهلًا! ماذا قلتَ؟ كيف تسمي الأشياء مثل البشر؟
- نعم، أنا لا أسميها ولكن أعرف أسماءها.. فقط أخبرني أين رأيت الحيتان من فصيلتي
- لا انتظر.. هل تكلِّم مَن في جوفك؟
- أكلم الرجال في جوفي طوال الوقت، والآن...
- رجال؟!! هل يعيش في جوفك رجال؟ ولمَ لا أرى سوى واحد

وعلم أطلس أنه قال شيئًا خاطئًا آخر، ثم أردف الحوت:

- أنا أعرفكَ، وأعرف أنك من هؤلاء الأغبياء الذين لا يكفّون عن ابتلاع البشر
- وأنتَ من هؤلاء عديمي الرحمة الذين يكتفون بواحد فقط
- رحمة؟ ولم يجب أن أرحمهم؟ هذا العقاب هو الرحمة فهم يستحقون أكثر من ذلك، لقتلتُ ذلك الغبي في جوفي بنفسي إن كان بوسعي

- ماذا عنكَ؟ هل تستحق أنتَ القتل؟ صدقني ليس الذين في أجوافنا مَن يستحقون القتل، بل هؤلاء المغتصبين الذين لا يكفّون عن قتلنا، والذين أبادوا بني جنسي وسيفعلون المثل مع الحيتان الغبية أمثالك، أليس ذلك الحوت المقطوع الرأس من فصيلتك؟ أخبرني كم قتلوا منهم؟
- ليس هؤلاء مشكلتنا.. ليس هؤلاء مَن كُلِّفنا بعقابهم، ربما لأن قتلهم لنا ليس خطيئة كما تظن، فليقتلوا الحيتان الغبية مثلي ماذا ستفعل حيال ذلك؟
- ليس لديك فكرة عمّا أفعل حيال ذلك

سئم أطلس من ذلك الحوت وكرهه كما لم يفعل مع حوت ذو جوف آخر، فلم يعبأ بأن يتحدث فيما لا ينبغي له، فقال:

- أتدري.. لم أعد أحتاج مساعدتك، سأنتظر رجالي هنا حتى يعودون
- يعودون من أين؟ ولم ليسوا في جوفك؟
- ألم تكن تعلم؟ إنهم على تلك السفينة لإغراقها وقتل مَن عليها

سكت الحوت وسكنت حركته وبدا مبهوتًا، إلى أن قال:

- سمعتُ بالأمر من قبل لكن لم أصدقه، أنتَ...
- أنا أعمل بما لدي
- أنتَ ملعون!
- لكنني لستُ جبانًا مثلك
- أنتَ لا يجب أن تعيش، كما لا يجب أن يعيش بشر في جوفك...

قالها وهو يندفع بقوة نحو أطلس فارتطم به بعنف جعله يتراجع، ثم تراجع بإرادته لكي يستعيد اتزانه ويَرُد الضربة، فسبح كلاهما فاغري الأفواه تجاه بعضهما، لكن فم الحوت الصائب كان أكبر كثيرًا فأطبقه على فك أطلس وألحق به ضررًا، ثم عادا يتراجعان استعدادًا لجولة أخرى، لكن أطلس باغته بأن اندفع إليه وضربه في جسده وجعله يرتطم بالسفينة، ثم أخذا القتال إلى السطح فاخترقه أطلس أولًا وتبعه الحوت محاولًا أن يمسك ذيله بأسنانه، ثم

عاد الحوت يخترق السطح وينقض على أطلس، لكنه فرَّ قبل لحظة من أن يرتطم به، وعاد القتال إلى تحت السطح مرة أخرى.

وقبل أن يندفعا شعر أطلس برجاله في المياه على قوارب صيد الحيتان فعلم ماذا يفعلون، فأراد أن يستدرج الحوت إلى الأعماق لكنه كان قد لاحظهم هو الآخر، فسبح ناحيتهم بسرعة وتبعه أطلس الذي كان أسرع بكثير حتى أدركه، وقبل أن يخرج من السطح عض على جزء يسير من ذيله ولم يضرّه ذلك وأفلت من بين أسنانه، ثم عاد يتوجه إلى القوارب عازمًا على إسقاطها، وتلك المرة لم يتمكن أطلس من اللحاق به أو إيقافه.



منذ أن أسيقظ دكرور آخر مرة رأى أطلس في منامه؛ وقد تغير شيئًا في داخله، يشعر بالحزن والمقت والسخط من كل شيء وطوال الوقت، ينتظر الإشارة للخروج إلى السطح بفارغ الصبر، بالطبع ليس لكي يتنفس هواء البحر، أو الاستمتاع بالشمس والشروق، لكنه كان يصعد ليُشبع شهوته المستجَدَّة لسفك الدماء.

فكان يقاتل بحماس وشراسة لم يعهدها في نفسه من قبل تجاه أي شيء، فيتقدم أي شيء ويتصدر أي قتال، حتى أن الرجال بدأوا يتعجبون منه وبدوا أنهم يتجنبون سؤاله عمّا أصابه.

لكن لم يستمر ذلك كثرًا، وإذ لم يكن يملك شيئًا غير الوقت، وكما يعالج الوقت كل شيء؛ أخذ يعالج أيًا كان ما أصاب دكرور، وسبَّب له كل ذلك والغضب والكراهية، لم يحدث ذلك بسهولة أبدًا، فبعد شهور بدأ يشعر أخيرًا أنه يعود إلى رشده، إلا أن شراسته في القتال لم تتبدل.

كل مرة كان الرجال يسقطون سفينة كانوا يبحثون في سجلاتها، عن أي شيء مهم، أو أي أحداث وقعت للسفينة، ولم يكن دكرور يعبأ بالتواريخ أو

في أي شهر هم، إلا تلك المرة التي علم فيها أنه مر على وجوده في الجوف تمام السنة، ربما مرت كسنة فعلًا، لكنها لم تبدُ كذلك.

وهي نفسها المرة التي أخبر أطلس من كان منهم نائمًا أن يستعدوا لأن يصعدوا في الصقيع بين الثلوج، فاستيقظوا على صافراته الثلاث وأخبروا من لم يكن نائمًا منهم بما عرفوا، فقال سيجورد بضيق:

- آه! ليس ثانيًا

ولم يستعدوا بشيءٍ جديد، وكما أصبحت عادته تقدم دكرور الخروج من الجوف، ولم يجد الفم مغمورًا بالماء كما تعود، وتسلق الأسنان التي تشبه المقشة العظيمة، فلفحه الهواء البارد أول ما خرج، ووجد السفينة بجانبه مباشرةً، يرسو جزء صغير منها إلى قطعة كبيرة من الجليد العائم، فتمسك بها من دون حتى أن يلمس الماء، ووقف على الجليد، وساعد البقية على الصعود، حتى أصبحوا جميعًا على جانب واحد من السفينة، التي كانت تميل قليلًا على جانبها الآخر.

يقترب الشروق من أن يأتي، كان المكان أشبه بخليج أو بحيرة كبيرة يحيط بها شواطئ وتلال جليدية، والجو ضبابي كأن السفينة تعوم على بحرٍ من السحاب، مرفوعة الأشرعة لكن تتمايل رغم ذلك.

كما أن رائحة تلك السفينة كانت كريهة أكثر من المعتاد، ويأتي من متنها أصوات كثيرة مختلطة أكثرها أصوات غناء، مع أصوات الدَّق والتقطيع، فكان كل ذلك مما ساعدهم في تكوين فكرة عما يحدث على متنها.

فصعد موريس يختلس النظر إلى متن السفينة، ولما عاد نظر إليه الجميع في ترقب، فبدا كأنه مبهوتًا وقال بصوت خفيض لمن بجانبه:

- لا يمكننا المهاجمة الآن، إنهم منهمكون في تقطيع الشحم، يجب أن ننتظر فهم مسلحون

انتقلت المعلومة إلى البقية، وقال بوهاردي:

- أنت تعلم أنه لا يمكننا الانتظار

ردّ دكرور:

- انتظروا.. سألتف إلى الجهة الأخرى، وأرى إن اقتربوا من الانتهاء..

ومشـــى على الجليد بجانب الســفينة، وتعلق بها مثل الوَزَغ إلى الجهة الأخرى، فوجد حوتًا إلى جانب الســفينة لكنه من دون رأس أو ذيل أو جِلد، فقد سُــلِخ كل جلده حتى صــار أبيض كقطعة من الجليد لونها وردي تذوب ويقطر منها الدم بدلًا من الماء.

ثم ارتقى بنصف رأسه عن سطح السفينة، فوجدها أشبه بالسلخانة ووجد البحارة قد شــارفوا على الانتهاء من تقطيع الشـحم، لكن لا زالوا يضــعونه ويغلونه في المِرجل العملاق مصـــدر الرائحة الكريهة، ثم عاد إلى إخوته وأخبرهم أن لم يبقَ الكثير.

وبالفعل سرعان ما هدأت الحركة، وخفتت الأصوات، إلا صوت ورائحة المرجل المتّقد، فألقى بوهاردي نظرة إلى سطح السفينة ثم أشار إلى الرجال أن يتبعوه، وإلى أوســاي أن يصــعد أعلى الصــاري بســرعة، ولم يكن على متن السفينة إلا بضع بحارة يكنسون الدم واللحم والشحم من على السطح، فقضــوا عليهم بدون مقاومة تذكر بالحراب والســيوف فقط، ولم يســتخدموا الأســلحة النارية إلا بعد أن خرج باقي البحارة على إثر الضــوضــاء التي افتعلوها عن عمد، وجميعهم لاقى نفس المصير.

انتهوا ســريعًا من نقل الجثث إلى الكوثلة، ثم جلســوا بجانب المرجل طلبًا للدفء في انتظار عودة أطلس، وعاد ســيجورد من أســفل ببعض المعاطف الثقيلـة وقبعـات من الفرو، وعـاد أوين بـإبريق من المزر ودار بـه على الرجال، ثم رفع بوهاردي كأسه وهو يقول:

- نخب مرور سنة على وجود دكرور معنا، نخب دكرور!

ورددها وراءه كل الرجال، فرفع دكرور كأسه وأومأ لهم بابتسامة ممتنة، ثم نزل أوساي وهو يقول:

- أيها الأوغاد! تحتسون المزر هنا وتستمتعون بالدفء، وتتركوني في الأعلى للبرد ينهش مؤخرتي! ناولني هذا...

وأراد أن يأخذ إبريق المزر من أوين، لكنه أبعده وقال:

- بشرط أن تغني...
- حسنًا!!!

فانتزع الإبريق من أوين، وشرب ما به على جرعة واحدة، حتى سال على رقبته، وجلس وقال بمرح:

- انتظروا قليلًا حتى يأتي مفعوله

فضحك الرجال، وبعد برهة بدأ أوساي يغني أغانيه الكثيرة، التي تعجب دكرور كلها، لكن ليس كما تعجبه الأغنية التي يسميها أوساي "حياتي الأخرى"، والتي دائمًا ما يتركها للآخر:

في حياتي الأخرى.. كان لدي زوجة جَحودة

كان لدينا طفلًا جميلًا.. وعشنا في منزل صغير

في حياتي الأخرى.. لم أكن حيًّا.. لم أكن حيًّا

لم يكن هناك منزل لألجأ إليه

ولم يكن هناك صديق لأذهب إليه

ولم يكن هناك أرض لأهرب إليها

لكن دائمًا كان البحر

في حياتي الأخرى.. كان لدي زوجة خائنة

كان لدينا طفلًا مريضًا.. وانتقلنا إلى منزل أصغر

في حياتي الأخرى.. قد بذلت قصارى جهدي.. بذلت قصارى جهدي

لم يكن هناك منزل لألجأ إليه

ولم يكن هناك صديق لأذهب إليه

ولم يكن هناك أرض لأهرب إليها

لكن دائمًا كان البحر

في حياتي الأخرى.. قتلت زوجتي الخائنة

بعدما مات طفلنا.. فدفنته تحت ركام منزلنا

في حياتي الأخرى.. تركت كل شيء خلفي.. تركت كل شيء خلفي

لم يكن هناك منزل لألجأ إليه

ولم يكن هناك صديق لأذهب إليه

ولم يكن هناك أرض لأهرب إليها

لكن دائمًا كان البحر.. دائمًا كان البحر

أحَب دكرور هذه الأغنية من أول مرة سمعها، فقد كانت هي نفسها التي غناها أوساي في أول ليلة له في الجوف، وأحبّها أكثر عندما فهم معناها.

نهض وهو يترنح من إثر الثمالة لا يعلم هل هو من يترنح أم السفينة، ونأى عن الرجال ليجلس وحده عند مقدمة السفينة حتى غلبه النعاس.

أفاق دكرور إثر ارتجاج السفينة بعنف، فقام يترنح أكثر مما هو، وفكر أنهم قد ارتطموا بالجليد، لكن السفينة كانت ثابتة منذ دقيقة، فنظر يتفقد البحر فوجده مضطربًا إلى حدٍ ما.

ولما أراد أن يعود إلى الرجال رأى أطلس يصعد ويغوص في الماء بعنف شديد، محدِثًا الاضطراب في البحر، وبدا شكله غريبًا فيه شيئًا خاطئًا لكن لم يعبأ دكرور بذلك، فمع هذا القدر من الثمالة يمكن أن يرى أي شيء، ثم هرع إلى البقية بسرعة، فوجد بعض الرجال وقد بدأ الإعياء يظهر عليهم، والبعض الآخر يقف ويشاهد أطلس وهو يتلوّى، فذهب دكرور إلى عمار وسأله بصعوبة:

- ماذا يحدث؟
- إنه يقاتل شيئًا ما..
- يقاتل؟!! يقاتل ماذا؟!

وقبل أن ينتظر الإجابة خرج أطلس من البحر وتبعه أطلس آخر، فكّر دكرور أنه قد ثمل أكثر من اللازم لكي يرى الأشياء تتكرر، إلا أنه بالفعل كان هناك حوتان في المياه.

كان أحدهما أطلس ولم يتبين الحوت الآخر لكنه كان كبيرًا وأسود، وكلاهما كانا مضطربًا يضربان بأذيالهما البحر ويتلوّان بجسديهما ويندفع كل واحد صوب الآخر فاغرًا فمه يريد أن ينهش قطعة من الآخر، فبدا أنهما يتقاتلان بالفعل.

فقال موريس:

- لن أقف مكتوف الأيدي هكذا، فليجمع كل من يقدر على الوقوف

سأله بوهاردي وقد بدا أن بصره قد بدأ يذهب:

- ماذا سنفعل؟

ردّ موريس:

- سنصطاد حوتًا!

ثم رفع قعيرته صائحًا:

- الجميع إلى المتن!



وقف جميعهم بلا حراك ينظرون إلى موريس باستغراب، فقال بانفعال:

- سيجورد!!

جفل سيجورد وانتبه قائلًا:

- نعم يا سيدي!!
- كنتَ حوّاتًا من قبل.. ستقود ذلك الصيد

رَد سيجورد بسأم وامتعاض شديدين بلسانٍ ثملٍ:

- أه اللعنة عليكَ يا موريس!! كم مرة يجب أن أخبركم أنها كانت أول وآخر مرة، بل أني غرِقت حتى قبل أن يصطادوا الحوت

رمقه موريس بجِدة فعاد يقول بسأم أكبر:

- ماذا تريدني أن أفعل؟!! فقط أنزلوا القوارب وجدفوا نحوه وارشــقوه بالحراب، الأمر بهذه البساطة!
- حسـنًا أنزلوا القوارب وليجلب كل واحد سـلاحًا.. نريد أن نقتله لا أن نصطاده

وقال بوهاردي:

- هذا جنون يا موريس.. هل صِرنا حوّاتين الآن؟
- أتريد أن تترك أطلس يقاتل وحده؟ سنقتل أي شيء يريد قتله يا هاردي

ثم بدأوا بإنزال قاربين بسرعة إلى المياه، ومن دون تخطيط كان موريس يقود قارب وسـيجورد يقود الآخر والبقية يجدفون وعلى أفخاذهم تسـتند أسلحتهم النارية، التي نظفوها جيدًا وحرصوا على ألا تبتل مجددًا، وتوجهوا صـوب القتال الدائر بين أطلس والحوت الآخر، الذي اتضـح أنه حوت صـائب ولم يعلم دكرور لمَ هو صـائب، رآه أكثر من مرة في الحلم الأسـود الذي أراه أطلس إياه، لكن هذا كان عظيم الجثة مقارنةً بالحيتان الأخرى من ذلك النوع، ورغم ذلك كان لا يقترب من حجم أطلس الأطول والأقوى.

كان القتال قد انتقل إلى تحت السطح المزبد من شدة اضطرابه، والذي بدا كأنه يغلي من اشتعال القتال الدائر بالأسفل؛ عندما وصلوا إليه، جعل تمايل القارب دكرور يفرغ ما في معدته في الماء، وتبعه تاندي الذي احتوى قيئه

على شـــيء من الدماء، بعدها هدأت المياه وســكن القارب، وظلوا مترقبين حتى قال بوهاردي بهدوء:

- تأهبوا!

وقبل أن يتأهب أحد قام سيجورد وأشار أمامه في الماء، وقال بعصبية:

- ها هي... ها هي تخترق السطح!!!

كان سيجورد يشير إلى انتفاخ كبير في الماء يتحرك تجاههم من دون أن يظهر ما تحته، بدا كأنه جنين يتحرك في داخل بطن أمه، وأيضًـــا قبل أن يرفع أحدهم سـلاحه كان الحوت الصـائب قد اخترق السـطح يريد أن يطير منه صــوبهم، لكنه لم يخرج من المياه، إذ كان أطلس من وراءه يعض على ذيله مجبرًا إياه على العودة، أفلت أطلس الذيل من بين أسـنانه أو ربما قضـم قطعة منـه، فعاد الحوت يســبح إليهم ولم يقترب كثيرًا حتى افتتح موريس إطلاق النيران عليه.

انهالت عليه الرصــاصــات كالمطر فتلقاها الحوت بشـجاعة، ربما توتّر جسـده وارتعد لكن لم ينثني ولم يتراجع عن محاولة الفتك بهم، ربما لم يزِده ذلك إلا غضــبًا، فنزل من تحت القارب الذي عليه موريس، وضــربه بذيله فارتفع بعنف عن الماء فطار الرجال من عليه بعنف أكبر.

ثم عاد يتوجه إلى القارب الآخر الذي يقوده ســيجورد والذي كان عليه دكرور ودييجو وأوســاي ومافي، وكان ديیجو لا يزال جالسًــا لا يقوَ على الحركة، فقال سيجورد وهو يشاهد الحوت يسبح إليهم:

- اقفزوا الآن!

ثم أراد أن يحمل ديیجو، لكن الحوت كـان قريبًـا وقـد فـات أوان القفز، فاستوقفه مافي الذي كان يقف بثبات يقول:

- انتظروا! لا تفعلوا!!

قالها ثم التقط أربع حِراب كانت في القارب، فأمسـك كل إثنين معًا في كلتي يديه وثبّت أسـاسـها في قعر القارب فكان رأسـها لأعلى، ثم اقترب الحوت كثيرًا فاغرًا فاه على اتساعه، وزعق مافي:

- انبطحوا!!

حينها كان دييجو وسيجورد وأوساي ودكرور يضمّون بعضهم في قعر القارب، وكان آخر ما رأوه من الحوت وهو يفتح فمه ويلتقم القارب بمن عليه ويدخله في فمه، قبل أن يظلم كل شيء فجأة، شعر دكرور بالاضطراب من حوله وسمع صوت تهشم القارب بل وشعر بالخشب في جسده، ثم ما هي إلا لحظة حتى سكن وسكت كل شيء.



سمعوا صوت أوساي يقول:

- هل متنا؟

رَد دييجو:

- هل يبدو لك هذا مثل الجحيم؟! لم نمُت أيها الأحمق!

وقال مافي:

- نحن بخير يا رفاق.. لقد قتلته!

كانت الأربع حراب قد انغرست في سقف حنك الحوت حين أطبق على القارب بفمه العظيم، فقُتِل على الفور بعد أن أغلق فمه على قارب وخمسة رجال، أراد دكرور أن يهنئ مافي ويشيد بما فعل لكن صوته كان قد ذهب بالفعل، ثم قال سيجورد:

- حسنًا أيها العبقري! كيف سنخرج من هنا؟

ران صمت لم يكن مريحًا مع الظلام كالإصابة بالعمى والصمم معًا، قبل أن يرُد مافي:

- حسنًا لا تهلعوا! لا يزال أطلس والبقية بالخارج

بعدها اضطرب المكان وتمايل فأردف مافي:

- أترون.. سيجد موريس وسيلة...

قاطعه دكرور بأن أصدر صوتًا عصبيًّا:

- ششششش!

عندما رأى بصيص نور يقطر من مكان ما وسط ذلك الظلام، فتحسس أقرب أحد إليه حتى أمسك بوجهه ودوّره ناحية النور، وهمس في أذنه:

- انظر!

ردّ سيجورد:

- هل هذا نور سائل؟

همس دكرور بصوت مسموع:

- لا بد أن لهذا الحوت جوفًا

وقال أوساي:

- اللعنة! تُرى هل من أحد بالداخل؟!

بالفعل كانت هناك فتحة تشبه باب جوف أطلس، لكن يبدو أن النور السائل يتسرب منها، وقبل أن يحاول أحد الدخول انفتح الفم شيئًا فشيء ودخل منه نور النهار، فظهر عمار من بين فكّي الحوت يقول:

- هل يعجبكم المكان هنا؟ هل جميعكم بخير؟

قال أوساي:

- يوجد جوف هنا

- حقًا؟!!

ثم عاد عمار يخرج وسمعوه يصيح:

- موريس**!!** هناك جوف هنا**!**

وسرعان ما عاد مع موريس وأوين، فقال أوين أول ما رأى فتحة الباب:

- هل من أحد بالداخل؟

رَد أوساي:

- لا ندري

فقال موريس:

- ماذا تنتظرون إذًا؟ لكن احذروا.. ربما يكون السكان غير ودودين

تقدم دكرور الطريق حاملًا بلطة مافي ودفع بنفسه إلى الجوف الغريب.

كان المكان نصفه مظلم ونصفه الآخر مضيء، ويبدو أن الجاذبية في جهة واحدة وليست في كل الجهات مثل جوف أطلس؛ إذ كان النور السائل كله يتجمع في ناحية واحدة وقد انسكب من عروقه مكوّنًا نهرًا أصفر، وجد نفسه عند أول هذا النهر، وعلى الطرف الآخر منه كان يقف إنسان آخَر.

ثم دخل مافي حاملًا دييجو على ظهره، فقال دييجو أول ما دخل:

- اللعنة**!** هل هذا ما يحدث عندما يموت حوت ذو جوف؟

أسكته دكرور وأشار إلى الرجل وأخذ يقترب منه بحذر، كان يقف في نهر النور السائل الذي يصل إلى أسفل ركبتيه، ولم يكن عليه سوى أسمال بالكاد تستر عورته، وجسده كان ملطخًا بالنور السائل لكن وجهه لم يكن واضحًا، ثم عندما دخل البقية بدأ الرجل يصدر صوت أنين، وإذ لم يروا وجهه فلم يعرفوا إن كان أنين ألم أم بكاء، ثم علموا أنه أنين البكاء عندما بدأ الرجل بالعويل دون أن يرفع صوته بالصراخ.

اقترب موريس رافعًا كلتي يديه وجعل دكرور يخفض سلاحه وقال:

- ششش! لا تقلق يا رفيقي...

هدأ الرجل قليلًا فأردف موريس:

- لا تقلق! أنتَ لستَ وحدك...

وأضاف عمار بجانبه:

- نعم.. نحن أيضًا نسكن في بطن حوت، تعالَ معنا ولن يصيبك أذى

أخرج الرجل أصواتًا خرقاء من حلقه فيما بدا ككلام إلا أنه لم يكن كذلك، فبدا كأنه أصَمّ يحاول الكلام، ثم أمسكه موريس وعمار من يديه وقادوه برفق إلى المخرج وهو لا يزال يتمتم ويبكي.

وخرجوا فأوقفوه على الجليد بقدمين حافيتين، فلم يعبأ الرجل بذلك وأخذ ينظر إلى كل شيء في استغراق وهو يئن كأنه يدندن، فانبهر برؤية الشمس وقد ارتفعت في السماء فاتضح شكله، كان ذو بشرة سمراء بحمرة، وكان نظيفًا من شعره الناعم الطويل إلى قدميه، وجسده مفتول أقرب إلى السمنة منه إلى النحافة، حتى أنه بدا وسيمًا وربما صغير السن.

ثم التفت الرجل وراءه ليجد سجّانه وسجنه الذي هو نفسه لا يعلم كم مكث فيه؛ وأخذ ينشج، وبينما كان الرجال يشاهدونه في تأثر، قال سيجورد:

- هل نأخذه معنا؟

رَد موريس:

- لن أخرجه من جوف حوت حتى أعيده إلى آخَر حتى وإن كان أطلس.. لنتركه ليموت أفضل

ثم عاد الرجل يرمق أفق تلك الصحراء الجليدية التي لا يبدو أن لها آخِر، ثم قال كلمة واحدة واضحة وابتسم وبدأ يسير بهدوء، فقال له عمار:

- انظر! هناك سفينة، ها هي هناك! يمكن أن تعيش عليها...

لكنه لم يعِره أي اهتمام كأنه غير موجود، ثم خلع موريس رداءه ووضعه على كاهله فأزاله الرجل عنه، وأكمل ســـيره المتأني متوجهًا إلى لا مكان، حتى اختفى وراء رياح الضباب البيضاء.



(2)

كانت الشـــمس تقترب من أن تغيب حين خرجوا، ولم تزل كذلك حين انتهوا، إذ إن القتال قد انتهى ســـريعًا وبدون مجهود يذكر، حرص معظم الرجال على ذلك وخاصـــةً عمار، فرجعوا إلى الجوف فور أن انتهوا لكي يكملوا لعبة الصـاري والمرسـاة، فقد هزم سـامبار وعمار سـيجورد ورالف وأقصوهم، وذلك شيء لم يكن يحدث عادةً.

امتنع بوهاردي وأوين عن اللعب، ولم يكن موريس يشـارك أصـلًا مدعيًا كبر السـن رغم أن له قوة وجسـد رجل يافع، وتاندي أيضـًـا لم يكن يشـارك لأنه فعلًا قد تخطى السـتين وله قوة وجسـد رجل في التسـعين، فكان على دييجو ودكرور مواجهة الفريق الذي لا يقهر؛ أوســاي ومافي، والفائز منهم سيواجه سامبار وعمار.

كـان الفريق يتكون من إثنين على الأقل، أحدهم على الأرض يســـمى المرساة وآخَر يعتلي ظهره يسمى الصاري، وإذ كان دكرور يصاب بالدوار حين يرى أحدًا بالمقلوب؛ فكان دائمًا مرســـاة الفريق، وإذ لم يكن بمقدور أوساي أن يحمل مافي أو أي أحد على ظهره؛ فكان دائمًا صاري الفريق.

ومن طقوس هذه اللعبة أنهم يرســـمون بالنور الســـائل على وجوههم وأجســـادهم، يرســـمون خطوطًا وحلقات وربما يكتبون كلمات فتتوهّج أجسادهم ووجوههم، وبعضهم يبالغ حتى يصبح مخيفًا فعلًا.

استعد الفريقان وأخذا مكانيهما، ووسط غطرسة أوساي وصياحه المزعج، كان دييجو ودكرور يشجعان بعضهما بجدية، ويخططان لطرق للفوز كأنهم على وشك بدء حرب، وانتهى دييجو من الرسم على وجه دكرور، ثم قال دكرور لدييجو وهو يرسم حلقات حول ذراعه:

- ذلك القزم لن يصل إلى رأسي على كل حال، اضرب أنت رأس مافي، ولا تجعله يمسك بكَ
- حسنًا أعرف كل ذلك، لكن اسمع...

التفت دييجو ليتأكد من أن لا أحد يسمعه وهمس في أذن دكرور:

- عند إشارتي أريدكَ أن تدور حول نفسكَ وتشدني بكل قوتك فهمت!.. ولا تفلتني حتى وإن ترجيتكَ أن تفعل، وسأجعل ذلك الأحمق الصغير يتمنى لو ولد رجلًا صحيحًا

كانت المباريات غالبًا ما تنتهي عندما يطلب صاري الفريق من زميله المرساة أن يفلته بسبب الألم الذي يعانيه على يد صاري الفريق الآخر، فاز دييجو من قبل لأنه لوى ذراع أوين حتى كاد أن يكسره.

أومأ دكرور استحسانًا لكلام دييجو، ولم يعبأ بتشجيع البقية ومراهنتهم على فوز أوساي ومافي، في الحقيقة لم يكونوا يملكون أي شيء ليقدموه للفائز أو يراهنوا به؛ سوى متعة الشماتة في الخاسر وكل من راهن عليه.

ارتقى دييجو ظهر دكرور، وتسلق أوساي ظهر مافي، وبدأ القتال عند إشارة رالف.

لم يكن بمقدور دكرور أن يرى شيئًا مما يحدث أعلاه، لكنه علم أن المناوشات قد بدأت، وسرعان ما انتهت حين اضطرب دييجو على أكتاف دكرور فعلم أنهما قد اشتبكا، ثبَت دكرور قدر استطاعته وحاول أن يشد دييجو بأن ينخفض بجسده، لكنه بدلًا من ذلك كان يُسحَب لأعلى، إذ كان مافي بقوته وجسده الهائلين يسحب دييجو ودكرور معًا بعد أن تشبث أوساي

بقوة بدييجو، كان مافي سـيفوز إذا نجح أوسـاي في إسـقاط دييجو على أرضه، لكن مافي وحده كان قادرًا على إسقاط دييجو ودكرور معه أيضًا.

حاول دكرور بكل قوته أن يقاوم سحبه لأعلى دون جدوى، ثم حين بدأت قدماه ترتفع عن الأرض سمع صرخة تألم من أوساي فعلم أنها الإشارة، فاستجمع ما تبقى من قوته وركز ثقله لتعود قدماه إلى الأرض، وما أن فعل حتى دار حول نفسه ودوّر معه دييجو فعَلت صرخات أوساي، فأغمض عينيه بقوة وزاد تركيزه وركز قوته على ثقله وسحب دييجو حتى بدأ ينحني، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يجثو على ركبتيه، ولم يلاحظ زوال حمل دييجو من على ظهره، إلا بعد أن فتح عينيه ووجد أوساي مستلقيًا أمامه.

ضحك دكرور بشدة وسط غمغمات أوساي بالسباب وأنين التألم، ووسط دهشة وصمت الجميع، ثم انضم إلى دييجو في احتفاله الصاخب ليستلم جائزته، فرقصا معًا بحماس وصخب وهما يغنيان أغنية حياتي الأخرى بطريقة مرحة عكس ما يغنيها أوساي نكايةً فيه، فنهض أوساي وهو يقول بغضب جعله مزعج أكثر مما هو:

- أيها الحقير! لن أتركك تغش أيها الوغد!

قال دييجو بتهكم شديد وهو يقف بجانب دكرور:

- أهذا حقًا! أتعلم كيف غششت يا سيد دكرور؟
- لا، لا أعلم كيف غششت يا سيد دييجو
- لقد ولدتُ رجلًا طويلًا!

عندها ضحكَ الجميع حتى أوساي، ثم قال سامبار وكان عمار على كتفه:

- تعالا وقاتلا أحدًا من حجمكما أيها الحمقى!

كانت ميزة عمار وسامبار أن كلاهما كانا طوال القامة والأطراف، غير ذلك فقد كانا رفيعان وضعيفا البنية، استغل دكرور ودييجو فورة حماسهما وأعادا تشكيل الفريق بسرعة، دون تخطيط أو تشجيع، وتلك المرة كانت الرهانات الأكثر على دكرور ودييجو، ثم عند إشارة رالف بدأ القتال.

ودون سابق مناوشات أو تمهيد للاشتباك تفاجأ دكرور بضربة على وجهه، وحين أراد أن يتراجع وجد أن دييجو قد اشتبك بالفعل، فأخذ دكرور يسحبه ويركز ثقله، لكنه تفاجأ بضربة أخرى وتلك المرة كانت في بطنه فجعلته ينحني ويمسك بطنه ويرخي قبضته حول ساقي دييجو، وشعر به يسحب من فوق كتفه، وحين استعاد اتزانه وجد دييجو وقد رُفِع عنه تمامًا، فجذبه من قدميه في محاولة أخيرة يائسة لاستعادة الفوز، لكن في تلك المرحلة كان كلًا من عمار وسامبار يسحبان دييجو أمام دكرور وحده، فلم يكن أمامه سوى أن يفلته.

ورغم أن دكرور هو الملام على تلك الخسارة، إلا أن دييجو لم يلُمه وصمد بجانبه أمام شماتة الشامتين وأوساي بالأخص، وأخذ هو وعمار وسامبار يغنون ويرقصون من حولهم.

وأثناء ذلك كان قد بدأ قتال آخر ومشهد لم يروا مثله من قبل، إذ كان أوين يعتلى ظهر بوهاردي وأمامهم كان تاندي يعتلي ظهر موريس، وسرعان ما التف الجميع حولهم، لا يعلمون على من يراهنون أو من يشجعون رغم أن الفوز محسوم لأوين وبوهاردي، ولم تكن هناك فرصة لتاندي وموريس، وقال سيجورد لتاندي مازحًا:

- ماذا تفعل أيها العجوز؟! ستتسبب في قتل نفسكَ

وأضاف عمار:

- انسحب الآن قبل أن تكسر ظهرك يا موريس!

وقال أوين:

- أتركوهم يا رفاق.. سأجعلهم يخسروا بكرامة تليق بسنهم

ردّ موريس:

- نريد فقط أن نريكم كيف تُلعب هذه اللعبة

ثم قال رالف:

- حسنًا هذا خياركم! فليبدأ القتال!

بدأ القتال بالحذر من كلا الفريقين، يتناوش أوين وتاندي بالأيدي ويتراجع بوهاردي وموريس، وفور أن اشتبك الصاريان أخذ المرساتان يشدان إلى أسفل، ثم كان يجب على موريس أن يتمسك بساقي تاندي، لكنه جازف ورفع نفسه وأمسك برداء أوين وعاد يجذبه إلى أسفل بمساعدة تاندي، الذي أخذ يضرب رأس بوهاردي لكي يجبره على ترك ساقي أوين، وبالفعل بدأ بوهاردي يفلت أوين شيئًا فشيء حتى يئس فتركه يرتفع عنه ببساطة كأنه يسلمه إليهم بنفسه.

تلقى بوهاردي الهزيمة بتواضع على عكس أوين الذي لم يكن يقبل الهزيمة بسهولة، كما احتفل تاندي وموريس بتواضع أيضًا، حتى استفزهم سامبار:

- ما رأيكم أن ننهي اليوم بقتال أخير؟ كما أنكم لا زلتم تبدون أنكم تريدون ان تخسروا بكرامة تليق بسنكم

ردّ موريس:

- بحقكَ! ألم تكتفِ بالفوز مرتين في يوم واحد؟

وقال عمار:

- هل تخشى أن يصبحوا ثلاث مرات؟

بدا على تاندي أنه يرحب بالأمر، وبدا على موريس الضجر وهو يوافقه، وسرعان ما نظموا قتالًا أخيرًا.

لم يحدث طوال فترة وجود دكرور في الجوف وهي قرابة الثلاث سنوات؛ أن فاز عمار وسامبار مرتين، أو خسر مافي وأوساي، أو شارك تاندي وموريس، وكل ذلك في يوم واحد.

وما أن ارتقى تاندي ظهر موريس وارتقى عمار ظهر سامبار، وقبل حتى أن يشير رالف ببدء القتال؛ استوقفهم أطلس بصافراتٍ ثلاث، فتسمر

الجميع في أماكنهم؛ إذ إن آخر مرة سمعوا تلك الصافرات كانت منذ ساعة، ولم يحدث من قبل أن خرجوا لاصطياد سفينتين في أقل من ساعة.

★★★

نزل تاندي من على ظهر موريس بعد صمتٍ طال، وقال أوين متعجبًا:

- لم تمر ساعة منذ آخر صيد!

ردّ موريس:

- ربما قد مر أكثر من ذلك خارج الجوف

وقال دكرور في حيرة:

- ألم تخرجوا أكثر من مرة في يوم واحد من قبل؟

أجاب بوهاردي:

- بلا.. لكن لم يكن بتلك السرعة، لا بد وأنه أمر مهم، هيّا فلنستعد!

تناول كلًا منهم حربته، من دون أسلحة نارية سوى لرالف وموريس وحتى تلك لم يكن بها كفاية من الذخيرة أو البارود، لأنهم عادوا سريعًا في آخر مرة دون أن يجلبوا معهم أي أسلحة أو ذخيرة من السفينة.

التشكيلة المعتادة أن يكون بوهاردي ورالف وأوين وأوساي وديبجو؛ على إحدى جانبي السفينة، وموريس ومافي وعمار وتاندي ودكرور وسيجورد؛ على الجانب الآخر، لكن تلك المرة كانوا على جانبين مختلفين من سفينتين مختلفتين.

كانوا في الماء بين سفينتين كأنهم في وادٍ بين ضفتي نهر، ومن فوقهم ضُرِب ثلاثة جسور خشبية تصل بين السفينتين، إحدى السفينتين كانت سفينة تحويت عادية وتلك يعرف الجميع شكلها جيدًا، أما الأخرى فكانت أكبر وتبدو أقدم وتلك التي كان بوهاردي والبقية على جانبها الآخر.

قال سيجورد أولًا دون أن يبدو عليه التهكم كعادته:

- اللعنة! هل يريد أطلس قتلنا؟

ثم قال عمار وهو ينظر إلى سفينة الحيتان بإمعان:

- مهلًا! أليست هي السفينة نفسها من آخر مرة؟

قال موريس بعصبية وهو يتفقد الجسر الخشبي من فوقه كل بضع ثواني، ويرفع بندقيته فوق الماء:

- اللعنة! ألم تخرقها يا مافي؟

ردّ مافي:

- لقد خرقتها لكن... هل أنت متأكد أنها هي يا عمار؟ حسنًا انتظروا...

ثم غاص في الماء وسبح أسفل سفينة الحيتان، وأثناء ذلك تراجع الرجال يتوارون بجانب السفينة الغريبة حين رأوا اثنين من البحارة يعبرون الجسر من الحوّاتة إلى السفينة الأخرى، ثم عاد مافي وقال وهو يلتقط أنفاسه:

- إنها هي.. لقد... لقد أصلحوا الخرق..

فقال دكرور لموريس:

- هل أذهب وأخبر بوهاردي؟
- لا يجب أن نبقى هنا، سنذهب كلنا...

وغاص موريس وتبعه البقية من تحت السفينة إلى الجهة الأخرى، ولاحظ الشمس وقد غاب نصفها لكن لا تزال تضيء نصف العالم، فعلم أنهم لم يكملوا الساعتين في الجوف، ثم قال بوهاردي لموريس أول ما رآه:

- ماذا سنفعل يا موريس؟
- لقد جئتُ لأسألك نفس السؤال

ثم قال رالف:

- هل يعلم أحد ما شأن أطلس وتلك السفينة؟

بدا على الجميع التعجب فقال دكرور:

- وما شأن هذه السفينة؟
- أعني لماذا يريدنا أطلس أن نغرق سفينة قراصنة؟

تلقى الجميع الكلمة بأن عجزوا عن الكلام بعدها، إلا سـيجورد فقد قال باندهاش وبصوت عالٍ:

- قراصنة؟!! هل هذه سفينة قراصنة؟!!!

وقال موريس بثبات:

- هل هذا صحيح يا دييجو؟
- نعم.. ألم ترَ العلم؟

وسبحوا مبتعدين ونظروا أعلى الصاري، فكان علمًا أحمر عليه جمجمة وتحتها عظمتين معقوفتين، ثم أضاف بوهاردي:

- مهلًا! ألم تكونوا تعرفون؟، لماذا عدتم إذًا؟
- لقد عدنا لنخبركم بشيء آخر

قالها موريس فضحك سيجورد كعادته، مما أضحك موريس كغير عادته في مثل هذه المواقف التي تحتاج منه الثبات، ثم أردف:

- هناك حوّاتة على الجانب الآخر وقد ضـربوا جسـرًا بين هذه وتلك، وليس هذا كل شيء...

أردف موريس بعد أن عاد إلى جدّيته:

- إنها هي نفس السفينة التي اصطدناها آخر مرة منذ ساعتين

تلقى الجميع الكلمة بأن عجزوا عن الكلام بعدها، إلا أوسـاي فقد قال باندهاش وبصوت عالٍ:

- متأكد؟ ألم تخرقها يا مافي؟

- لقد أصلحوا الخرق

وران الصمت على جميعهم بعدها لمدة طويلة، حتى بدأ الأمر يصبح غريبًا، ثم قطع دكرور ذلك الصمت بأن قال:

- ما بكم يا رفاق؟ إنها سفينة مثل أي سفينة أخرى، وسنسقطها كأي سفينة أخرى

ردّ دييجو على الفور:

- إذا أردت أن تقتل نفسك أيها الغبي فتفضل! سفينة بهذا الحجم ربما عليها أكثر من مائة قرصان محترف وليس حفنة من الحوّاتين الأغبياء، اسمعوا.. يجب أن نعود إلى الجوف الآن بينما يمكننا ذلك

وافقه البعض ومنهم أوين، الذي قال وهو يشير ناحية المغيب:

- أطلس هناك، ما علينا سوى أن نسبح إليه.. هيّا بنا!

لكن استوقفهم عمار قائلًا:

- مهلًا يا رفاق! ربما لدي فكرة أخرى...

ثم سكت وبدا أنه يحاول إخفاء ابتسامته السعيدة، وأردف إلى موريس:

- أعلم أنه مرّ كثيرًا على ذلك اليوم، وأنك لا تزال ساخطًا عليّ.. لكن... لم لا نفجر هذه السفينة؟

حكى عمار لدكرور من قبل عن أنه فجّر إحدى سفن التحويت، بعد أن أضرم النار في مخزن براميل الزيت، مما كاد أن يهلكهم، فغضب الجميع خاصةً موريس وحتى أطلس، ثم علم دكرور دون أن يخبره أحد أن عمار مهووس بإشعال النار وبمشاهدة الأشياء تحترق؛ عندما رآه أكثر من مرة يحدّق في مصابيح الزيت في ذهول.

رَد عليه أوين على الفور:

- لماذا أصـــبحتم جميعًا بهذا الغباء؟! لا يوجد مئات من براميل زيت الحيتان على هذه السفينة أيها الأحمق!

واستدرك عليه دييجو:

- بل يوجد ما هو أفضـل من براميل زيت الحيتان على هذه السـفينة يا أوين.. يوجد مئات من براميل البارود!



وعادوا إلى صـــمتهم الذي يجعل جميعهم أغبياء، حتى قال موريس وهو ينظر إلى الماء في شرود كأنه يكلم نفسه:

- ولم لا؟!.. سأقبل بذلك، حسنًا يا رفاق ستكون الخطة كالآتي...

ثم أكمل كلامه إلى الرجال:

- لقد حلّ الظلام بالفعل.. سنتسلل إلى كوثل تلك السفينة ونفجر مخزونها من البارود، من دون أن يشعر بنا أحد، ومن دون استخدام أي أسلحة نارية، ولن نقتل منهم أحدًا إلا للضرورة، هل فهمتم؟

ولم ينتظر إجابة فأردف:

- والآن يا بوهاردي ستعود مع تاندي ورالف إلى الجوف، وليس أنت يا دييجو سأحتاجكَ معي

اعترض الجميع رغم أن ذلك ربما سـيودي بحياتهم قبل حتى أن يقاتلوا، رغم محاولات موريس لإقناعهم، حتى سـئم منهم، ثم تسـلق جانب السـفينة بحبل وارتقى برأسه ليتفقد المتن، ثم عاد وقال:

- المكان هادئ، أوساي! ستتسلق أعلى الصاري كالعادة لكن عُد فور أن تنتهي، وسـنقضـي على أي أحد لا يزال على المتن، ثم سـأنزل مع

دييجو وبوهاردي ومافي ودكرور إلى المخزن، وسـيبقى البقية على المتن تحسبًا لأي شيء

صعد موريس أولًا وتبعه البقية بهدوء، وكان سطح السفينة مضاءً إلى حدٍ ما، فوجدوا المدافع على جانبي السـطح، ورأوا سـفينة الحيتان مظلمة موحشة، وما أن صعد دكرور ومافي وسيجورد نبههم موريس، وأشار إلى رجلين كانا جالسين يتسامران بجانب الدفة عند من مؤخرة السفينة، ثم أشار إلى بوهاردي وتاندي إلى رجل آخر بدا نائمًا، ثم تقدم مافي المسـير مع دكرور وسـيجورد نحو الرجلين، وما أن اقتربوا كفاية لكي يروهم قال سيجورد بعفوية:

- أه! ها أنتم ذا! كنا نبحث عنكم

فأسرع دكرور إلى أحدهما ووضع يدًا على فمه وحزّ عنقه باليد الأخرى، وقضى مافي على الآخر بسهولة، ثم أخذ سيجورد زجاجة خمر كانت معهما وجرّد دكرور ومافي الرجلين من أسـلحتهما، ورجعوا إلى البقية فوجدوا أوين يقف أمام باب القمرة التي أسـفل سـطح الدفة العالي، فذهب سـيجورد إليه ودخلا القمرة شاهرين أسلحتهم، ثم أشار موريس إلى دكرور ومافي أن يتبعاه إلى أسفل مع دييجو وبوهاردي، وبقيَ بقيتهم على المتن.

وفوجئوا حين وجدوا أن المستوى الأول من الكوثلة عبارة عن مهجع ينام فيه عشـرات البحارة على الأرض وعلى أسِـرة متأرجحة، وظلوا برهة يتفقدون المكان قبل أن يأمر موريس دكرور أن يبقى هنا وهمس في أذنه:

- اجلب من بالأعلى واحرسوا هذا المكان

وأكمل موريس نزوله، وصعد دكرور ثم أشار إلى تاندي ورالف ليعودا معه وأخبرهما أن يحرسوا المكان، فتأهب ثلاثتهم وأمامهم أسلحتهم.

جال دكرور ببصره في المكان وحاول أن يعد النائمين، لكنه لم يكمل العد وقد علم أن دييجو كان على حق حين أخبره أنهم أكثر من مائة قرصان.

وظل مع رالف وتاندي يقف ثلاثتهم حذرين متأهبين، ثم همس رالف:

- تاندي! عُد إن أردتَ.. أعلم أن هذا المكان يذكرك بماضٍ مؤلم

قال تاندي:

- لا بأس يا رالف! لقد نسيتُ حياتي قبل الجوف بالفعل.

قال دكرور بمرح:

- بل يجب أن تخبره أنه على موعد لملاقاة عمار وسامبار لكي يعود

ضحك مع تاندي بصوت، فزجرهما رالف حين اشتدت جلبة من أعلى، فتوتروا أكثر وألصقوا ظهورهم إلى بعض، متأهبين بأسلحتهم أمامهم، حتى شعر دكرور بتاندي يبتعد عنه، فالتفت إليه ليجد أمامه رجلًا يفرك عينيه من النعاس، فتقدم تاندي خطوة واحدة وهو يصـــوب حربته أمامه، وانغرس رأسها فقط في صدر البحار، فعاد يسحبها فسقط الرجل صريعًا محدثًا جلبة لم توقظ الجميع لكنها أيقظت الكثير.

اختبأ كلًا منهم في ناحية مختلفة في أماكن مظلمة، وتعثر أحد البحارة بجثة صـــاحبه، وقبل أن يصـــرخ ويوقظ الجميع، اســـتوقفته رؤية موريس يصعد أولًا، ومن وراءه دييجو ومن وراءهم مافي وبوهاردي يسكبان الزيت من برميل في ثبات في خط مستقيم أمامهما.

أشهر الرجل مسدسه ففعل موريس المثل وصوب بندقيته، وخرج رالف من مخبأه يصـــوب مســـدســـه نحو آخَر قد انتبه لهم، فتبعه دكرور وتاندي، وصرع تاندي رجلًا آخر بحربته، فصاح موريس بسرعة:

- أشعلها يا هاردي!!!

وبدأ تبادل إطلاق النيران بين كل من يحمل سلاحًا، فاستيقظ مائة قرصان من نومه، وهرع مافي ودييجو إلى أعلى، وأخذ بوهاردي مصـــباح زيت معلق وألقاه على خط الزيت المسكوب على الأرض الذي صـــنعه بنفســـه، فسارت النار عليه ونزلت إلى أسفل فزعق بوهاردي:

- أهربوا الآن!!!

وركض يصـــعد أولًا وتبعه رالف، وتبعهم دكرور زحفًا ليتفادى الطلقات العشـوائية بين البحارة وبعضــهم بعد أن نفدت ذخيرته، ثم بدأ يرتقي السـلم إلى المتن، والتفت وراءه ليجد موريس ينحني ويجر تـانـدي من يده، فعاد وشدّ تاندي وجره بصعوبة صعودًا على السلم، ثم حمله هو وموريس، وحين رأى دكرور بعض الرجال لا زالوا على السطح صاح فيهم:

- ماذا تنتظرون أيها الأغبياء! أقفزوا!!!

ولم يمتثل أحدًا للأمر إلا بعد أن خرج القراصــــنة يطلقون رصـــــاصـــــاتهم العشــــوائية، فقفز الجميع من الســـفينة وحمل دكرور تاندي وحده وقفز به، وأول ما غاص وجد وابلًا من الطلقات تغوص معه، فاحتوى جســــد تاندي ليقيه من الطلقات، بعدها مباشــــرةً وجد أطلس وقد أطبق بفكيه على كليهما، وسمع دكرور أخيرًا الصوت المدوي لانفجار سفينة.

وضــــع دكرور تاندي على الأرض بحنان، وأدرك عمار يقول بغضـــب واستياء شديدين:

- اللعنة على ذلك؟ لم أشهد الحريق!

ضـــحك الجميع ولاحظ دكرور أن صــــوته لم يكن قد ذهب حتى الآن، وتعجب من ذلك؛ إذ إنـه يظل أبكمًا لفترة بعد أن يعود إلى الجوف، ولاحظ دييجو واقفًا مسـتقيمًا لم يفقد قدماه حتى الآن، وأن بوهاردي لم يفقد بصـــره حتى الآن، ورالف يضـحك وفي أتم عافيته، لاحظ كل ذلك ونظر إلى تاندي فوجده نائمًا كما تركه.

ردّ موريس على عمار بسخرية:

- أه! هذا من حسـن حظنا.. كي لا تزعجنا بحكاية سـفينة القراصـنة هي الأخرى

قال عمار:

- سألقننكَ درسًا أيها العجوز!

قالها وارتقى ظهر سامبار ليكمل مباراته مع موريس وتاندي، ثم أردف:

- هيّا! أين صديقك العجوز الآخر؟

كان دكرور لا يزال ينظر إلى تاندي باستغراب، حتى جثا بجانبه وتحسس صدره بحثًا عن شيء لا يريد أن يجده، وحين لم يجده مسح على رأس تاندي وانحنى ووضع أذنه على صدره ليسمع صوتًا يريد بشدة أن يسمعه، وأثناء ذلك كان أوساي يقول بتوتّر لدكرور وهو يشاهد ما يفعل:

- ماذا تفعل يا دكرور؟! لا يا دكرور!! لا تفعل ذلك.. لا تسمع دقات قلب تاندي، لماذا تسمع قلب تاندي؟

لم يسمع دكرور أي شيء لكنه لم يُرِد أن يصدق أي شيء، حتى رفع يده عن رأس تاندي ووجدها مخضبة بالأحمر، بدأ أوساي في البكاء فور أن رأى يد دكرور، ونظر دكرور إلى حيث كان يضع يده فوجد فجوة عميقة في رأس تاندي أخفاها شعره الأشعث وبشرته السوداء.

بدأ البعض في النحيب بسرعة، والبعض الآخر لا زال لا يصدق مثل دكرور، وأطلس لا يكف عن الغناء بصافرات غليظة وطويلة وعميقة، ثم قال سامبار قبل أن يبكي إذ كان بالفعل على وشك أن ينفجر:

- مهلًا يا رفاق! انتظروا! انتظروا!!!! لا زال بإمكاننا إعادته

وما أن أنهى كلامه أمسكه بوهاردي من تلابيبه بعنف شديد وألصقه بجدار الجوف القائم وقال بغضب:

- لا تفكر في الأمر!

فقال دكرور بهدوء كأنه يتكلم في أمر طبيعي:

- لا أعلم يا سامبار، لقد مات خارج الجوف، كما أن ذلك حدث فجأة

فردّ عليه أوساي:

- وبوهاردي أيضًا مات خارج الجوف

تركَ بوهاردي ســـامبار وتوجه نحو أوســـاي عازمًا على قتله فتراجع الأخير، ثم توقف بوهاردي حين قال موريس وهو يجثو بجانب جثة تاندي بعينين شاردتين تذرف الدمع دون أن تبكي:

- إن كنا سنفعلها فسأفعلها أنا، أنا من أودى به إلى هلاكه

فقال بوهاردي مخاطبًا الجميع وقد رفع صوته بانفعال:

- والآن اسمعوا جميعكم.. لقد مات تاندي كما يموت البشر.. مات تاندي كما يموت الرجال.. ولا ســبيل لإعادته، لا تظنوا أن انتقال الروح من جســـد إلى آخر أمر جيد.. إنه لعنة! ورغم أنني ممتن لبيدرو ولما فعل لكنه لعنني حين فعلها، ولن أســـمح لأحد بتكرار الأمر بأن يلعن تاندي هو الآخر...

فسكت ليقاوم البكاء وعاد يكمل:

- لقد مات تاندي ابن بوتوي وهو يفعل ما أراد أن يفعل، لا يهم إن كان ما يفعل شـــرًا أو إجرامًا، لكنه فعله من أجلنا ومن أجل أطلس، وهذا يكفي لأن يجعلنا نحبه ونكرمه، وإذا أردنا أن نردّ له ما فعل فلنكرمه بأن نتركه يرحل بكرامة تليق به



(3)

مرت أيام عديدة منذ أن مات تاندي ولا يزال أطلس يشعر بالفقد والحزن والندم والتأنيب، لم يكن يعلم ماهيّة تلك المشاعر حينها، ربما سيعلم بعد ذلك، لكن حينها كان يعلم فقط أنها تلك هي المشاعر عندما تفقد أحدًا.

ولأنه لم يكن يعرف أسماء للأشياء، ولا يعرف تسمية لمشاعره؛ فلم تكن تلك المشاعر تعلق معه كثيرًا مثلما تفعل مع البشر الذين يعرفونها ويسمونها ويستحضرونها متى أرادوا، بل ويمررونها لمن حولهم.

وربما غضِب على رجاله قليلًا وعاتبهم لكنه شعر أنه أولى بذلك العتاب، إذ كان يعلم حينها أن تلك السفينة لا تصطاد الحيتان، ومع ذلك فضّل إخراج الرجال إليها تحسّبًا.

ورغم أنه كان ممتنًّا جدًا للرجال على قتلهم ذلك الحوت، إلا أنه شعر بالغرابة أنهم -وهو معهم- فعلوا الشيء الذي لطالما حاربوه، فلم يكن يتخيل في يوم أنه سيقتل حوتًا، لكنه علم أنه الصواب على كل حال، ومنذ ذلك وهو بالكاد يدعهم يخرجون سواء لسفينة أو لغيرها، ويكاد خروجهم ينعدم من بعد حادثة تاندي.

وكان قد انعدم شعوره بالحيتان الرمادية بعد أن كان قويًا ومتكررًا، لم يعلم شيء من ذلك الحوت البغيض سوى أنهم لا يعيشون في المحيط الأطلسي، فلم يزِده ذلك إلا حيرة وصعوبة في البحث، وطوال تلك الفترة وهو يجوب المحيط الهادي بحثًا عن كيانج صديقه، علّه يعرف شيئًا عن الأمر أو عن ذلك الحوت، لكنه نادرًا ما ينجح في إيجاده في المحيط الهادي الشاسع، وبين الحين والآخر كان يزور نون في محيطه الهندي، وهذا أيضًا لا يجده كثيرًا.

وفي مرة كان عائدًا إلى الأطلسي ليجد حوت عنبر يغني أغنية، كان حوت عنبر عاديًا، لكن الأغنية كانت مميّزة لا تصدر عن حوت عادي، واقترب منه أطلس فاتضحت له الأغنية أكثر: "اتّبِع من يشبهني وستجدني".

كانت تلك هي الأغنية التي يجعل نون حيتان العنبر تغنيها إذا أرسلهم في طلب أطلس، فسبح إلى الحوت ليجد من وراءه حوت آخَر، وكلما وصل إلى أحدهم وجد آخَرًا وراءه، وجميعهم يبدون مضطربين فيهم شيء غريب، وجميعهم يغنون نفس الأغنية في تكرار مزعج، لم يكن نون يستدعيه بتلك الطريقة إلا لأمر مهم، لذلك كان أطلس متحمسًا لأنه ربما يكون علِم شيئًا جديدًا عن حيتانه.

قلّت الحيتان وخفَت صوت غنائها حتى اختفى، وحينها رأى نون أسفله عند بداية ظلمة الأعماق، تطوف من حوله عشرات من أسماك القرش البغيضة لكن لا يقتربون منه، فسبح إليه فتفرقت أسماك القرش خائفة، ولم يلحظ كم

هو ساكنًا حتى رأى حربتين في ظهره يرتفع من أحدهما حبلًا إلى سفينة على السطح، ولم يشم رائحة الدماء إلا بعد أن اقترب أكثر.

رأى ذلك المشهد ربما آلاف المرات، لكن لم يتوقع أبدًا أن يجد نون في هذا المشهد، يعلم أطلس أنه ليس ميتًا فأدرك أنه نائمًا، والرجال في جوفه أقل مما يذكر، فتوجه إليه وأخذ يحركه حتى أفاق نون من إغمائه، وقال بوهن بعد برهة من استيعاب ما حوله:

- أطلس.. أنا أموت والرجال في جوفي... ليس في جوفي سوى الجثث
- أخبرني كيف حدث ذلك
- تلك السفينة.. إنها لا تصطاد الحيتان إنها... لا أدري، أنا لا أستطيع التنفس

ابتعد عنه أطلس وتوجه إلى السطح ليرى تلك السفينة عن كثب، لكن استوقفه نون:

- لا تفعل، لا تصعد.. لا يهم الآن، يجب أن تذهب فهناك حوت شارد على اليابسة القريبة، اذهب وانقذه فهو يحمل رسالة إليك
- أي رسالة؟
- كنت أريدك... إنه... أنا أختنق يا أطلس، يجب أن أصعد...

بدأ نون يرتقي بهدوء نحو السطح، فقال أطلس:

- لا، لا تذهب.. ابقَ معي.. أخبرني أنتَ بمَ تريد
- أتدري.. لا يهم أن أموت ويقطعوني إلى أشلاء، لكن لن أموت مختنقًا.

استمر نون في صعوده حتى خرج من الظلام فرأى أطلس فجوات في جسده تنضح بدمائه، وأثناء ما كان يصعد معه كان الرجال النائمون في جوفه يشاهدون الأمر كله، ثم لم يتركه إلا بعد أن نفث آخر زفرة.

بعدها توجه أطلس بسرعة إلى أقرب يابسة إليه، وقد أخبر رجاله أن يخرجوا لإنقاذ حوت شارد عليها، فخرجوا وأتموا الأمر بنجاح بمساعدته، لم يكن أطلس يسمع الأصوات التي فوق سطح الماء، لكن حين عاد الحوت إلى

المياه شبه حي سمعه يغني: "الحيتان الرمادية.. إنهم كثيرون ومنعزلون ومتوارون، متوارون عن البشر وعن الحيتان وعن المحيط، إنهم في أكبر المحيطات وأظلمها، يعيشون عند شاطئ المحيط ذو الشاطئ الذي لا ينتهي"، وقد كانت تلك آخر كلمات يغني بها الحوت، فقد مات بعدها.



كان بوهاردي وأوساي وسامبار وعمار؛ على متن السفينة يقفون عند سورها، ينظرون إلى سفينة أخرى واقفة بثبات بجانبهم، يخرج منها حبلًا يصعد إلى السماء حيث كانت سفينة أخرى، لم تكن تتحرك رغم أن جميع أشرعتها كانت منزلة وتضربها الرياح بقوة، وكان يطفو من حولها قطع وشظايا من الخشب الأسود، فكان جسم السفينة محطمًا وبه فجوات سوداء كأنه ضرب بالمدافع، حتى أنهم تعجبوا من أنها لا تغرق.

لم يلفت انتباههم كل ذلك بقدر البحارة الذين كانوا على متنها، وبدا عليهم الخوف لما وجدوهم جميعًا موتى غارقين في دمائهم، حتى قال بوهاردي:

- مهلًا! أعرف هؤلاء.. هل تذكر يا أوساي؟، إنهم... لقد قابلناهم من قبل، إنهم سكان الحوت الآخر.. ألا تتذكر يا سامبار؟

رَدّ سامبار:

- هل أنت متأكد يا بوهاردي؟.. كان ذلك منذ زمن
- نعم متأكد، أنا لا أنسى وجهًا رأيته

فقال أوساي:

- بالفعل يبدون مألوفين كثيرًا

ثم قال أطلس:

- أنت محق يا بوهاردي.. إنه "نون" الحوت الذي قابلتموه من قبل، وهؤلاء هم رجاله...

- ماذا حدث لهم؟
- نون على شـفا الموت، ورجاله.. إنهم كما ترون ميّتون بالفعل، لم أكن موجودًا حينها، لكن ســـفينة صــــيد حيتان هي ما فعل هذا، لا أدري كيف.. لقد كان نون عظيمًا ومهيبًا.. لا أدري كيف تجرأوا!!!
- ماذا عن رجاله؟ هل كانوا يفعلون مثلما نفعل؟ أعني اصـــطياد ســـفن الحيتان
- نعم.. وكانت تلك إحدى السفن...

قاطعه بوهاردي:

- لقد أصبحوا أكثر جرأة.. يجب أن نرُدّ لهم ما فعلوا
- لم أعد أريد أن تعرضوا حياتكم للخطر

قال بوهاردي في امتعاض وسأم:

- بحقّك يا أطلس! نحن نفعل ذلك منذ عشـــرات الســـنين، فقط لا تقلق.. نحن لها

وقبل أن يتلقى بوهاردي ردًا قال أوساي بانفعال وهو يشير إلى السفينة:

- يا رفاق!.. انظروا! هناك شيء يتحرك... إنها إحدى الجثث

وبالفعل كان هناك رجل يعتدل جالسًا بعد أن كان ممددًا، فتساءل عمار:

- كيف لا يزال على قيد الحياة؟!

ثم هرع الرجال إليه، فاستوقفهم أطلس قائلًا:

- ستغرق هذه السفينة.. عودوا إلى سفينتكم قبل أن تغرق، وبالطبع قبل أن تستيقظوا

وجدوا ذلك الرجل يجلس شـاردًا كأنه لا يعبأ بأي شـــيء، على الرغم أنه كان مخضـــبًا بالدماء من رأســـه إلى اخمص قدمه، وحين لاحظ الرجل وجودهم أخيرًا قال وهو ينظر إلى أوساي:

- ألا أعرفك؟!، أنتم سكان أطلس أليس كذلك؟.. لكن أين أنا؟

ردّ أوساي:

- أنت في الحلم
- أه أنا لم أمُت بعد! مهلًا!...
- إذًا نون أيضًا لم يمُت بعد

قالها بابتسامة طيبة، وأرجع رأسه إلى الخلف كأنه قد اطمئن واستراح، ثم أسبل جفونه بوهن، فقال بوهاردي بانفعال وعصبية:

- لا مهلًا.. انتظر انتظر!!!

فزع الرجل وقال:

- ما بكَ؟! لم أذهب بعد
- أه معذرةً!.. أريد فقط أن أعرف ماذا حدث لنون ولرجاله

سحب الرجل نفسًا طويلًا، وقال بعد أن زفره:

- الأوغاد.. لقد قتلوا جميع إخوتي ثم نون...
- من؟ من الذي قتلهم؟
- ظننا أنها حوّاتة عادية.. آه! بحق السماء لقد بدت كذلك، إلا أننا حين صعدنا وجدناها سفينة حربية، بها مدافع وجميع طاقمها مسلح بالكامل، كانوا كثيرين ولم يبدوا كالجنود، كانوا بحارة عاديين إلا أنهم مدربين على القتال جيدًا

ومن غير أن يجرؤ أحد على مقاطعته سكت الرجل يلتقط أنفاسه ويزدرد ريقه، ثم عاد يكمل:

- كأنهم كانوا في انتظارنا نحن بالذات.. دوَّروا القتل فينا، حتى أن نون حاول أن يغرقها، لكنهم ضربوه بالمدافع.. بعدها ألقوا بالجثث في البحر، أعتقد أن نون التقمنا في محاولة أخيرة للمساعدة...

سأل بوهاردي:

- هل تذكر أي شيء مميز في تلك السفينة؟
- قلت لكم أنها بدت كسفينة صيد حيتان عادية، لكنني أذكر اسمها جيدًا "عاهرة نانتوكيت"

قال عمار يحاول أن يخفف عنه ويواسيه:

- سنجد تلك السفينة.. سنجدها وندمرها
- لا، لا أريدكم أن تنتقموا لنا، فقط خذوا حذركم حين تخرجون إلى السطح...

سكت الرجل لبرهة ينظر إلى السماء من حوله في استغراق وأكمل:

- أعتقد أنه حان الوقت.. بلغوا أطلس تحياتي.. وأخبروه أن يأخذ حذره هو الآخر

ثم عاد يستلقي وتقوقع على نفسه، وثنى ذراعه ووضع رأسه عليه ونام كأنه طفل صغير.

ورجع الرجال مسرعين إلى سفينتهم لما بدأت سفينة نون تهتز وتميل، وشاهدوها وهي تغرق ببطء وتصدر صريرًا يفطر القلب.

ولما غرقت وغابت في الماء قال أطلس:

- اجلبوا معكم الحِبال حين أستدعيكم في المرة القادمة

فقال عمار:

- حِبال!!! لماذا؟

لكنه استيقظ قبل أن يتلقى الرّد.



أراد دكرور أن ينام بعدما استيقظ بوهاردي، لكنه امتنع عندما أيقظ بوهاردي النائمين وجمعهم ليخبرهم بشيء.

فقد كان دكرور يتجنب النوم أثناء ما ينام بوهاردي، إذ كان يقابله في عالم الأحلام بشكله وهيئته الأصلية وليس بشكل بيدرو الذي يعرفه، ولطالما كان ذلك الأمر يخيفه بعد أن يستيقظ ويصيبه بالقشعريرة عندما يتذكره.

أول مرة يراه في الحلم لم يعرفه إلا بعد أن استيقظ، فشعر بالخوف وتعجب جدًا من الأمر، لكنه لم يسأل أحدًا عنه حتى عرف بأمر بيدرو وحده، فكان يرى بوهاردي في الأحلام بعيون سوداء وليست صفراء، وبشرة سوداء وليست بيضاء، وشعره أشعث تمر فيه خطوط الشيب وليس ناعمًا ولامعًا؛ مثل بيدرو.

لم يكن يعبأ بذلك أو يلاحظه وهو في الحلم، لكنه حين يستيقظ من حلم تشاركه مع بوهاردي؛ كان يشعر بكآبة غير معلومة السبب، لذلك كان يتجنب النوم أثناء ما كان ينام بوهاردي، ليتجنب ملاقاته في عالم الأحلام.

ولسنتين كان ينام وهو يأمل أن يجد تاندي في انتظاره على سفينة أطلس، لكنه لا يكون هناك، مرت تلك السنتين طويلتين وثقيلتين، لم يتعافَ البعض من تلك الفاجعة حتى الآن، ومن فعل فقد فعلها بصعوبة وبطء، فلم يخرجوا من الجوف سوى بضع مرات للمرح وليس للصيد، وفي السنة الماضية بدأوا يعودون إلى عملهم المعتاد، لكن لم يخرجوا لاصطياد السفن سوى مرات قليلة، أكثرها كان في آخر شهر فقط.

وكان ذلك مما ساعد البعض على التعافي، وصار دكرور يساعد مافي في خرق السفينة حتى لا يكون بإمكان أفضل نجار على إصلاحها، كما أنهم صاروا يفتشون كل سفينة بعناية بحثًا عن أي أسلحة أو ذخيرة، حتى أصبح لديهم ترسانة متواضعة في داخل الجوف.

قال بوهاردي ولا زال أثر النعاس في صوته:

- والآن هل الجميع هنا؟ حسنًا يجب أن تسمع ذلك يا موريس...

ثم جلس بين الرجال وأردف:

- هل تذكرون "نون".. الحوت الذي قابلناه منذ قرابة الخمسـين عامًا؟ حسـنًا لقد عرفنا مِن أطلس أن هناك سـفينة تحويت اسـمها "عاهرة نانتوكيت" قد قتلته هو ورجاله

سأل موريس:

- متى حدث ذلك؟
- لا نعلم.. ربما مات نون منذ دقيقة

ثم قال رالف:

- نانتوكيت؟! أليست تلك هي المدينة التي أخبرتنا عنها يا أوين؟

أومأ له أوين وقال:

- نعم، نانتوكيت عاصمة التحويت

ثم أكمل بوهاردي كلامه:

- على كل حال.. يجب أن نأخذ حذرنا أكثر و...

قاطعه أطلس بصافراته الثلاث، فقال بوهاردي:

- اللعنة!.. حسنًا يجب أن نخرج ومعنا كل الحِبال

سأل دييجو:

- أهو حوت شارد؟

سمع مافي تلك الكلمة فقال بسأم:

- آه لا! هل عدنا لفعل ذلك؟!

ثم جهز الرجال وحملوا كل ما كان في الجوف من حبال، وخرجوا ليجدوا أنفسهم قريبين جدًا من يابسة يحدّها شاطئ واسع من الرمال البيضاء، ومن بعده غابة كثيفة.

كان ضـــوء الشـــمس المطفي يلوح في الأفق أعلى صـــفحة المياه الهادئة، ومن دون أن تتواجد الشمس بنفسها فلم يكن هناك سبيل للتمييز إن كان ذلك الغسق أم الفجر، فقط النجوم كانت تتلألأ لتنير الشاطئ وتزيد رماله بياضًا.

ثم ارتقى جميع الرجال ظهر أطلس، فرأى دكرور كتلة كبيرة ســـوداء ملقاة على الشاطئ صعب أن تميز ماهيتها من تلك المسافة، وفوقها سحابة من النوارس تطوف حولها، ثم قال بوهاردي مشيرًا إلى الجزيرة:

- ها هو هناك! حسنًا فلنبدأ العمل...

ثم انهمك هو ومافي ورالف في لف الحِبال حول جسم أطلس.

كان دكرور يعلم بأمر إنقاذهم للحيتان التي تعلق على الشاطئ في السابق، لكنه لم يعلم الكيفية فلم يكن يلقي للأمر بالًا، والآن وبعد أن فكّر في الأمر أكثر؛ ازداد حيرةً ولا يزال لا يعلم كيف سيفعلونها، وسأل:

- لكن ماذا يفعل على الشاطئ؟

أجابه أوساي:

- ربما قد تاه، أو سأم من السباحة، أو ربما فقط لأنه غبي!
- ألا يتنفس الهواء مثلنا؟.. لماذا يحتاج إلى إنقاذ إذًا؟
- أممم! لا أدري.. إنه فقط يموت حين يخرج من الماء
- هذا ليس منطقيًا.. ألا يمكنه انتظار عودة المدّ؟

ردّ موريس وقد بدا عليه السأم من كثرة أسئلة دكرور:

- سيموت قبل أن يأتي المدّ يا سيد منطقي! والآن خذ أحد أطراف الحِبال واسبح إلى ذلك الحوت وسنوافيك

أخذ دكرور طرف حبل وجده أمامه، وهو لا زال غير مقتنع بالأمر كله، فقال وهو يعلم أن موريس ربما سيقتله إذا تكلم:

- أعني.. ألن يؤذيه ذلك؟

انتهى بوهاردي من لفّ حبل عدة مرات حول رقبة أطلس وزعانفه، ثم ردّ على دكرور:

- أتعلم يا دكرور! اعتدنا فعل ذلك كثيرًا، لكننا توقفنا حين قتلنا من تلك الحيتان أكثر مما أنقذنا، ربما تلك الحيتان الشاردة هالكة لا محالة لكننا فقط نساعد.. إن أطلس يساعد، رغم أن ذلك يسبب له الألم الشديد، اعطني هذا...

وأخذ من دكرور طرف الحبل وربطه بإحكام بحلقة الحبال الملفوفة حول أطلس، وكرر الأمر مع أكثر من عشرة حبال أخرى، ثم سلّم أطرافها إلى موريس وإلى رالف ثم دييجو ودكرور وسيجورد، وسبح خمستهم نحو الجزيرة.

شعر دكرور بالغرابة وهو يغرس قدماه في الرمال، وقد كانت آخر مرة يلمس فيها الرمال منذ أربع سنوات، لم يشعر بالحنين مثلما أراد، لكنه شعر بعدم الأمان أكثر شيء، وأن الأرض ستبتلعه إن وقف عليها أكثر، فقرر أن يعجل في الأمر لكي يعود إلى الجوف في أقرب وقت، وسار رالف بضع خطوات في الرمال وقال كأنه يلقي شعرًا:

- أيتها اليابسة! كنت أتمنى أن أشتاق إليكِ ولكل ما عليكِ من رمال وأشجار، وكل ما فيكِ من رائحة وألوان، لكن تبًا لكِ ولكل ما عليكِ وكل ما فيكِ

انقبض قلب دكرور وشعر بالمغص أول ما رأى الحوت، فقد أعاد إلى ذاكرته حلمًا كان يتمنى بشدة أن ينساه، إنه ذاك الحلم الذي رأى فيه صيد الحيتان ربما مائة مرة، وكان أكثرهم من ذلك النوع من الحيتان القوية المراوغة ذات الرأس العظيم.

وبدأوا جميعًا يربطون الحبال حول الجسد الهائل، يمررونها في الرمال من تحت الحوت ويلفّونه بها عدة مرات، ويبدو أن سيجورد جديدًا على الأمر هو الآخر، ودكرور يشاهدهم في حيرة فقال:

- حسنًا هل سيخبرني أحد بما أفعل أم ماذا؟

فقال موريس وهو منهمك في العمل:

- يمكنكَ أن تربط حبلين آخرين في الذيل.. بإحكام وبحذر قدر الإمكان

لعن دكرور ذلك الحوت وذلك الشاطئ ولعن موريس، ثم اقترب بحذر من الذيل الخامد وألقى عليه الحبلين ودار حوله ليبدأ بلفّه عدة مرات كما خطط في ذهنه، لكن الحوت رفع ذيله وضرب ظهر دكرور بعنف كاد أن يكسره وأسقطه على وجهه في الرمال، وضحك سيجورد ودييجو وعنّفه موريس وحذره من الذيل، فنهض دكرور يستشيط غضبًا وعاد إلى الذيل الذي يلوّح في جميع الاتجاهات بوهن، وظل يراوغه ويتفاداه حتى لفّ الحبال عدة مرات وربطه بإحكام.

ولما انتهى وقف يلهث ويمسك بظهره، وقال بتهكم:

- ربما كان من الأسهل أن نحمله سويًا ونرميه في البحر

ثم ذهبوا يقفون ونصفهم في البحر، وأخذوا يصيحون ويلوِّحون بأيديهم عاليًا إلى أوساي الذي بقيَ مع أطلس، والأربعة الآخرون في البحر قريبين من الشاطئ يتعلق كلًا منهم بأحد الحبال، فسأل دكرور:

- ماذا يفعلون في الماء؟

أجابه رالف:

- سيقطعون الحبال إذا نجح الأمر
- إذا نجح الأمر!! إذا نجح الأمر فليقطعوا...

سكت دكرور لينصت إلى صوت احتكاك كالخدش من وراءه، فالتفت بسرعة إلى الحوت فرآه كما هو لكن يحرك ذيله وزعانفه أكثر.

واقترب أطلس من الشاطئ أكثر فلاحظ دكرور الحبال ترتخي في الماء، ثم شُدّت بسرعة شديدة فتزحزح الحوت مسافة قصيرة نحو البحر، حينها

نفث أطلس وعَلَت صيحات الانتصار والتشجيع من الرجال على الشاطئ وفي الماء.

تسمر دكرور في مكانه ينظر بإعجاب إلى كل ما يحدث، وإلى الحوت وهو يتحرك قدمًا إثر أخرى، والرجال يرفعون صيحاتهم في كل مرة، ثم قال دييجو بانفعال وسعادة:

- ها قد أتى الجزء الممتع!

فهرع خلف الحوت وتبعه البقية، ثم تبعهم دكرور فوجدهم يدفعون الحوت بأيديهم العارية، فبدوا أنهم هم من يحركونه حين يتزحزح نحو البحر، رآهم دكرور وضحك بشدة وهو يقول:

- لا بد أنكم تمزحون! ما الفائدة من ذلك وهناك أطلس يشده بنفسه؟!!

ردّ رالف بصعوبة وهو يدفع بكل قوته:

- لا فائدة أيها الغبي! إنه يعطي شعورًا رائعًا فحسب

وانضم إليهم دكرور في جنونهم وأخذ يدفع الحوت بكل ما أوتيَ من قوة، وبالفعل كان شعورًا غريبًا بالقوة والنشوة وأن بإمكانه دفع أي شيء حتى وإن كان حوت.

ثم بدأت الأمواج تضرب الحوت كأنها تعاتبه على تركها، وما أن وصلت المياه حتى نصفه أخذ يتلوى ويضرب بذيله البحر، حينها بدأ من في الماء بقطع الحبال بسرعة، ثم عادوا إلى الشاطئ وهم يصفّقون ويهنّئون بعضهم في حماس وسعادة على هذا الإنجاز، ووقفوا ينظرون إلى الحوت وهو يغيب في الماء.



(4)

لم يقرَب أطلس المحيط الهندي من بعد أن تركه نون، فقد كان نون عائلته التي ماتت، وفصيلته التي أضاعها، وأخاه الذي لم يحظَ به، وإذ إن هو ما كان ينسيه أنه وحده، فقد صارت وحشته لا تطاق، ووحدته أشد من أي وقت مضى؛ بعد رحيله، وأيضًا لم يمكث في الأطلسي كثيرًا حتى انتقل إلى الهادي، بحثًا عن الحيتان الرمادية كما علم من رسالة نون.

لم يحتَج لأن يدرك أن المحيط ذو الألف شاطئ؛ هو المحيط الهادي، ولم يشغله في الرسالة سوى أنهم يعيشون على شاطئ المحيط الهادي متوارين عن العالم، معنى ذلك أنه يجب أن يلفّ ذلك الشاطئ إلى أن يصادفهم، وهذا وإن لم يكن مستحيلًا فإنه سيستغرق دهرًا، لكنه لم يعبأ لذلك وشرع في رحلة البحث تلك على كل حال.

سبح كثيرًا بمحاذاة اليابسة، حتى شعر أنه لفّه مرتين، لكنه علم أنه لم يقطع سوى جزء يسير من ذلك الشاطئ الذي لا يعلم له من آخِر، ثم لم يكن هناك شك في صدق رسالة نون عندما عاد شعوره بالحيتان الرمادية وتكرر، لكن كل مرة كان يذهب كما يذهب الحلم من الرأس بعد الاستيقاظ.

وذلك قبل أن يمل من البحث، ويسأم من اليابسة التي لا يحب أن يقرَبها، فشرِد مبتعدًا عنها يريد أن يكون أبعد ما يكون عن يابسة، وذلك لا يكون في أي مكان في العالم إلا في وسط المحيط الهادي، ذلك المحيط المتكبر كأنه يعلم كم هو كبير، والعدواني كأنه يعلم كم هو متقلب، والحزين كأنه يعلم كم هو وحيد.

وعندما علم أنه وصل إلى قلب المحيط الهادي؛ وجد عنده صديقًا لم يرَه منذ زمن، لم يرَه رجاله من قبل لكنهم رأوا الحيتان الزرقاء، فعلم أطلس أنه حوت أزرق، لكنه لم يكن يعلم ما هو الأزرق كما لم يعلم ما هو الرمادي، كان حوت أزرق ذو جوف، سمّاه سكان جوفه "كيانج"، لم يكن كيانج أكبر حوت على الإطلاق، لكنه كان أكبر حوت رآه في حياته بل أكبر شيء حي رآه في حياته.

بدا على كيانج السعادة الشديدة لرؤية أطلس، وبادله أطلس الشعور لكن في شيء من الأسى، فبدأ كيانج الحديث:

- لذلك لم أجدكَ في المحيط الأطلسي
- هل كنتَ هناك؟
- نعم، بعد أن غادرتُ المحيط الهندي بحثًا عن نون ولم أجِده هو الآخَر

يعرف أطلس بما يخبره لكن لا يعرف كيف يخبره، فقد كان نون وكيانج صديقين من قبل أن يعرفهم أطلس وربما من قبل أن يولد، فقال رغم ذلك:

- قد قُتِل نون منذ فترة...
- قُتِل

لم يقلها كيانج كسؤال، ولم تبدُ عليه الدهشة أو الحزن بقدر ما بدا عليه الغضب، فقال أطلس:

- قتلَته سفينة
- أي سفينة بإمكانها قتل نون؟
- بدا له ولرجاله عندما خرجوا أنها سفينة عادية تقتل الحيتان، لكنها كانت أكثر من ذلك
- وهل كنتَ هناك حينها؟
- نعم، لكن بعد فوات الأوان
- هذا غير معقول.. كيف يحدث ذلك؟
- لا أعلم، كان عليه جروح لم أرَها في حوت مَصِيد من قبل، جروح أشد من أن تسببها حربة
- ماذا إذًا؟ هل نكثف جهودنا؟ أيمكنك التكفل بالمحيط الهندي؟
- لا أعلم، لم يخرج الرجال منذ ذلك الحين، وقبلها لم أكن أخرجهم كثيرًا بعد أن مات أحدهم
- خذ وقتكَ.. لكنني سأرد لهم ما فعلوا بنون

ثم أردف بعد أن هدأ عنه الغضب:

- ماذا تفعل هنا على كل حال؟ هل أردتَ شيئًا مني؟
- قبل أن يموت نون أرسل لي رسالة أن الحيتان الرمادية تعيش في المحيط الهادي وليس الأطلسي
- أوَلَا زلتَ تبحث عنهم؟
- نعم، وكان نون يبحث معي، قال أنهم يعيشون عند شواطئ الهادي
- لا أعلم بشأنهم.. لكن أعدك أني سأجدهم من أجلك

تذكر أطلس شيئًا آخر ربما سيسهل على كيانج البحث، فقال:

- هل تعرف حوت صائب ذو جوف يعيش وحده في شمال الأطلسي؟
- نعم، أظن أنه مات هو الآخر.. لقد تمادى البشر كثيرًا

بالطبع لم يرِد أطلس أن يخبره أنه هو ورجاله من قتلوه، فاكتفى بأن قال:

- قد أخبرَني أنه يعرف أين الحيتان الرمادية، دون أن يخبرني أين
- إذًا ربما هم قريبين من هناك، فقط ارجع إلى محيطك وسأتكفل بالأمر

فعل أطلس ما قال كيانج، وعاد إلى المحيط الأطلسي وكله امتنان أنه ليس عليه البقاء في هذا المحيط أكثر.

وكان أول ما فعل بعد أن عاد أن أخرج رجاله إلى سفينة، وفي حين أنهم لم يخرجوا منذ فترة طويلة فلم يكتفوا بسفينة واحدة وأسقطوا أخرى كانت على مقربة، ثم عادوا بعد أن انتهوا وقد جلبوا معهم شيئًا آخر، شيء لم يرَه أطلس أو يفكر فيه من قبل، فلم يمانع إدخاله، لكن بعد أن أمعن التفكير أكثر في ذلك الشيء وفي رجاله؛ علم أنه سيسبب له الاضطراب في جوفه.



عاد دكرور إلى بيته فوجد الحوت أمّه تحتسي الخمر مع أطلس فجلس معهما وتناول كوبًا هو الآخر لكنه كان فارغًا فطعن أطلس بخنجره وملأ الكوب بدمه الأصفر المضيء وشربه حتى سال على ذقنه فخرج أطلس مستاء ودخل

بعده أوساي الذي كان رجل صحيح كامل بل رجل عملاق فأمسك بتلابيب دكرور وبدا كأنه يعنفه لكنه كان يضحك ويغني ثم صفع دكرور صفعةً أعادته إلى عالم اليقظة

كان دكرور يمشي على ذلك الطريق المؤدي إلى عالم النوم؛ حين صفعه أوساي وأجبره على العودة، فاستيقظ ليجده رافعًا كفه فوق وجهه على وشك أن يكرر صفعه، لكنه توقف حين نظر إلى دكرور ووجده فاتحًا عينه ينظر إليه شزرًا.

استلّ دكرور خنجره قبل أن ينهض بسرعة، فهرع أوساي يركض بطول السفينة، ودكرور وراءه حاملًا خنجره في يده، وحين كاد أن يدركه ألقى أوساي بنفسه من السفينة من دون أطلس ليلتقمه، فنادى عليه دكرور:

- إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟ كلنا عائدون إلى جوف واحد

فقال عمار وهو يشير إلى الأفق:

- يا رفاق! ربما لن نعود الآن...

نظر الجميع إلى حيث يشير فوجدوها سفينة أخرى بعيدة، فقال دييجو:

- تبًّا! هل رأونا؟

أجاب موريس وهو ينظر إلى السفينة البعيدة من خلال منظار:

- وإن لم يرونا فسوف يرونا، إنها سفينة تحويت...

ثم رفع المنظار عن عينه وأردف:

- والآن هل سنقاتل؟ لم يحدث أن أسقطنا سفينتين في مرة واحدة من قبل، أليس كذلك؟.. القرار لك يا هاردي

فردّ بوهاردي بثقة وحماس وهو عاقد ذراعيه إلى صدره:

- بالفعل ستكون هذه سابقة، لكن هل يشعر أحد بالتعب؟ دكرور! هل ذهب صوتك بعد؟

تنحنح دكرور كأنه يختبر صوته ثم قال:

- لا! لا أظن!
- كما لم يذهب بصري بعد، وكما لم تضعف قوّتي بعد، والآن فليستعِد كلًا منكم حربته.. لأننا لم ننتهِ بعد!

رفع الرجال قبضاتهم وصيحاتهم، إلا أوين فقد قال:

- حسنًا! ما الخطة إذًا؟

بدا على بوهاردي الحيرة، حتى ردّ موريس:

- يجب أن ننتظر حتى تأتي تلك السفينة، وستأتي على كل حال...
- وإن لم تأتِ؟
- ستأتي حين ترى هذه وهي تغرق، مافي! انزل واخرقها، وسنتوارى خلفها حتى تأتي الأخرى.. مفهوم؟!

نزل مافي إلى الكوثلة ومعه دكرور وخَرَقا السفينة وبالغا في ذلك، ثم عادا وأصبح الجميع في الماء يختبئون من السفينة المتجهة صوبهم، وبوهاردي يراقبها بحذر حتى أصبحت على مسافة يمكن السباحة إليها من تحت الماء، ثم غاص وسبح من تحت السفينتين، وتبعه رجاله.

كان سطح السفينة هادئًا إلى حدٍ ما، وكل بحارتها يقفون عند السور المقابل يشاهدون السفينة الأخرى وهي تغرق ببطء، فسار بوهاردي بهدوء إلى إحدى صناديق الجِراب ففتحها وجلس بجانبه متواريًا عن البحارة حتى يصعد باقي الرجال.

وهرع أوساي يتسلق الصاري الرئيس، فوقف بوهاردي وأخرج بندقيته وصوبها نحو البحارة، وقبل أن يرميهم توقف عن الحركة فجأة حين وجد فتًى لا يبدو أكبر من عمار يشاهدهم باستغراب وخوف، ودون أن ينبس أحد بكلمة هرع الفتى يجري وضرب الجرس بعصبية وهو يزعق قائلًا:

- إنهم هم! لقد جاءوا.. إنهم هم!!!

التفت جميع البحارة إلى الفتى، فوجدوا مافي يهشـــم رأســـه في العمود المعلق منه الجرس، ودون تردد أكثر فتح الرجال النيران، فلم يطلق القليل منهم، والبقية قد فسدت أسلحتهم، فبدّلوها بالحراب وتلك أصابت كلها.

واختبأ بقية البحارة على الفور وأراد الرجال أن يعيدوا الكرة، لكنهم وجدوا بعض البحارة يردّون إطلاق النيران ورمي الحراب، حتى كادت واحدة أن تصيب أوين في مقتل.

ثم توارى كلا الفريقين عن بعضهما يتبادلون رمي الحراب، فقال رالف:

- يبدون أشداء!

رَد أوين:

- بل يبدون أوغاد...

ثم قال دكرور:

- لا يجب أن ننتظر أكثر

فقال موريس:

- بالفعل.. يجب أن نهجم وهم لا زالوا مفاجَئين

فخرجوا من مكامنهم بحرابهم وسيوفهم لاستئناف القتال، لكنهم لم يجدوا أيًا من البحارة، إذ كانوا قد هربوا إلى الكوثلة في الأسفل، ثم صعد أحدهم فجأة وأخذ يطلق ببندقية بعشوائية، فعاد الرجال يختبئون حتى أصابه دييجو بحربته، وظلوا متأهبين في ثبات وسكون يسمعون أصوات الجلبة من البحارة بالأسفل.

وجدوا عمار يسير بهدوء والتقط بندقية، وشاهدوه يفك رباط أحد البراميل ودحرجه أمامه حتى أسقطه في فتحة الكوثلة، فسمعوه يتدحرج على السلم فنزل عمار وراءه وأطلق عليه محدثًا انفجارًا لم يكن كبيرًا، لكنه كان كافيًا لإنهاء القتال.

وخرج عمار تحسبًا لأن لا يزال أحدهم حيًا، واقتربوا جميعًا من فتحة الكوثلة شاهرين أسلحتهم، ثم توقفوا فجأة وتوتروا حين وجدوا حربة ترتفع ببطء معلقًا من أعلاها قطعة قماش أبيض مهترئ.

قال رالف لموريس باستغراب شديد:

- هل يستسلمون؟!!

لم يرُد موريس عليه، لكنه قال:

- اخرج ولن يمسّكَ أذى!

ارتفعت الحربة أكثر وظهر حاملها، وكان جليًّا من ملابسه فقط أنه القبطان، ثم تبعه أربعة آخرون، ووقفوا أيديهم مرفوعة في السماء، وقال حامل الحربة يبتذل الثبات:

- أنا قبطان هذه السفينة.. القبطان جيمس وينسلو، سأعطيكم ما تريدون، وسأخبركم بما تريدون، لكن أرجوكم أن تتركوا هذه السفينة وشأنها

نظر الجميع إلى بعض في دهشة واستغراب وقال لهم بوهاردي كأنه يشاورهم:

- هل يريد أحد أي شيء؟

وقال أوين وهو يثبت بصره على القبطان:

- نريد أن نعرف عن سفينة معينة

قال القبطان:

- حسنًا فقط سمِّها لي
- اسمها عاهرة نانتوكيت
- أقسم أني لم أسمع بها من قب...

وقطع كلامه فجأة، وقال بذعر وهو ينظر خلفهم:

- لا! توقف! لا تفعل!!!

قبل أن يلتفت أي أحد أطلِقت رصاصة من خلفهم أصابت دييجو الذي كان يقف متكئًا فأسقطته، وفي اللحظة التالية أطلق أحد البحارة رصاصة أخرى على رالف أصابته لكن لم تسقطه، فرمى أوين حربته أولًا لتصيب القبطان، ثم انهالت الحراب على البقية فصرعتهم كلهم، وكان سيجورد قد قضى على مطلق الرصاصة الأول، والذي كان عبارة عن جثة عادت إلى الحياة لتطلق النار على دييجو وتعود إلى الموت مرة أخرى.

ولحسن حظهم البحت، أصيب دييجو في ساقه التي لم يعد يشعر بها على كل حال، ما سيجعله محط سخرية لعدة أيام أخرى، وأضيفت رصاصة أخرى إلى جسد رالف وتلك المرة كانت في ذراعه الأيسر فلم تقتله فورًا، فلكنهم أعادوه إلى الجوف فورًا، وأصيب البقية إصابات طفيفة يمكن أن تشفى تمامًا بداخل الجوف.



بدأ الرجال يعودون إلى الجوف فور أن انتهى القتال، فقد مكثوا خارجه لمدة طويلة بالفعل، لكن دكرور لم يُرِد أن يعود الآن، كما أنه لا يشعر بأي تعب أو أن صوته قد ذهب، فانضم إلى مافي كما أصبحت عادته ليغرقوا السفينة، وأكمل مافي حديثه مع دكرور قائلًا:

- ربما حسبنا قراصنة
- لا أعلم.. لقد بدا كأنه يعرفنا
- وكيف له أن يعرفنا أيها الغبي؟!
- لا أدري.. لم أشهد قتالًا مثل ذلك طوال سنواتي الخمس هنا، وأنت! منذ متى وأنت تفعل ذلك.. هل رأيتَ قتالًا أشرس من ذلك؟ هل طال قتال لدرجة أن يستسلموا؟
- ربما لم يستسلم أحد من قبل، لكن لم يطُل قتال مثلما كان يوم موت زيمان ويوم بيدرو.. أفعل ذلك منذ قرابة الستين عامًا ولم أشهد مثل هاذين اليومين حتى الآن

- اللعنة!.. كم أصبح عمرك الآن؟
- آه! إن كنا في عام ستة وأربعين.. فهذا يعني أنني... في عامي التاسع والعشرين بعد المائة
- اللعنة!!! بدأت أشعر أنها لعنة، وأنا ملعون بتقبلي إياها
- ربما تكون لعنة وربما نكون ملعونين، لكنني أفضّل أن أكون ملعونًا في هذه الحياة على أن أعود إلى حياتي السابقة
- حقًا! وكيف ذلك؟ بالفعل يا مافي أنت لم تخبرني من قبل كيف غرقتَ
- أنا غالبًا لا أحكي كيف غرقتُ، لكنني أحبك أيها الوغد البائس!

ضحك دكرور، ثم عاد يسأل:

- إذًا لم يلقوكَ لتخفيف حمولة السفينة؟
- ماذا! من أخبرك ذلك؟
- عمار
- اللعنة على ذلك الغبي! سأقتله

ثم زفر ضحكة يائسة ساخرة وقال كأنه يحكي مشهدًا يراه أمامه:

- لم أعد أذكر إن كانت هناك عاصفة أساسًا، لكن لم تكن العاصفة قد وصلتنا بعد حين أخبرَنا النخاسين أن ننتقي أحدنا لكي يُلقى من السفينة وإلا قتلوا جميعنا، أنت تعلم أن بإمكاني الفتك بعشرة رجال.. لكنهم كانوا أحد عشر...

هزّ رأسه وهو يبتسم بيأس وأردف:

- أتدري.. لم أكن لأعبأ إن كان النخاسين هم من فعلوها
- تبًّا! وأنا الذي كنت أعتقد أنني أشقى من دخل جوف حوت
- حسنًا.. ستحكي لي كيف دخلت جوف ذلك الحوت حين نعود إليه، لكن الآن يجب أن نغرق هذه السفينة

ثم أعطاه فأسًا وابتعد يبحث عن منطقة صالحة لصنع الخَرق، وجلس دكرور على أحد براميل الزيت، يمدّ ذراعه يتأمل جرحًا طويلًا فيه، كان

يؤلمه ويحرقه، لكن كل ألم كان يذهب من مجرد التفكير أنه سيعود إلى الجوف وسيذهب الألم الفعلي، حتى تناهى إلى سمعه صوتًا آتيًا من ورائه يشبه مواء القطط، فالتفت بحدة:

- مَن هناك؟!!

رَدّ مافي من الجهة الأخرى:

- أنا هنا أيها الأحمق!

نظر دكرور يتفحص المكان، ثم عاد صوت المواء، فوجد أنه آتيًا من براميل مغطاة بغطاء أسود، وبالفعل وجد شيئًا يتحرك من تحته، ثم سمع صوت طرق مافي على الخشب عدة مرات، فرفع فأسه متأهبًا، فعاد مافي وهو يقول:

- هل ستساعد أم ماذا؟

وضع دكرور سبابته على فمه بعصبية يحذره من الكلام، فسبّه مافي وعاد إلى عمله، وسرعان ما سمع صوت تدفق الماء أثناء صوت طرق الفأس على الخشب، فاستجمع دكرور شجاعته وقبض على فأسه بإحكام وسحب نفسًا ثم سحب الغطاء.

فغر فاه واقشعر جسده وتراجع خطوة وأرخى فأسه، كأنه رأى وحشًا أو حوت قاتل يريد أن يفتك به، وأسوأ ما توقع هو أن يكون رجلًا مختبئًا، لكنه لم يكن وحشًا أو حوتًا أو قطة حتى أو رجل، بل كانت أول فتاة يراها منذ خمس سنوات.

كانت تمُد ذراعها بسكين تصوّبه نحوه، بالطبع لم يكن ذلك ما جعله يذعر، بل ما كان في ذراعها الآخر، والذي كان رضيعًا في لفّته، فأدرك أنه مصدر المواء.



أنا أيضًا جحظت ورفعت حاجبيّ في دهشة حينما وجد دكرور فتاة وطفل على إحدى السفن، فكانت نهاية لا بأس بها لفصل لا بأس به، فأردت أن أكمل بسرعة، ولم أكمل نصف الصفحة التالية حتى جاء دكرور فقلت له:

- لقد بدأت القصة تثير اهتمامي
- حقًا! أين وصلت؟
- عندما... عندما وجدتَ الفتاة على السفينة

قال دكرور باهتمام يبدو فيه التهكم أكثر:

- أه بالفعل! يجب أن تعجبكَ، فقد بدأت القصة للتو

أغلقتُ الكتاب بعد أن تعبت من القراءة لليوم، وقلت لدكرور:

- ألم تتزوج من قبل؟

زفر ضحكة يائسة وقال:

- مرة.. كانت أول وآخر مرة، بعدها أدركت أنها لعنة بالنسبة لإنسان يعيش إلى الأبد، فلم أكررها
- أعرف تمامًا ماذا تقصد، فقد تجرأت مرة وأحببت إحداهن، وكان الأمر أسوأ حين أحبتني هي الأخرى، وزاد الأمر سوءًا حين أنجبنا طفلة جميلة...

لم أقدر على منع نفسي من ذرف الدموع التي قد نضبت من عيني على مدار العشر سنوات الماضية، منذ أن ماتت طفلتي في عمر التاسعة والأربعين ومن قبلها أمها، ثم قلت بعد أن مسحت عيني بيدي:

- ظننتُ أنك وسام زوجين أو ما شابه...

اعتدل دكرور في جلسته وعقد حاجبيه كأنني سببته، وتأكدت بالفعل أنني سببته عندما قال بهدوء لكن بحِدّة:

- احفظ لسانك وإلا طردتُك من هنا!
- ماذا؟! ماذا قلتُ لكل ذلك؟!!

- لن أســـمح لك بأن تهين رجالي! هؤلاء الرجال... هؤلاء الرجال إنهم رجال من قبل أن يكونوا ذكورًا
- ماذا؟!! أنا لم أهِن أحدًا، لاحظتُ فقط أنك وسام صديقين وتعيشان معًا وتحبان بعضكما، هذا ما جعلني أعتقد أنكما...
- أيها المعتوه! ليس معنى أني أحب صـــديقي أني أريد النوم معه، ألا يمكنني أن أحب صـــديقي من دون أن أريد منه شـــيئًا؟ ألا يمكنني أن أحبه فقط لأنه هو؟ ذلك الحب الخالص الذي لا يشوبه احتياج أو شهوة

فقلتُ دون أن أحسب حساب عواقب ما سأقول:

- وهل أحببتَ زوجتك هكذا؟

بدا أن دكرور يقاوم بصـــعوبة ألا ينتزع حلقي بيده وهو يقول من وراء أسنانه التي يجز عليها:

- لا بالطبع! افهم! إن حب المرأة شيء آخر، شيء لا يقارَن بشيء...

ثم هدأ وربما ارتسمت على ثغره ابتسامة خفيفة وأردف:

- لا يجب أن تقارِن حبك لحبيبتك بحبك لأي أحد آخر، فعلاقة الحبيب وحبيبته مبنية أصلًا على الاحتياج لبعضهما، واشتهاء بعضهما، والاشتياق لبعضهما، وكل تلك الأمور التي تجعله مميزًا وجميلًا

ثم أضاف بعد أن عادت إليه جهامته:

- هناك جزء خاوي في قلب كل رَجُل لا يجب أن تَشغَله إلا امرأة، وليس رَجُلًا من شَغَل ذلك الجزء برَجُلٍ آخَر
- أذكر أن وجهة النظر تلك ربما كانت صـــحيحة منذ مائة عام، لكن الناس هذه الأيام...
- اللعنة على الناس هذه الأيام! وجهة النظر تلك صـــحيحة في كل الأزمان، فهمتَ؟
- ربما، لكنني لا أفهم كيف تجد ذلك شيئًا خاطئًا بينما القتل...

- من قال أني لا أجد القتل شــــيئًا خاطئًا؟ إذا كنتَ تتكلم عن الإنســــانية فوبخني كما تشــاء فأنا لســتُ إنســانًا حتى، لكنك تتحدث عن الرجولة، فالقتل وإن نقص من الرجل إنســـــانيته إلا أنه لا ينقص من رجولته شيئًا، والآن لا أريد أن أسمع المزيد في الأمر

ثم سكتنا لمدة، فأردت أن أخفف من حدة الكلام فقلت بمرح:

- ألا زلتَ لن تخبرني مَن مِن ســــكان أطلس يعيش هنا؟ غيرك أنتَ وسامبار، وذلك الرجل الآخر..

ضحك دكرور وقال:

- لِمَ تُصِرّ على أن تفسد الحكاية؟ لقد أفسدتها كفاية بمعرفتك أن سامبار على قيد...

قطع كلامه، ووضع كوبه جانبًا، وقد تحول مرحه إلى أسى، ومسح على جبينه في تأثر شديد، فعلمت أنه لا يحب الكلام عمّن لا يعيش هنا، فلم أسأل في ذلك بعدها، وتركت الرواية لتجيبني...

الفصل السابع

"مَن لا يَجِب أن تَطَأ له قَدَم
في جَوْف حُوت"

(1)

ربما فكر دكرور لثانية أن يشـق رأسـها نصـفين بفأسـه، حتى جاء مافي وقال:

- شكرًا على مساعدتك.. والآن هيّا...

نظر حيث ينظر دكرور وعلامات الذعر على وجهه، فقال كلمة بلغته الأصـلية، يعلم دكرور أنها بمعنى "اللعنة"، وما أن رأت تلك الفتاة مافي أسقطت سكينها، وأحكمت ذراعيها حول الرضيع، وأجهشت باكية تقول:

- أرجوكم**!!!** خذوني**!** خذوني أنا واتركوا صغيري.. أرجوكم يمكنني أن أفعل أي شيء، فقط... إنه... بربّكم**!** إنه صغير**!**

ومعها كل الحق في ذلك، فرؤية مافي بحجمه الهائل، وملابسـه الدامية، وفأسه المميز في يده؛ كل ذلك يكفي لإصابة رجل بالغ بالخوف، قال مافي:

- سأحضر بوهاردي

وهرع إلى المتن، وترك دكرور مع المرأة تبكي وهي تقول:

- أرجوك**!** تبدو رجلًا محترم، أتوسل إليكَ**!** سأذهب معكَ.. سأكون ملككَ وحدك، لكن اترك صغيري إدموند، انظر**!**.. انظر إليه كم هو صغير**!** أترى كم هو هادئ؟**!**

ثمّ قدمت إليه الطفل كأنها تريده أن يحمله، فتراجع دكرور وجفل وأعاد تصويب فأسه كما لو أنه حسبها ستطعنه، ولاحظ كم أن ذلك الطفل صغيرًا، لم يكن دكرور خبيرًا، لكنه لم يحتَج أن يكون كذلك ليدرك أن عمر هذا الطفل أقل من ستة أشهر أو حتى أقل.

عاد مافي ومعه موريس وعمار، فقال عمار أول ما نزل:

- لن أسمح لكم بتفجير هذه السفينة من دوني هذه المرة**!**

فانكمشـــت الفتاة وأحكمت ذراعيها حول طفلها، وكفّت عن البكاء وإن لم تكف عن الارتعاد، ثم قال موريس:

- ما الأمر يا دكرور؟ لقد عاد الجميع بالفعل...

ثم جاء ووقف أمام الفتاة دون أن ينبس بكلمة، ودون أن تبدو عليه أي علامة على الدهشـــة، كأنه يعلم بأمرها مســبقًا، وإن كانت رؤية مافي قد أصــابتها بالخوف؛ فرؤية موريس أصــابتها بالذعر، ثم جاء عمار ينظر من فوق كتف موريس وقال:

- فلتحل بي اللعنة!!! ما هذا الذي بين يديها؟

ردّ مافي:

- إنه طفلها

قال دكرور بصوت متحشرج مبحوح يثير الغثيان في من يسمعه:

- ستغرق السفينة خلال ساعات، ماذا سنفعل بها؟

وبالفعل كانت الســفينة مائلة كثيرًا، وتصــدر صـــريرًا مرعبًا، والمياه تغمرها، تفقد موريس كل ذلك كأنه يتأكد من كلام دكرور، ثم قال:

- ستأتي معنا، نعم! ليس هناك حل آخر

اندهش دكرور واستوقف موريس قبل أن يعود إلى الفتاة وقال:

- لن يكون ذلك صائبًا يا موريس، لم لا نتركها على أحد القوارب؟
- ولم لا تقتلها الآن وتوفر على البحر عناء الأمر؟

ثم اقترب موريس من الفتاة ورضـــيعها، وجثا على ركبته ومد إليها يده برفق، وهو يقول بحنان بدا غريبًا عليه:

- ما اسمك يا سيدتي؟ وماذا تفعلين هنا؟ لابد أنك زوجة القبطان

فقال عمار في تأثر مبتذل:

- فلترقد روحه في...

قاطعه مافي بضـــربه في بطنه جعلته ينحني عاجزًا عن التنفس، ولما لم تتكلم الفتاة قال موريس:

- أعدكِ أنه لن يمسك أنتِ أو رضيعكِ أي أذى، لكن يجب أن تأتي معنا، لدينا مكان آمن.. أترين! للأسف ستغرق هذه السفينة قريبًا، وبالطبع لا تريدين أن يحدث ذلك وأنتِ ورضيعك بداخلها.. صحيح؟

نظرت إليه الفتاة برِيبة وأومأت بتوتر، فمد موريس لها يده يساعدها على الوقوف، لكنها وقفت دون مســاعدة في كبرياء مبتذل، وتقدمت المســير إلى السطح مع عمار ومافي، فاستوقف دكرور موريس وسأله هامسًا:

- وكيف تريد أن تدخلها جوف حوت؟
- ما زلتُ أفكر في كيفية إنزالهم سالمين

فسكت قليلًا يفكر ثم أردف:

- لن تدخل هذه الفتاة إلى فم حوت وهي تحمل طفلها، حسنًا ستتولى أنتَ أمر الطفل، وأنا سأتولى أمر الفتاة

قالها موريس وترك دكرور دون أن يســتفســر منه عن كيفية تولي أمر الطفل، فسكت مضطرًا وتبعه إلى أعلى، فكانت الفتاة تضم طفلها بقوة فبدت أنها تخنقه، وأخذت تلتفت حولها بتوتر وهي تقول:

- أين سفينتكم؟

وكأنه يجيبها؛ أطلق أطلس نفثة عالية من جانب الســفينة، ففزعت الفتاة، وقال موريس بسرعة:

- مافي قيّدها!

بدا مافي مترددًا أو حائرًا، لكن عمار هو من أمسك بإحدى ذراعيها ففعل مافي المثل، فأخذت تتلوى وتركل الهواء، ومن دون تفكير في أي شـــيء، ســحب دكرور الرضــيع من بين ذراعيها بســهولة، كأنه يحمله من مهده،

فبدأت تبكي وتصـــرخ على الفور، وتتلوّى فدفعت عمار عنها بقوة، وأخذت تضرب مافي بيدها الحرة، وهي تقول:

- لاااا! أرجوكم! أرجوك!! لاااا! لن تـأخـذه يـا ابن العـاهرة! أعـده إليّ أرجوك!! عُد إلى هنا أيها الملعون!

كانت صـرخاتها تعلو وتحتدّ كلما ابتعد دكرور أكثر، والطفل بين ذراعيه ثقيلًا عليه كأنه يحمل صـغير حوت، وصـل إلى سـور السـفينة فوقف برهة مغمضًا عينيه ويجزّ على أسنانه كأنه يتألم، إذ كانت كل كلمة تقولها كالفأس على رأسه، وهو يخبر نفسه أو ربما يخبرها؛ أن طفلها سيكون بخير.

ثم حمل الرضـــيع الهادئ على نحو مريب بذراعٍ واحد، وتشـــبث بذراعه الآخر بأحد الحبال وبدأ ينزل، حينها سمعها تقول:

- ماذا تفعل؟! لااا! صغيري.. عد إلى هنا.. لاااا!

لم يسمع دكرور "لا" كهذه في حياته، فكانت تصرخ بها حتى بدت تمزق حلقها، ثم سمعها تسعل بشدة كأنها ستخرج كبدها من جوفها، ورآها أخيرًا وقد أغشيَ عليها.

وجد أطلس فاغرًا فمه، فنظر دكرور إلى الرضـــيع قبل أن يدخل، ليجده ينظر إليه بدوره كأنه يعرفه، فهمس إليه:

- لا تدّعي الثبات أيها الأحمق الصغير! سنعبر أحد أبواب الجحيم الآن!

ثم أحكم ذراعيه حوله وأســـرع إلى الجوف، ليجد الرجال بالداخل في انتظاره، فقال بوهاردي:

- ما الذي أخركم؟ هل واجهتم مشكلة؟

كشـــف دكرور عن المشـــكلة التي بين ذراعيه، فبُهِتوا جميعًا، ما عدا سيجورد فقد انفجر في الضحك.



كان أطلس يغني بصـــافرة طويلة غليظة لا تبشـــر بخير؛ بعد أن دخل موريس وعمار ومافي بالفتاة الفاقدة للوعي، ووضـع دكرور رضـيعها بين يديها، ووقف على مقربة منها مواجهًا لباقي الرجال، ثم خلع موريس ردائه ووضعه عليها ورضيعها، فقال رالف:

- هل جلبتم أم ورضيعها؟

ردّ موريس:

- كانت السفينة تغرق بالفعل حين وجدناها

فقال بوهاردي بغضب:

- اللعنة عليكم!! كيف تفعلون ذلك؟.. كيف يسمح لكم أطلس بالعودة؟

ردّ موريس بعصبية وانفعال جعله مهيبًا أكثر مما هو:

- أكنتَ تريد أن نتركها لتغرق مع طفلها؟ أم نتركها على قارب إلى البحر يقرر مصيرها؟ هه!! هل نقتل الفتيات والرضّع الآن؟.. إن كان أحدًا يريد فعلها فليتفضل...

ثم سحب خنجره وقدمه إلى بوهاردي أولًا فلم يأخذه، ثم إلى رالف ثم إلى باقي الرجال، ولما لم يأخذه منه أحد، وأراد أن يعيده في غمده؛ نتشـــه منه بوهاردي وتوجه به نحو الفتاة، فغيّر أطلس نغمة أغنيته ورفعها وأخذ يكررها، ويبدو أن بوهاردي قد ســـمعها، فتوقف عن أي ما كان ســـيفعل، والتفت إلى الرجال وألقى إلى موريس بخنجره، وقال بيأس وغضب:

- حسنًا يا موريس.. ماذا تريد أن تفعل؟

لكن أوين هو من تكلم:

- يا رفاق! لا يجب أن تبقى هذه الفتاة هنا، هذا الجنس لا يجب أن تطأ له قدم في جوف حوت، صدقوني إنها خطر

تغير صوت أطلس إلى الحِدة بعد أن كان غليظًا، ثم ردّ موريس:

- هل تريد أن تقتلها أنت الآخر؟
- نعم ولكن ليس هنا بالطبع

علَت غمغمة من الجميع ليست واضحة إن كانت معترضة أم موافقة، حتى قطعها مافي:

- هل قلت إنها خطر يا أوين! لا تبدو خطرة لي، أعني أنظر إليها.. إنها تبدو مثيرة للشفقة حتى

ردّ أوين:

- بل نحن من سنكون مثيرين للشفقة.. انتظر وسترى

لم يبدُ على أحد أنه قد فهم مقصد أوين سوى رالف الذي قال:

- ربما أنت محق يا أوين، لكن هل يجب قتلها لذلك؟

وأضاف سيجورد:

- بالفعل يا رفاق! وجود فتاة هنا سيكون إضافة لا بأس بها لوسائل المرح في الجوف، أتفهمون قصدي؟

قالها بابتسامة خبيثة، فقال بوهاردي بدهشة وازدراء:

- اللعنة! هل تريد أن تقلب الجوف لماخور؟!!

لم يكفّ أطلس عن النحيب كأن أغنيته أصبحت حزينة، وقال عمار بسخرية كأنه لا يسمعه:

- من قال ذلك؟!، أتركها معنا أسبوع وستحبنا، سنحرص على ذلك أنا وسيجورد

وضحك هو وسيجورد بخبث، فقال أوين بعصبية:

- أترون! هذا هو الخطر الذي أتكلم عنه يا مافي...

- مؤكد أنها لن تحبكَ يا أوين.. سأحرص على ذلك أيضًا

وفجأة لاحظ دكرور أن معهم فتاة، وفهم مقصد أوين وخطورة وجودها في مثل هذا المكان الذي يعج بالرجال الذين لم يروا الجنس الآخر من البشر منذ سنوات، بعضهم منذ أكثر من قرن، وبعضهم نسيَ أشكال النساء، وبعضهم ربما لم يتعامل مع امرأة في حياته سوى أمه، فكر في ذلك وقال:

- مهلًا يا بوهاردي! لماذا إذًا أردتَ التخلص منها إن لم يكن لذلك؟

لكن أوين هو من أجاب:

- لأنها ستشي بنا إن عادت إلى اليابسة أيها الأحمق! فإن لم نتخلص منها لأنها سوف تشي بنا، فيجب أن نفعلها لأنها ستثير الفتنة بيننا
- ربما لن يصدقها أحد
- لا يمكنك التأكد من ذلك سوى بطريقة واحدة

قال دييجو:

- أتدرون.. ربما لن تكون إضافة للمرح كما يقصد سيجورد، ألا يمكن أن يكون وجودها معنا شيئًا لطيفًا فحسب؟

ضحك الجميع خاصةً عمار وسيجورد، ودندن أوساي بنغمة رومانسية متهكمة، فزجرهم دييجو بحدّة:

- أعني ربما نحن قتلة ومجرمين وشياطين وكل شيء سيء، لكننا لا نغتصب الفتيات

وأضاف موريس:

- ولا نقتلهن!

ثم قال رالف وهو ينظر إلى الفتاة في استغراق أو ربما إلى رضيعها:

- لم لا نتخلص منها ونبقي على هذا الصغير؟ إنه يذكرني...

ثم أردف بعد أن أشاح بوجهه عنها كأنه أفاق:

- ...بأحدهم!

قال أوساي بدهشة:

- اللعنة! لكنه سيظل رضيعًا إلى الأبد، أليس كذلك؟!!

ضربه دييجو على رأسه وقال:

- يكفينا أنك ستظل قزم إلى الأبد!

ثم قال سامبار:

- ماذا إذا لم يكن من المفترض أن نتخلص منها أصـــلًا؟ ماذا إن كانت مثلنا؟

قالها ســامبار فبدت الحيرة على البعض والضـــيق على البعض الآخر، فأردف موضحًا:

- ربما هي هنا للعقاب مثلنا، ماذا إن كان أطلس قد التقمها كما فعل معنا جميعًا؟

اتضـح الكلام للجميع فعلت غمغمات مندهشـة تصـدق على كلامه، وقال عمار:

- ليس لدي مانع في ذلك!

وقال أوين:

- إذًا سيصبح ذلك جوف الجحيم نفسه!

وقال مافي منهيًا التفكير في الأمر أكثر:

- لكن أطلس لم يلتقمها، بل نحن من أدخلناها

وأضاف دكرور:

- كما لم تكن هناك عاصفة

وقال موريس بعد أن نهض:

- حسنًا كفى حديث بشأن هذه الفتاة.. هذه الفتاة ستظل هنا حتى نتشاور مع أطلس في أمرها، أما الآن فأنا لست في مزاج لفعل أي شيء.. عمتم مساءً جميعًا

تغير صوت أطلس بين الحِدة والغلظة وبدا غريبًا، كانوا جميعًا يسكتون حين يسمعون صوته ويبلعون ريقهم بعد أن يسكت، إذ إنهم جميعًا يعلمون أن مثل تلك الأصوات تعِدهم بنوم مضطرب حتمًا، ثم استوقف بوهاردي موريس قائلًا:

- هل حقًا ستنام الآن؟! هل تسمع هذا؟ إنه صوت حوت غاضب، أنت لا تريد أن تذهب إلى أطلس في عالم الأحلام حين يكون غاضبًا
- بحقكَ يا هاردي! منذ دقائق كنت ستقتل فتاة في جوف ذلك الحوت الغاضب، ماذا بظنك كان سيحدث إن فعلتَ؟

ثم ضحك بتعب وأردف:

- هل تذكر ماذا فعل حين تشاجرت مع هنري؟ فما بالك بقتل أحدهم؟

مرة واحدة فقط زار دكرور أطلس في الحلم حين كان غاضبًا على مافي بعد حادثة تاندي وسفينة القراصنة، ولم يكن الأمر حسنًا أبدًا، لم يكن استياء أطلس يؤثر على الأحلام فحسب، بل على الأجواء في اليقظة أيضًا، حتى أن الجوف يصبح أكثر ظلمة ووحشة.

ثم عاد موريس يقول مخاطبًا الجميع:

- إذًا جميعنا متفقون على ألا نمسّها بأي سوء حتى يخبرنا أطلس بشأنها؟ صحيح؟!.. صحيح يا أوين؟

أومأ أوين بضيق فأردف موريس:

- سيجورد!.. عمار!

أومأ كلاهما وهما يخفيان ابتساماتهما بأيديهم، فتركهم موريس وذهب، وفي طريقه وقف بين دكرور ورالف وهمس إلى كليهما:

- أشـــعر بالإرهاق الشـــديد يا رفاق، ســـأترك تلك الفتاة في حمايتكما.. مفهوم؟

أومأ رالف متعجبًا وربّت موريس على كتف دكرور وابتعد إلى ســـبيله، فنظر رالف ودكرور إلى بعضهما في استغراب.

وتساءل سامبار:

- كيف لامرأة ورضيعها أن يكونا على سفينة تحويت أصلًا؟

ردّ أوين:

- مؤكد أنها زوجة القبطان.. هؤلاء الأوغاد يدفعون المبالغ لجلب نسائهم معهم

قال سيجورد وهو يبتسم:

- لا أعلم.. تبدو لي كعاهرة متجولة بين السفن



خلد معظم الرجال إلى النوم، حرص موريس على ذلك، ربما لكي لا يتلقى غضـــبة أطلس بمفرده، وكان رالف مع بوهاردي يتســـامران، وجلس دكرور في انتظاره ينظر فوقه من حين لآخر، إذ كانت الفتاة ترقد أعلاه مباشـــرةً على الجهة الأخرى من الجوف، فلم يرِحه هذا كالعادة وقرر أن يبقى على مقربة أكثر، فســـار في نصـــف دائرة إلى الجهة الأخرى وجلس بالقرب منها عند رأسها، وبقيَ يرمقها في شرود.

لم يشــرد فيها لكنه شــرد في تذكر ما حدث اليوم، وفكر في كل ما قد قيل بشأنها، وتذكر صراخها الذي لا يزال في أذنه ويجعل جسده يقشعر، وتذكر أخذه لرضـــيعها من بين يديها وحمله بين ذراعه، تذكر ذلك فنظر إلى الرضيع النائم فوق صدر أمه ويستر منه الكثير، ويعلو ويهبط بفعل أنفاسها

البطيئة، حينها تحركت الفتاة بوهن، وأنّت بصـــوت خافت، ودوّرت وجهها ناحيته، ثم عادت تسكن.

تأمل دكرور وجهها بوضــوح أكثر، وشــكّ في أنها ليســت أصــغر من عمار، ربما في ســن ســامبار، لكن أيًّا كان ســنها فقد كانت أصــغر من أن يكون لديها رضــيع، ثم بدأ يلاحظ شــعرها الفاحم المبتل، الذي بدا مرســومًا على جبينها ويغطي نصــف وجهها الشــاحب المتسـخ، فكان يخفي قليل من النمش على أنفها، والذي كان صـغيرًا ويصـدر صـفيرًا خافتًا كأنها مصـابة بالبرد، ومن تحته تنفتح شــفتان رفيعتان لتســاعد أنفها في عمله، إجمالًا لم تكن جميلة، لكنها كانت أجمل بكثير من أن تكون قبيحة.

ثم أخذته عينه من دون أن يوجهها إلى رقبتها، ولم يشمئز من أنها متسخة هي الأخرى، وعليها خطوط أفقية سـوداء لم يغسـلها ماء البحر، ثم أخذ هو عينه إلى صدرها وما تحت الرضيع، وإذ كان رداء موريس يغطي من فوق خصرها، فقد انتقل بعينه إلى أبعد من ذلك، ورأى فستانها الأصفر الملتصق بفعل البلل؛ بساقيها القصيرتان الممتلئتان، ولاحظ لأول مرة قوامها الذي لا يبدو أنه قد حمل في طفل من قبل، ثم حين لم يكن هناك ما تذهب إليه عينيه بعد ذلك؛ بدأت تعتمل في رأسـه خواطر لا تحتاج إلى العين لتصـورها، فقط عقله.

اســتدعت تلك الخواطر نوع من الشــهوات التي لم ينسِــها دكرور طوال خمس أعوام، لكن تلك المدة كفيلة بأن تجعله لا يعبأ بها حين كانت تأتيه، عندما كان يحكي هو وسيجورد وديبجو للرجال، ولعمار وسامبار بالأخص؛ عن تفاصـيل دقيقة وحسـاسـة في علاقة الرجل بالمرأة، يكاد يجزم أن القتال هو ما جعله لا مبالٍ هكذا، إذ بالنسبة له قد أصبح القتل إفراغ شهوة من نوعٍ ما.

ثم حين تزايدت تلك الأفكار وتحولت إلى خيالات أكثر حِدّة، وفكر دكرور في سحب رداء موريس من عليها؛ جاء رالف وجلس بجانبه، فأشاح دكرور عن الفتاة واعتدل في جلســـته بجانب رالف، ثم تذكر ما قاله موريس لهما

وائتمانهما عليها، فقال لنفسه بسخرية "أنا حتى لا ائتمن نفسي!"، ثم قال لرالف:

- لماذا تظن أن موريس أخبرنا نحن بأن نحرسها؟
- لا أدري.. ربما لأننا لم نبدِ أي آراء دموية أو شهوانية
- أليس أنت من قلتَ أن نتخلص منها ونبقي رضيعها؟... بمن قلتَ أنه يذكرك؟

رَد رالف بسرعة:

- لم أقل!!

ولم يلقِ دكرور لذلك بالًا، وقال بسخرية:

- ربما لم نبدِ أفكارً شهوانية لكنها موجودة رغم ذلك

ضحك رالف وقال:

- ربما تحتاج لزيارة خفيفة إلى اليابسة يا دكرور
- ربما.. لكني لا أريد أن أتذكر شيئًا مما كنتُ عليه قديمًا

ثم تذكر شيئًا قاله موريس وانتبه إليه حينها، فقال:

- ماذا حدث حين تشاجر بوهاردي مع هنري؟

أجاب رالف على الفور كأنه فكر في الإجابة منذ لحظة:

- أوف!! أصدر أطلس أولًا أصواتًا مرعبة تشبه ما سمعت اليوم ثم أظلم الجوف سريعًا وشعرنا به يضيق، وكان الأمر أسوأ حين ناما، إذ إن في الأحلام تتضاعف كل المشاعر، ويحتدّ إدراكنا للأشياء
- اللعنة! لا زلتُ لا أتخيل كيف كان يعيش ذلك الرجل الذي وجدناه في جوف الحوت الذي قتلناه، مؤكد أن حياته كلها كانت هكذا
- أتدري! يمكن لأطلس أن يكون وَحشًا متى أراد، وأن يكون الجلاد الذي من المفترض أن يكونه، وأن يكون جوفه السجن الذي من المفترض أن يكونه، وأن يعاقبنا بما نستحق؛ لكنه ببساطة لا يفعل

وأضاف بابتسامة طيبة:

- يفعلها فقط حين نتشاجر مع بعضنا أو حين يؤذي أحدنا الآخر في لعبة الصاري والمرساة، كأنه أب حنون على أولاده

ورقدا يدندنان معًا بأغنية جميلة من أغاني أوســـاي تدعى "لا تبتعد"، ثم سكت رالف فجأة فوجده دكرور قد نام فوكزه فأفاق، فقال وهو يتثاءب:

- لا أدري يا دكرور.. لكن موريس عجوز مرتاب، سأذهب إلى النوم

ثم نهض وأردف:

- آمل أن يكون أطلس قد صب غضبه كله عليه هو وبوهاردي

وظل دكرور وحده راقدًا حتى كاد أن يغفو، لكنه أفاق عندما سمع صوت يقترب ويقول:

- ...صدقني إنها أصلب مما تبدو

اعتدل في جلســـته فوجدهما عمار وســـامبار، اللذان جلســـا إلى جانبيه وكلاهما يحدق في الفتاة بطريقة غريبة، فضرب عمار على رأسه قائلًا:

- ما كل هذا النشاط؟!.. أليس هذا موعد غيبوبتك؟
- بحقك يا دكرور!.. كيف أنام وهي هنا؟

نظر دكرور إليه بريبة وقال:

- لا تفكر في الأمر أكثر أيها الفتى! إنها تبدو أكبر منكَ
- وإن يكن!.. ثم إن عُمري تسعة وأربعين سنة... أيها الفتى!
- لا زالت تبدو أكبر منكَ

ثم نهض سامبار وهو يقول:

- كفاكَ يا عمار! أخرجها من عقلك، ربما سترحل غدًا

وكأنه لم يسمعه؛ قال عمار وهو لا يزال يحدق بالفتاة:

- حتى أنها تبدو أجمل وهي نائمة...

ومد يدًا إلى وجهها ولم يفعل سوى أن رفع خصلة من شعرها عن جبينها، فأحجم دكرور عن إبداء رد فعل سوى الحذر، حتى سحب عمار الرداء الذي يغطيها ورضيعها من عليهما، وحينها أمسك دكرور بيده بعنف، وعقد حاجبيه وزنهر له بعينيه، حتى بدا مخيفًا كما لم يبدُ من قبل، وقال وهو يصرّ على أسنانه:

- لا تلمسها!

اندهش عمار كثيرًا من ردّة فعله، فنظر إليه باستغراب وذهول وقال:

- ما بكَ أيها المعتوه؟!! هل تحرسها الآن أم ماذا؟
- ما أفعله ليس من شأنك.. فقط لا تقترب منها ثانيًا

وقال سامبار بنبرة آمرة:

- مهلًا يا دكرور! إنه لم يفعل شيئًا
- بل فعل!

ثم سمعوا صوت أطلس بصافرة بعيدة خفيضة تكاد لا تُسمع، فنظر دكرور إلى سامبار ثم إلى يده الممسكة برسغ عمار ثم إلى عمار، وترك ذراعه بعنف أسقطه يتكأ على مرفقه، ثم عاد ينهض بعصبية ووقف الاثنان يواجهان بعضهما، يتبادلان النظرات الحادة الصامتة، وبينهما كان سامبار يقف حاجزًا يزجرهما ويحاول تهدئتهما، وكل ذلك بهدوء حتى لا يوقظوا أحد النائمين أو يسمعهم أطلس، ثم قال عمار بصوت خفيض لكن بحدة وعصبية شديدة:

- لم يكن عليك أن تكون وغدًا هكذا!
- وأنت لم يكن عليك أن تكون وقحًا هكذا!

ثم بدا عمار أنه يبذل مجهودًا كبيرًا لدفع الغضـــب وهو يتنفس بقوة، ثم نظر إلى الفتاة ثم إلى ســامبار ودكرور بخجل، كأنه عاد إلى وعيه للتو وقد هدأ تمامًا، وقال بصوت واهن وعينان تنضحان بالدمع:

- معذرةً! كنتُ فقط...

ولم يكمل كلامه، وابتعد دون أن يلتفت إلى دكرور الذي حاول أن يستوقفه، فقال له سامبار في عتاب وهو يبتعد وراء عمار:

- تبًا يا دكرور! كان أوين محقًا رغم كل شيء..

شعر دكرور بضيق لم يشعر به من قبل، إذ كان عمار أول صديق حقيقي يحظى به في حياته، وظل صـــديقه الوحيد لأشـــهر قبل أن يتعرف على الآخرين في الجوف، كما أنه حتى الآن أقرب مَن بالجوف إليه، تذكره لكل ذلك كان مما أضاف إلى ضيقه وحزنه شعور مقيت بالوحشة.

نظر إلى الفتاة أخيرًا وفكر بحسرة وهو يجز على أسنانه "إنها أخطر مما حسب أوين"، أراد أن يركلها بقدمه هي ورضيعها، وأن يجرها من شعرها خارج الجوف في المحيط، أو أن يدق عنقها بخنجره الآن، لكنه لم يفعل أي من ذلك، واكتفى بأن لعن الســـاعة التي وجدها فيها، ولعن موريس، ولعن نفسه أنه وجدها أصلًا، ثم ابتعد عنها وتكوّر على نفسه في ركن ونام.



(2)

كان البحر ثائرًا، والموج كالجبال، والرياح تكاد تحمل بعض من مياه البحر من شـــدتها، والمطر كثيف خانق، وجميع أشـــرعة الســـفينة مُنزلة ومربوطة بإحكام، حتى كادت الرياح أن تجعلها تطير، فأخذت تعلو وتهبط وتخترق جبال الأمواج.

ووسط كل ذلك كان الرجال جميعهم يقفون بثبات أكثر من الصواري نفسها، وحتى الفتاة كانت تقف مبتعدة تحمل رضيعها ولا يبدو عليها القلق.

يعلم دكرور أن الأمور ليست بخير، لا يبدو أي شيء بخير، الغضب والثورة والتوتر في الأجواء، ويبدو القلق والخوف على الجميع، ثم تضاعف كل ذلك عندما تكلم أطلس:

- كيف تجرأتم على إدخال شيء إلى جوفي دون إذني؟ هل نسيتم أنكم هنا للعقاب؟ هل أصبحتم تشرِكون كل الكائنات معكم فيه؟

لم يبدُ الغضب في صوته كثيرًا، مع ذلك؛ بدا مهيبًا أكثر مما كان عليه دومًا، وربما أراد الرجال ليقفزوا من السفينة من شدّة الخجل، لكنهم وقفوا كأنهم ممسمرين إلى خشب السفينة، وقال سامبار:

- لا تستاء يا أطلس.. سنصوّب الأمور
- لست مستاءً.. أنا فقط أشعر بالمغص، وبالحديث عن تصويب الأمور، يجب أن تذهب المرأة.. إن لم تريدوا قتلها فلا بأس، لكنها يجب أن تخرج، إنها أكثر شيء خاطئ دخل جوفي منذ أوساي

قالها أطلس من دون أن يعلم أنه شيئًا مرحًا أو مثير للضحك، فضحك الرجال كلهم بشدة، وقد هدأت ثورة الأجواء كأن العالم يعود إلى صوابه، ثم سأل أوساي بتعجب:

- ألا يدخل النساء أجواف الحيتان؟
- لا أعلم.. إنهم من لا يجب أن تطأ لهم قدمًا في جوف حوت، أو حتى في البحر، لكن لمَ لا!

وسأل رالف:

- ألم تتزوج يا أطلس؟

بدت الكلمة غريبة حين قيلت، حتى وإن قيلت في عالم الأحلام، ورَدّ أطلس:

- أنتَ تعلم أنه لم يعد هناكَ حيتان من فصيلتي، أو هذا ما كنتُ أعتقد
- ألا زلتَ تبحث عنهم؟
- بلا، وقد اقتربت كثيرًا من أن أجدهم، على كل حال.. ستخرج المرأة في أقرب وقت

قال موريس:

- في أي وقت تكون فيه مستعدًا يا أطلس، ربما سنلقيها على أول يابسة ستقابلها

كانت السماء قد كفت المطر، وتفرقت السحب السوداء، وهدأت الرياح الغاضبة، واستوت مياه البحر، وصار الجو يبعث السكينة في النفس، وتحول الكابوس المزعج إلى حلم جميل.

بقيَ الرجال على السفينة لا يفعلون شيئًا سوى الاستمتاع بالأجواء، وحتى الفتاة كانت تهدهد طفلها في مرح وسعادة، ثم إنها قد سلّمت دكرور رضيعها برضى كأنه والده، وما أن حمله بين ذراعيه حتى هَوَت بصفعة على وجهه أيقظته وأخرجته من عالم الأحلام.



صحى دكرور قبل الجميع، فتفقد ما حوله بعين ناعسة، وتفقد الفتاة النائمة على مقربة، وظل عدة ثواني يدقق النظر فيها لكي يستوعب ما يرى، فقد كان أحد الرجال بجانبها وقد همّ بها كما الرجل وامرأته، ودقق النظر أكثر فلاحظ خصل من شعره الأحمر تداعب وجه الفتاة، التي لا تزال نائمة لا تحرك ساكنًا ورضيعها بجانبها؛ فعلم أنه سيجورد.

سار نحوه وأراد أن يستل خنجره، لكنه لم يُرِد أن يتكرر الأمر كما حدث مع عمار، فوقف بجانبه دون أن يشعر وقال هامسًا بحزم بصوت حاد:

- سيجورد!!! ماذا تفعل؟!!

انتفض سـيجورد عنها وتراجع على ظهره، فبدا محرَجًا وقال مازحًا يحاول أن يخفي توتّره:

- أه دكرور!! كنتُ فقط... أريد أن أخبرها بشيء عن كثب

ثم اعتدل في جلسته وتحول مزاحه إلى ضيق وقال:

- اللعنة على ذلك يا دكرور! لم يكن هناك ما أفعله على كل حال
- ماذا تقصد؟
- في مكان آخَر كنتُ لأجعلها تنجب طفلين آخرين بحلول الآن، لكن ذلك الجوف... لم يسلبنا شهوة الطعام والشراب فقط
- حقًّا!! هذا ليس صحيحًا! كيف لَم ألاحظ ذلك؟
- لطالما كانت شـهوتنا في عقولنا وذاكرتنا، وتلك الفتاة.. إنها تذكرني بهواياتي القديمة

نظر دكرور إليها وجلس بجانب سيجورد وقال ربما ليواسيه:

- أعلم ذلك، أنا أيضًا كانت لي هواياتي، أتدري.. ربما نذهب إلى اليابسة بعد أن ننتهي من ذلك الأمر
- اللعنة على اليابسة هي الأخرى! لا أريد أن أطأها ثانيًا... أه! انظر من استيقظ!

كان الرضيع قد استيقظ ينغى ويلاعب الهواء الذي على وجهه، ثم أردف سيجورد بإعجاب لا يخفي ازدراء:

- كم أنه مثير للشفقة!

جاءهم بوهاردي بصحبة رالف وقال:

- ألم تستيقظ بعد؟ كأنها ماتت!

ثم حمل رالف الرضيع برفق وهو يقول:

- كيف تتركونه على الأرض هكذا أيها المعاتيه؟!

وأخذ يداعبه بين ذراعيه، فقال بوهاردي بشك ساخر:

- ماذا تفعلون معها على كل حال؟

رَد سيجورد:

- كنا نؤنس وحدتها

وأضاف دكرور:

- كنا نخبرها بشيء عن كثب

فضحكا ثم سمعوا أنينًا خافتًا بجانبهم صادرًا عن الفتاة، ليجدوها تجحظ إليهم في رعب، وأخذت تلتفت بعصبية من حولها، قبل أن تلاحظ اختفاء رضيعها، وحينها بدأت تهلع وتبكي كمن أصابه الجنون، فابتعد الجميع عنها يقفون في ذهول، فذهب رالف إليها وأراد أن يسلّمها رضيعها، لكنها انتزعته من يديه وضمّته إلى أحضانها بقوة.

من المفترض أن تهدأ حين تجد رضيعها سالمًا بين يديها، لكنها لم تكف عن البكاء الذي تحول إلى نحيب، وحاول البعض تهدئتها دون جدوى بعد أن أيقظت جميع النائمين، فتركوها وحاولوا أن ينشغلوا عنها بأي شيء، لكن طال بكاؤها وعلا وأصبح يسبب الإزعاج، حتى جاءها أوساي وصاح فيها بعصبية:

- هلّا تصمتي!!! إن كنا نريد أذيتكِ أو رضيعكِ لَما كنتِ على قيد الحياة الآن.. مفهوم!

وبالفعل كفَّ صوت بكائها دون أن تكف عن البكاء، فقال دييجو:

- أنتم تخيفونها أيها الأغبياء...

ردّ سامبار:

- لم نفعل لها أي شيء

- انظروا إلى أنفسكم، انظروا أين نحن! لا نحتاج لأن نفعل شيء حتى نسبب الخوف

ثم قال موريس:

- بالفعل، سنتركها لتهدأ وحدها، أما الآن فيجب أن نتشاور في بعض الأمور الهامة يا بوهاردي

قال بوهاردي:

- أه حسنًا! هل الجميع صاحين؟ حسنًا لنجتمع بعيدًا عن هذه الفتاة، ولا تمشوا على السقف حتى لا يغشى عليها ثانيًا...



اجتمع كل الرجال في حلقة، وكان عمار يجلس متجهمًا يفصله عن دكرور ثلاثة رجال، وعلى يسار عمار كان يجلس سامبار، وكان هو من ينظر إلى دكرور، لكن أشاح كلًا منهما عن الآخر فور أن تلاقتا عيناهما، ثم قال بوهاردي:

- حسنًا يا رفاق.. ربما تلك أول فتاة على الإطلاق تدخل جوف حوت، وأطلس لا يريدها في جوفه لذا.. سنخرجها هي ورضيعها في أقرب وقت، والآن من يريد أن يرافقها إلى اليابسة؟

ولم يتلقَّ بوهاردي أي إجابة، فأردف:

- إذًا من وجدها أولًا؟

لم يكن دكرور ينتبه لكلام بوهاردي، إذ كان منشغلًا بمراقبة سامبار وعمار من حين لآخر، يتفقد إن كان قد أفاق من شروده، فقال موريس الجالس بجانب عمار:

- مافي ودكرور!

انتبه دكرور فور سماع اسمه، فنظر إلى موريس، ثم إلى عمار، فأشاح الأخير بوجهه، ثم تذكر فجأة آخر ما كان يقول بوهاردي فرَدّ:

- نعم! أنا وجدتها أولًا

فقال بوهاردي:

- إذًا سترافقها أنتَ ومافي

ثم قال سيجورد بتهكم:

- بالطبع! ومن أفضل من دكرور الشجاع الشهم كي يحمي أم ورضيعها

كان دكرور على شفا إخبار الرجال بما رأى من سيجورد، لكنه قال:

- لا يحتاج الأمر إلى شجاعة أيها الغبي! سنجدف بها إلى اليابسة ثم نعود أدراجنا فحسب

ثم تساءل مافي:

- هل سنتركها على أي يابسة؟ أعني ماذا إن كانت صحراء أو ما شابه؟

فردّ موريس:

- تبًا! ربما سنعلم أين ننزلها وأين نحن من خرائط السفينة حين نصعد

فقال دييجو:

- لمَ لا نسألها أولًا من أين هي؟ سيكون لطيفًا إذا أنزلناها حتى بالقرب من بلدها

ردّ أوساي بسخرية:

- ألا تريد أن تطمئن عليها حتى تضع رضيعها في فراشه أيضًا؟ كما أنها لا تفعل سوى البكاء منذ أن أفاقت

قال رالف:

- لن نخسر شيئًا، وربما نجدها تعرف أي شيء عن أخبار التحويت، ولماذا أصبحوا أكثر عدوانية

فقال موريس:

- حسنًا! أتركوا لي ذلك...

ثم نهض وهو يقول:

- لا تتبعوني!

وسار إلى الفتاة التي كانت لا تزال تنشج وجلس بالقرب منها رافعًا يديه بحسن نية، ومع ذلك فقد انكمشت على نفسها وضمّت رجليها إلى صدرها ودفنت وجهها بداخل ذراعيها اللذان يضمان الرضيع، ثم اقترب الرجال كفاية ليسمعوا موريس الذي بدأ الكلام بأن قال:

- مرحبًا! أممم... أنا موريس.. وأنا من فرنسا، هل تعرفين فرنسا؟

فرفعت الفتاة رأسها حتى لم يظهر إلا عينها الدامعة وجبهتها المتعرقة، وأومأت إماءة تكاد لا ترى، فقال موريس بسعادة:

- جميل!.. والآن يجب أن تعلمي أننا حقًا نريد أن نعيدكِ أنتِ ورضيعك سالمين إلى وطنك، لكن يجب أن تخبرينا أولًا من أين أنتِ..

رفعت الفتاة كل رأسها، وقالت بصوت واثق، لا يبدو فيه البكاء:

- أريد أن أعلم أين أنا..
- أممم... نحن في مغارة.. كما ترين إنها مغارة مميزة
- ماذا! أي مغارة؟! لقد كنا في عرض المحيط!
- كما أن مغارتنا في عرض المحيط هي الأخرى
- ولماذا أغرقتم السفينة؟
- أه! إننا فقط... إننا لا ندع أي أحد يقترب من مغارتنا، أؤكد لكِ أننا إن كنا نعلم مسبقًا أنكِ على متن هذه السفينة لما أغرقناها
- لا يهم.. كنت أكره تلك السفينة على كل حال

- ومن أين أبحرت تلك السفينة يا سيدتي؟
- نانتوكيت ماساتشوستس.. وأنا من نانتوكيت

نظر موريس إلى الرجال في ذهول، بدا مخيفًا على وجهه الذي اعتادوه جامدًا، فقال سيجورد وهو ينظر إلى دكرور متعمدًا استفزازه:

- حسنًا.. لقد وجدنا عاهرة نانتوكيت الحقيقية



(3)

سكت موريس قليلًا يفكر، وعاد يسأل الفتاة بعد برهة:

- أنتِ لم تخبريني باسمكِ بعد
- وينسلو.. جيرترود وينسلو
- عظيم يا سيدة وينسلو!.. ماذا عن هذا الصغير؟
- إنه إدموند
- هل هو هادئ دائمًا هكذا؟ بحقك! إنه حتى أهدأ منكِ

ضحك موريس، وابتسمت الفتاة وهي تنظر إلى رضيعها بين يديها، وقالت:

- لم يكف عن البكاء منذ أن ولدته

فقال موريس بصوتٍ حانٍ:

- حسنًا يا عزيزتي جيرترود!.. سنعيدكِ أنتِ وإدموند الصغير إلى وطنكم في أقرب وقت، ولا تخافي من هؤلاء الرجال.. إنهم طيبون، حسنًا والآن سأترككِ لتعتني برضيعك

أومأت الفتاة بخجل، وعاد موريس إلى الرجال، وجلس بينهم فقال بوهاردي بتهكم:

- ما كل هذه الوداعة؟! حسبناكَ أحدًا آخر

فرَد موريس:

- إن كنا سـنعيدها إلى بيتها سـالمة فعلى الأقل يجب أن نترك انطباعًا حسنًا حتى لا تفشي سرنا

فقال أوين:

- وكأن ذلك سيضمن أي شيء!

ثم أردف موريس:

- حسـنًا نحن الآن نعلم وجهتنا، ومؤكد أنها ليسـت وجهة آمنة، ما رأيك برحلة استطلاع جديدة يا هاردي؟

رَدّ بوهاردي بعد برهة من التفكير وهو ينظر إلى أوين:

- وإذا افترضـنا أن وافق أطلس، فمن سـيذهب؟.. لا نريد أن يتكرر أمر ويليام

قال أوين:

- لقد كنا إثنين فقط.. إذا أردتم أن تذهبوا إلى اليابسـة ثانيًا فيجب أن نرسـل أكثر من ذلك، كما أنها ليسـت رحلة اسـتطلاع فقط.. سـتكون الفتاة معهم

قال بوهاردي:

- إذًا دكرور ومافي ومن أيضًا؟... موريس؟

زفر موريس بيأس ثم أومأ لبوهاردي، فقال دكرور بسرعة:

- وعمار!

فنظر إليه الجميع ونظر هو إلى عمار، فبادله عمار النظر في اسـتغراب، وعاد دكرور يقول:

- أعني أنه... لقد كان معنا حين وجدنا الفتاة

فأشار بوهاردي إلى عمار وسأله:

- وعمار؟!

فقال عمار بعد أن زفر ضحكة قصيرة:

- حسنًا.. ولمَ لا!

ولم يبدُ عليه الامتنان، بقدر ما بدا عليه التعجب، لكن دكرور عدّ ذلك أول خطوة في إصلاح صداقتهم التي أفسدوها، ثم قال موريس:

- ماذا عنك يا أوين؟..

ردّ أوين:

- ماذا؟!! لا.. أرجوكَ يا موريس! لقد اكتفيت من البشر حقًا
- هيّا يا أوين! نحن ذاهبون إلى أمريكا.. وأنت الوحيد الأمريكي هنا، سيساعدنا ذلك كثيرًا

وأضاف سيجورد:

- نحتاج إلى أكبر عدد من الرجال الأصحاء معنا في تلك الرحلة
- بالفعل!
- إذًا سأذهب أنا معكم...

تفاجأ موريس كأنه لم يلحظ أن سيجورد هو من كان يتكلم، فقال:

- لم أقصدكَ أنت أيها الغبي! كنت أكلم أوين

رَد أوين بضيق بعد تفكير:

- حسنًا يا موريس.. لكن فقط لأني أحبك أيها العجوز

ثم قال بوهاردي:

- عظيم! أظن أن هذا فريقنا...

تدخل سيجورد وقال بعصبية:

- اسمع يا هاردي! ربما سنعرف عن تلك السفينة العاهرة التي قتلت نون وربما سنجدها، وحينها ستندمون أنكم لم تأخذوا معكم مزيدًا من الرجال، صدقني ستحتاجون إلى كل رجل معافى هنا

فرَد موريس:

- نحن لا ندري إن كان أطلس سيوافق أصلًا، هو من سيقرر على كل حال
- حسنًا.. فلنترك الأمر إلى أطلس

قال بوهاردي:

- حسنًا يكفي هذا لليوم يا رفاق.. سننتظر حتى يقضي أطلس أمره



وجد دكرور عمار جالسًا أمام دييجو بينهما لوح شطرنج وقد انهمكا في المعركة، فقرر الذهاب إليهما، فلم يلاحظه عمار قبل أن يجلس أمامه بجانب دييجو، وما أن فعل حتى أشاح عمار بوجهه، ودوّر عيناه في محجريهما علامة الامتعاض والضيق، فقال دكرور وكأنه لم يرَه:

- من يكسب؟

ردّ دييجو:

- هذا الغبي أصبح عِدائيًا على غير عادته..

فقال عمار وهو ينظر إلى دكرور:

- لستُ الغبي الوحيد الذي أصبح عدائيًا يا دييجو

فقال دكرور:

- أليس من الممكن أنك من أثَرت عدائيته يا دييجو؟

ردّ دييجو:

- ماذا؟!.. سأهزمه على كل حال، لم يكن بالأمر المهم

قال عمار بحِدة أكبر:

- بالفعل يا دييجو! ربما لم يكن بالأمر المهم

فقال دكرور وقد رفع صوته هو الآخر:

- ماذا؟! حتى وإن لم يكن بالأمر المهم؛ لم يكن هناك بُد من فعله على كل حال
- أعلم ذلك أيها الأحمق! فقط أردتُ أن تخبرني ذلك بطريقة أفضل!!

علم دكرور أن هذا النوع من المشاحنات لن يثمر إلا زيادة الخصومة، فقال بعد أن سأم المواربة:

- أعلم أنه لم يكن هناك داعي لكل هذا، ولذلك فقد جئتك نادمًا معتذرًا

قام دييجو وهو يقول:

- أه حسنًا! أظن أن الأمر لا يخصني.. سأعود لاحقًا، إن حرّكتَ أي قطعة سأجعلكَ غير قادر على الخروج من هنا لدقيقة واحدة

أردف دكرور بعد أن ذهب دييجو:

- بحقك يا عمار! يجب أن تعلم أنه لم يكن لك مكان في تلك الرحلة لولاي.. ظننتُ سيفيدك ذلك

وأردف وهو يغمز له:

- وربما نجد لك فتاة تعجبك
- حسنًا لن أنكر أنها كانت بادرة طيبة..

مدّ دكرور يده أمامه للمصافحة وقال:

- إذًا هل اصطفينا؟

فنظر عمار إلى اليد الممتدة إليه بشـــك، كأنه يفكر في تحريك قطعة شطرنج، ثم صافحها ولم يخبر بشيء سوى ابتسامة ممتنة.

وأثناء ذلك كان موريس قد استيقظ من غفوته القصيرة فأخبرهم:

- لقد وافق أطلس على الذهاب إلى تلك المدينة، وأخبرته أين يذهب، وسيستدعينا في أي وقت الآن، لذلك كونوا مستعدين، و... يمكن أن تأتي معنا يا سيجورد

قال آخر شـيء بسأم، فهتف سيجورد وتراقص في مكانه وقبّل موريس رغمًا عنه، فأبعده الأخير وابتعد عنه.

ثم عاد دييجو وقال:

- أرجو أن تكون قد حللت مشـــكلتك مع ذلك الوغد يا دكرور.. والآن اتركني لأحل مشكلتي معه
- كان ينبغي أن تهرب حين أتتك الفرصة

قال عمار ذلك، وعاد كلاهما إلى مباراتهما.

وبعد فترة ليست طويلة قال عمار:

- كش ملك!

وقبل أن ينتزع دييجو حلقه من رقبته، رنّت في الجوف ضـحكة نسـائية تسكِر العقل، أعقبتها تصفيق وهتافات الإعجاب من الرجال، لم تكن ضحكة خليعة لدرجة الفجور، لكنها كانت كافية لإثارة انتباه جميع من سمعها.



كانت آتية من عند الفتاة بالطبع، والتي كانت تجلس تتسـامر مع موريس ورالف وأوين، كأنها تجلس مع والدها وعمّها وابن عمّها.

فنهض عمار ودكرور وديبجو، لينضـــموا إلى جِلســـة السّـــمر، وما أن وصـــلوا ورأت الفتاة دكرور حتى اكفهرّت ملامحها، واختفت ابتســـامتها، وضمّت رضيعها إلى صدرها أكثر، ثم قال موريس:

- آه! دعوني أعَرّفكم.. أيهـا الرجـال! هـذه جيرترود، جيرترود! هـذا دييجو، وبالطبع تعرفين عمار ودكرور

تعجب دكرور من طول نظرتها إليه هو بالذات، فكانت عينها تطق بشرر وغضب وتحدٍ وخوف أكثر شيء، وهي تقول:

- نعم بالطبع! لن أنسى الوغد الذي قيدني والوغد الذي أخذ مني طفلي

قال عمار بدهشة وهو يشير إلى موريس:

- ماذا!! يجلس بجانبكِ الوغد الذي ألقى بالأمر أولًا...

وابتعد أول ما حاول موريس الوقوف، ثم خلع فردة حذائه بسـرعة ورماه بها، فلم ينبس عمار بكلمة بعدها، حتى عندما قال له أوين بنبرة منتصرة:

- انظر من أصبحت تحب الآن!

ثم سرعان ما جاء باقي الرجال الواحد تلو الآخر على إثر الأصوات.

كان دكرور عاقدًا حاجبيه ينظر إليها شزرًا، فقال وهو يشير إلى صدره:

- لقد أنقذتكِ أنتِ ورضيعك..

قالت الفتاة في تحدٍ:

- ألم يكن بمقدورك أن تدلني على الطريق وحسب؟
- أه أعذريني!.. كان يجب أن أشـــير إلى حوت كبير في الماء وأخبرك أن تقفزي إليه مع رضـيعك وتدخلي إلى فمه ما أن ينفتح.. نعم، بالفعل إنها غلطتي!

وضحك الرجال خاصةً سيجورد، وانضمّ إليهم أطلس بصوت قرقرته الذي نادرًا ما كانوا يسمعوه، والذي يبدو كأنه يضحك مثلهم، فنظرت الفتاة من حولها باستغراب، ثم رفع دكرور صوته وقال وهو ينظر أعلاه:

- ماذا قلتَ يا أطلس؟ هه! ألم تخبرها بعد؟ حسنًا اسمح لي...

ثم اقترب من الفتاة، وانحنى أمامها يواجهها، وأردف بنبرة متهكمة:

- عزيزتي جيرترود! كنت أريد أن أخبركِ هذا بطريقة أسهل.. لكنكِ الآن في بطن حوت

واستمرّ الرجال في ضحكهم، لكن توقف دكرور عن الضحك، وجمدت ملامحه حين وجد جيرترود تبادله النظرة الجامدة، التي لم يبدُ فيها الخوف أو الرعب كما هو متوقع؛ بقدر ما بدا فيها الاندهاش والتعجب وربما الفضول، حتى قالت:

- الأمر حقيقي إذًا!

رجع دكرور إلى الوراء قليلًا، وقال:

- ماذا قلتِ!!

لم تجِبه وبدا أنها على وشك أن تنهار، بعد أن قامت وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة، وتتلفت حولها بعصبية، وأوشكت على البكاء، فقال أوساي بسأم:

- ها هي ثانيًا!

فقام موريس يحاول تهدئتها:

- كل شيء على ما يرام يا عزيزتي! المكان آمن هنا، إنه أكثر أمنًا من السفن حتى، فقط لا تقلقي

ثم توجه إلى دكرور وقال يعاتبه:

- هل أنت سعيد الآن؟!

فكر دكرور "أنا في قمة ســـعادتي!"، لكن لم يقل شـــيئًا حتى لا يغيظ موريس، ثم هدأت جيرترود بعد مدة وقالت بتوتر وهي تتفحص الرجال من حولها في شك وارتياب:

- هذه المغارة!.. إنها ليســت... إنها داخل بطن حوت؟.. وأنتم تعيشــون داخل حوت؟

قال بوهاردي باستغراب:

- يبدو أنكِ تعرفين ذلك بالفعل!

قالت بعد أن عادت تجلس، وقد هدأت قليلًا:

- أه أنا لا أتذكر، ولم أكن أعبأ.. لكن ســـمعت جيمس يقول في مرة أن هناك طائفة ما أو جماعة أو ما شـــابه؛ كانوا يدّعون أن هناك بشـــرًا يعيشـون في بطون الحيتان ويرسـلهم الحيتان لإغراق السـفن... مهلًا! إن هذا ما تفعلونه فعلًا؟

وقع كلام جيرترود كالصفعة على مسامع الرجال، فعُقِدَت ألسنتهم وشلَّت أجسادهم، إلا موريس بالطبع، فكان رابط الجأش كعادته، ولم يهزه أي كلام، فقال في هدوء:

- كما هو معلوم يا عزيزتي فهذا ما نفعل بالفعل، لكن أخبريني هل لتلك الطائفة اسم أو أي شيء قد أثار انتباهك؟
- إن كان لهم اســـمًا فأنا لا أعرفه.. لكنهم بدأوا في الظهور منذ ســـنة تقريبًا وربما أكثر، وكان لهم مؤيدين وأتباع يصـــدقونهم حين أبحرنا منذ ثمانية أشهر، ومنذ أربعة أشهر قابلنا سفينة في المحيط قد أبحرت من بعدنا أخبرت جيمس أن هؤلاء القوم أصـبح لديهم سـفينة، أذكر أن ذلك ما قد أثار حفيظته كثيرًا
- أعذريني يا عزيزتي!.. لكن هل بإمكانك تذكر اسم تلك السفينة؟

هزت جيرترود رأسها، فقال بوهاردي بسرعة ولهفة:

- لكنهم في نانتوكيت أليس كذلك؟

ردّت جيرترود:

- بالطبع إنهم في نانتوكيت!

ودون سابق تحذير من أطلس، أو استعداد من الرجال؛ أخبرهم أنه حان وقت الصعود، مطلِقًا أغنية الاستدعاء ذات الصافرات الثلاث الطِوال، فانقبض قلب دكرور وشعر بالرهبة، على غير عادته حين كان يسمع تلك الأغنية.



(4)

ظلّ الرجال لبرهة ينظرون إلى بعضهم، كأنهم ينتظرون من ينهض أولًا ليتبعوه، حتى قال بوهاردي وقد بدا عليه التوتر هو الآخر:

- حسنًا يا رفاق!.. حضّروا أنفسكم..

أحضر كل رجل حربته وبندقيته أو مسدسه، وبكى سامبار بطيبة ورضى وهو يساعدهم ويودّعهم ويحتضنهم، وقال مازحًا بعد أن وَدّع أوين:

- عودوا بسرعة.. وعودوا بشَعرِكم

ووقف بوهاردي مواجهًا لكل الرجال، وظهره إلى باب الجوف، وقال وهو يحاول جاهدًا إظهار الثبات:

- أممم! أريد فقط أن أخبر من لن يرجع إلى الجوف معي أن... أه! فقط عودوا سالمين...

ونظر إلى أوين وأردف بابتسامة حزينة:

- وعودوا جميعكم.. حسنًا! أنا أحبكم جميعًا!

ثم التفت بســـرعة لكي يخرج، ربما قبل أن يرى أحد عينيه الدامعة، لكنه توقف فجأة وعاد يقول:

- أين الفتاة؟

كانت جيرترود تقف بعيدًا عنهم وتحمل طفلها، وتنظر إليهم في تعجب وترقب وقلق، فنادى عليها موريس:

- سيدة وينسلو! يجب أن تأتي معنا الآن، بهدوء إذا سمحتِ..

قالت جيرترود بعد برهة، كأنها كانت تستوعب الكلام:

- مماذا؟!! لا لا تعبأوا بي.. لا أريد أن أعطلكم!
- أنا أصرّ يا سيدتي.. لم يعد بإمكانك المكوث هنا أكثر
- من قال ذلك؟!.. يعجبني المكان هنا.. أتعلم! ربما ســأنظفه لكم إلى أن تعودوا.. ما رأيكم؟!

أطلق أطلس صافرة أخرى، فقال موريس بنبرة أكثر حِدّة:

- أخشى أنه إن لم تأتِ معي بهدوء فسأترك الأمر إلى مافي ودكرور..

يعلم دكرور جيدًا أن تلك الفتاة تكرهه وربما تخشـــاه، لكنه لا يعبأ بذلك، فقد ضـــاق بها ذرعًا بالفعل، فتقدم من بين الرجال ووقف أمامها لكي تراه بوضـوح دون أن ينبس بكلمة، وفور أن رأته ابتعدت بتوتر وعصـبية ناحية موريس، وقالت وهي تشير إلى دكرور:

- ابتعد عني أيها الوغد!.. حسنًا يا سيد موريس.. فقط أبعدهم عني وعن صغيري إدموند

خرج بوهاردي أولًا، فصـــعدوا إلى السـطح وتشـبثوا بجانب السـفينة، وسـرعان ما صـعد دييجو وأوين ثم ظهرت جيرترود وقد أحكمت ذراعيها حول الطفل، وبدا أنها ســوف تغرق حينما تركت نفســها دون أن تحاول السباحة، فأمسكها كلًا من أوين ودييجو من ذراعيها بسرعة ورفعاها إليهم، فتعلقت بذراعٍ واحدة بأحد الحبال وبالأخرى كانت تحمل طفلها، وقبل أن

تفكر أن تسعل وضع دييجو يده على فمها، وسبابة يده الأخرى على فمه، يحذرها من إصدار صوت.

ولما صار جميع الرجال والنساء والأطفال فوق السطح؛ تسلق بوهاردي جانب السفينة ليتفقد متنها، وما أن رفع نصف رأسه عاد يخفضها ثانيًا بسرعة كأن أحدهم قد ضربه على رأسه، فتسلق دكرور إلى جانب بوهاردي واختلس نظرة من السطح، ليجد رجلًا جالسًا على إحدى البراميل يعطيهم ظهره، وتستند على كتفه بندقية، وهناك آخرون واقفين وجالسين ومتكئين، وجميعهم مسلحين.

عاد بوهاردي ودكرور إلى الماء وقال الأخير:

- لقد عددتُ ستة مسلحين
- حسنًا سنسقط هؤلاء أولًا...

فسبِح موريس من تحت السفينة إلى جهتها الأخرى وتبعه فريقه، وانتظروا حتى أتتهم إشارة بوهاردي بالصعود، فبدأ دكرور يتسلق بسرعة، ثم رأى بوهاردي يصعد ويغرس حربته في ظهر الجالس أمامه، ثم انهالت الحِراب أولًا تطير هنا وهناك فوق سطح السفينة، تبعها القتال بالأسلحة النارية، فقُضيَ على كل من كان على المتن، وأخذوا أماكنهم يتوارون متأهبين، فريق يصوب على فتحة الكوثلة عند المؤخرة، والفريق الآخر في المقدمة عند الفتحة الأخرى.

وأثناء ذلك أطلقت عدة رصاصات عشوائية من فوقهم آتية من أعلى الصاري الرئيس، إذ كان أوساي لا يزال في طريقه إليه، فلاحظه من كان على الصاري كأنه كان يبحث عنه، فأطلق عليه وكاد أن يصيبه، قبل أن يرديه أوساي بتصويبة بارعة وهو لا يزال يتعلق في الحبال، فسقط الرجل من أعلى الصاري لكن تعلقت جثته بحبال السفينة المتشابكة، بعدها لاحظوا أوساي يرفع إبهامه فعلموا أنه لم يُصَب.

بعدها صعد إثنين مسلحين ممن كانوا في الأسفل، فأسقطوهم على الفور ولم يتبعهم أحد، فظلوا متوارين يتربّصون أمام فتحة الكوثلة والمقدمة، حتى

خرج ثلاثة بحارة من كل فتحة يطلقون بعشـــوائية وتبعهم آخرون واختبأوا بسـرعة، لكن أطلق عليهم أوسـاي من فوق الصـاري، فخرجوا من مكامنهم ولاقوا حتفهم الواحد تلو الآخر.

وقال بوهاردي بضيق وغضب بعد أن انتهوا:

- يصبح الأمر أكثر صعوبة كل يوم!!

وسأل مافي:

- هل يمكن أن تكون هي السفينة العاهرة نانتوكيت؟

رَد أوين:

- ليست هي، لقد رأيتُ الاسم...



صـــعدت جيرترود وكانت تبكي بالفعل، لكن زاد نحيبها عندما رأت الموتى ودماءهم أينما ولّت بوجهها، فأخذها دييجو إلى عند مؤخرة السـفينة بعيدًا عن الجثث والرائحة.

ثم نزل موريس إلى أســفل، وعاد ببوصـــلة ومجموعة من الخرائط والسـجلات، فبسـط إحدى الخرائط على إحدى الصـناديق، ثم وضـع عليها البوصلة، وأشار إلى الشمس التي شارفت على الغروب، وقال لرالف:

- حسنًا! إن اليابسة في هذا الاتجاه..

قال بوهاردي:

- لكن أي يابسة؟.. أين نحن بالضبط؟

ردّ رالف:

- ولم بالضبط؟ أتريد أن نذهب إلى الميناء مباشرةً؟

وأضاف موريس:

- بالفعل! لن نخاطر حتى بالإبحار بالسفينة قرب اليابسة، سنذهب بالقوارب وننزل إلى أقرب يابسة ونتدبر أمرنا من هناك

فقال سيجورد:

- هل تريدنا أن نجدّف حتى نجد اليابسة؟
- لا أعرف، ربما سنستعين بأطلس في ذلك

ثم فتح موريس السجلات، وقرأ فيها ثم قال:

- نحن في شهر يوليو من العام ستة وأربعين

قال عمار:

- هه! لقد ولدتُ في يوليو

فقال دكرور بسخرية:

- وكم أصبح عمرك الآن؟.. تسع سنوات أم عشر؟
- لقد أتممت الخمسين أيها الطفل الصغير!

فحيّا الرجال عمار بحفاوة، ونزل بوهاردي ورالف إلى أسفل، ثم عادا بالأسلحة والذخيرة، وجاء بوهاردي بصُرّة ممتلئة بالعملات، فوضعها على الخريطة وقال:

- ستحتاجون إلى هذا...

وعاد سيجورد وأوساي من أسفل وقد أحضرا برميلًا من المزر، وحضّر سيجورد حساءً وقام بطبخ بعض اللحم المملح، وقدّمه إلى الرجال في أطباق، وجلسوا يأكلون في حلقة يتوسطها برميل المزر، وكانت جيرترود تجلس خارج الحلقة، تأكل في صمت وتجَهُّم، لكن تتجرع المزر بنهم.

وأخذ الرجال يتسامرون ويتضاحكون ويغنون، حتى بدأوا يتعبون أو أنهم فقط يثملون، فرفع بوهاردي كأسه فسكت الرجال ثم قال وقد سكَرَ تمامًا:

- أمم! بمناســـبة أن هناك منا من لن يعود معنا إلى الجوف هذه المرة.. آه! أريد أن أحييهم وأشكرهم

قالها فازداد الصمت صمتًا، حتى رفع رالف كأسه وقال بثبات أكثر:

- نخب من لن يعود معنا، لكنه سيعود إلينا!

ورفع كل الرجال كؤوسهم واحتسوا منها جرعة في صمت، فقال أوساي:

- نخب بلوغ عمار الخمسين!

فصاح الرجال ورفعوا كؤوسهم، حتى قاطعتهم جيرترود قائلةً:

- هل قلت خمسين؟!! هل عمرك خمسين سنة؟!!

فقال بوهاردي بمرح وبصوت أخرق:

- نخب جيرترود ورضيعها، أول امرأة وأول طفل يدخلون بطن حوت!

فهتفوا ورفعوا كؤوســـهم مرة أخرى، ثم ردّ عمار على جيرترود بلســـان ثقيل:

- نعم، نعم لقد أتممتُ الخمســـين.. لكن لا زلتُ أبدو في الثامنة عشـــر وأتمتع بشباب وحيوية الثامنة عشر، وكم عمرك أنتِ؟
- أنا في السابعة عشر

قالتها فنظر عمار إلى دكرور نظرة انتصـار، فجاهد دكرور لإخراج آخر قطرتين من صوته ليقول بصوت خشن كالزمجرة:

- لا زالت تبدو أكبر منك!

وظلّوا صـامتين غير قادرين على الوقوف من كثرة الأكل والشـرب، إلى أن بدأ الجو يظلم واقتربت الشــمس من أن تلمس ســطح البحر، حينها قطع أوساي ذلك الصمت وبدأ يغني أغنية "لا تبتعد" المفضلة لدى دكرور:

ستبدأ الحياة قريبًا.. فلا تبتعد عن المحيط

التقط أنفاسك من الماء.. لأن الهواء مميت

وحينما تغرق على اليابسة.. أهرب إلى البحر القريب

وحين تهب العاصفة قريبًا.. فلا تبتعد عني

إنه أنا الجاني.. كما أنني ضحيتك

أنا الملعون.. لكنني المبروك بوجودك

سأدفع ما تبقى من عمري.. فقط لأكون معك

ولأن العاصفة ستنتهي قريبًا.. فلا تبتعد كما يفعلون

لا تبتعد عني.. لأني لم أفعل أبدًا

لا تبتعد عني.. لكي أصبح أحسن

لا تبتعد عني.. لكي نموت معًا

ولأن الحياة ستنتهي قريبًا.. فلا تبتعد لكي أعيش إلى الأبد

لا تبتعد عني لكي أعيش إلى الأبد

يحفظها دكرور عن ظهر قلب، ورغم أنها أغنية حزينة ومؤثرة بعض الشيء، إلا أنها لم تؤثر فيه من قبل مثل هذه المرة.

ثم بعد أن انتهى أوساي نهض موريس بصعوبة وقال:

- من يريد أن يبدّل ملابسه فلينزل الآن..

ثم نزل أولًا وتبعه البعض، وارتدى دكرور قميصًا وسروال بحمّالات على الأكتاف ولم يحتَج إلى معطف في شهر يوليو، ووجد قبعة رمادية وما أن رفعها على رأسه حتى بدا أنه ذاهب إلى أمريكا حقًا، فرآه مافي وقال بإعجاب وهو يعطيه بلطته:

- حسنًا أيها المتأنق! لقد حان الوقت.. لا تصعد ومعك فتاة أخرى!

فنزل دكرور وصنع خرقًا في السفينة، ولم يرجع إلا بعد أن تأكد أن الماء سيتدفق حتى تغرق، فوجد الرجال وقد بدأوا يودعون بعضهم بالفعل، كان يعلم جيدًا في قرارة نفسه أن تلك اللحظة لا مفر منها، لكن لا يعلم لماذا لم يفكر فيها قبلًا، كان يتصافح هذا وذاك ويتعانق هذا وذاك، حتى أن أوساي بدا كالورم في ساق مافي وهو يحتضنها ويبكي، وبوهاردي أيضًا لم يقدر على دفع بكاءه وهو يعانق موريس نصف عناق، كما بكى عمار ورالف وأوين، ومن لم يبكِ منهم فقد ذرف الدمع كما لو أنه فعل.

مثل دكرور، فبجانب الألم الذي اعتاده في حلقه عندما يمكث طويلًا خارج الجوف؛ أضيف إليه ألم دفع البكاء، وأما عن دموعه فتلك لم يكن يمانعها، إذ لم يكن لها من دافع على كل حال، ثم صافح بعضهم، واحتضنه بعضهم، وجثا على ركبتيه يحتضن أوساي فقال الأخير:

- كنت لآتي معكم.. لكن كما تعلم إن قدماي أقصر من قضيبي

زفر دكرور ضحكة، وضمّ أوساي إلى صدره أكثر كأنه يردّ عليه "وأنا أيضًا سأشتاق إليك"، ثم قال سيجورد بمرح لم يبدُ في صوته:

- ماذا أصابكم جميعًا؟! سنعود في خلال يومين!!

وجيرترود تقف وتشاهد كل ذلك في استغراب واضح على ملامحها، فقال لها موريس وهو يشير إلى القارب:

- من بعدكِ يا سيدتي!

فأخذ بيدها برفق وصعدت إلى القارب بهدوء، وتبعهم كل الرجال ما عدا بوهاردي وديبجو، فقد بقيا على السفينة لإنزال القارب.

وأثناء ما كان القارب ينزل، نفث أطلس عمودًا من الرذاذ الدافئ ذو الرائحة التي تعلق بالجسم، فنزل عليهم كالمطر الخفيف، وحينها قرر دكرور بعد أن سأم من دفع البكاء؛ أن يطلق سراح قلبه أخيرًا لكي يبكي من دون صوت إلا صوت أنفاسه، وقد تضاعف همه وحزنه حين رأى موريس

بالذات وهو يبكي، إذ إن بكاء الناس محزن بما فيه الكفاية، لكن بكاء من نعتمد على ثباتهم؛ فذلك كفيل بتمزيق القلب وزعزعته.

ثم قال سيجورد لأطلس وهو ممسكًا بحبل ويريه إياه:

- نريد مساعدتَك للوصول إلى اليابسة.. حسنًا!

ثم ربط الحبل بذيله، وقال بوهاردي وهو في الماء:

- عودوا في أسرع وقت ممكن

ثم قال مافي:

- وأنتم خذوا حذركم حين تصعدون

وقال دييجو:

- لا تقلق علينا! فقط عودوا سالمين

وقال أوساي أخيرًا:

- نحن نحبكم أيها الحمقى!

واختفوا جميعًا داخل الجوف.

بعدها انطلق أطلس يمخر البحر أمامه، ويقطر القارب من وراءه حتى بدا كأنه يطير، وكانت الشمس قد شارفت على الغروب، وبدأ القمر يأخذ مكانها في السماء تصاحبه النجوم، وكفّ دكرور عن البكاء قليلًا فوجد جيرترود تنظر إليه نظرة لا تخفي شفقة، وقالت كأنها تريد أن تخفف عنه:

- لم أكن أعلم أن لديك قلب!

لا يعلم دكرور إن كانت قد قالت ذلك بالفعل أم أنه هو من قاله لنفسه، وبالرغم من تيقنه أنه قد عاد أبكمًا؛ إلا أنه سمع نفسه بوضوح يقول:

- أتمنى لو أني تركتكِ تغرقين مع السفينة!

وعاد إلى بكائه، وقد ندم كثيرًا أنه سَكَر في مثل هذا الموقف الصعب، إذ إن غياب العقل ســواء إن كان ســكرًا أثناء اليقظة أو حلمًا أثناء النوم؛ فإنه يعزز المشاعر ويشعلها، من دون أن يهتم بماهية تلك المشاعر.

وظل أطلس يقطر القارب حتى بدا أنه قد قطع المحيط كله، وقبل أن تختفي الشمس وراء الأفق أشار أوين ناحيتها وقال:

- اليابسة! هناك!!

كان يشــير إلى خطًا باهتًا متعرج هو الذي يحجب الشــمس، وانتظر موريس حتى اقتربوا كفاية منها، والتقط أنفاسه بقوة كأنه هو من كان يسبح، ثم أخذ نفسًا عميقًا وزعق:

- توقف!!!

فأبطأت سـرعتهم وتوقف أطلس، ففكوا الحبل المربوط بذيله، وبقيَ يطفو بجانب القارب، ونفث نفثة ضعيفة فجلس الرجال يتأملونه قليلًا، وقبّل عمار يده اليمنى ومسحها على ظهر أطلس برفق وقال:

- لا تبتعد عن المحيط يا أطلس!

وفعل باقي الرجال المثل، ثم قال موريس في تعب:

- هيّا يا رفاق! أنزلوا المجاديف..

واتخذوا أماكنهم فكان مافي وسيجورد على جهة، ودكرور وأوين وعمار على الجهة الأخرى يقومون بالتجديف، وأمامهم كان موريس على مجداف التوجيه، فشاهدوا أطلس وهو يسبح وراءهم في النصف المظلم من المحيط، لكنه توقف عندما وصلوا إلى المياه الضحلة.

ودون أن يبتعدوا كثيرًا نفث أطلس نفثة أخيرة قبل أن يرفع ذيله العملاق خارج الماء كأنه يلوّح لهم، وآخر ما رأوه منه كان ذيله وهو يغوص في الماء، ولم يُبدِ أحدًا أي تأثر بذلك المشهد، إلا الطفل، فقد أجهش في البكاء.



ترك جوفَ أطلس أكثر من نصــف ســكانه، بدا الأمر كأنهم خرجوا إلى ســفينة، إلا أن مكوثهم ســيطول بعض الشــيء، وكما يثق أطلس في عودة رجاله من الســفينة؛ فإنه يثق في عودتهم من تلك اليابســة، والتي ما أن وضعوا أقدامهم عليها حتى لم يعد يشعر بهم كأنهم اختفوا.

لم يبتعد أطلس عن مكان ما ترك رجاله، وظل يسبح بالقرب من الشاطئ الذي نزلوا عليه، إلى أن عاوده الشــعور بالحيتان الرمادية، ذلك الشــعور الذي صار يصيبه بالإحباط واليأس أكثر من الأمل، كان قويًّا في بادئ الأمر وذلك ما جعله يتجاهله، إذ إنه دائمًا ما يبدأ قويًا ثم يخفُت ثم يزول تمامًا، فظل مكانه في انتظاره أن يزول، لكنه لم يفعل سوى أن اشتدّ أكثر.

لكن ما أثار اهتمامه هذه المرة هو شــعوره بأكثر من حوت وليس حوت واحد، وذلك ما لم يحدث من قبل، لا يزالون بعيدين، ربما شــعر بهم أقرب وهو في المحيط الهادي، لكن هذه المرة كان شــعوره أقوى، ثم لفت انتباهه أنه لا يزول أو يخفت، فقد طالَ أكثر من أن يتجاهله.

ظل أطلس لبقية الليل محتارًا فيما إن كان ســيبقى بجانب تلك الجزيرة منتظرًا عودة رجاله، أو يتتبع الحيتان الرمادية، وفي حين أنه يعلم أن رجاله لن يعودوا إلا بعد حين؛ فقد قرر أن يتوجه نحو شــعوره، الذي يعلم أنه في الشمال، وقبل حلول الصباح بدأ يسبح بسرعة أسرع كثيرًا ممّا يفعل عادةً، وهو ينوي أن يعود ما أن يتفقد الأمر، أو ما أن يشــعر برجاله، ولم يمضِ كثيرًا حتى حدث ذلك.

وعلى هذه الســرعة التي كان يســبح بها؛ فقد قطع مســافه كبيرة قبل أن يشعر برجاله وقد عادوا للمياه، فالتفتّ عائدًا بسرعة أكبر، وما أن كاد يصل حتى اختفى رجاله مرة أخرى وزال شعوره بهم، وبقيَ شعوره بالحيتان.

احتار كثيرًا في أمر رجاله وتعجب من فعلهم ذلك، فقرر أن يصــرف نظره عن الحيتان حتى رأى بعين أحدهم، ورآهم كثيرين، فقرر أن يصرف نظره عن ذلك حتى رأى جليد من حولهم ربما يعرف مكانه، وأيضًا قرر أن

يصـــرف نظره عن ذلك حتى رأى كيانج بعين الحوت الآخر، وذلك ما لم يقدر على صرف نظره عنه.

وعاد يتوجه شـــمالًا بســـرعة غير عادية، آملًا أن يتفقد الأمر قبل عودة رجاله، فسبح وظل يسبح حتى وصل إلى قلب الشمال المتجمد حيث مات الحوت الصائب، لكن لا يزال شعوره يسوقه لأبعد من ذلك، وأبعد من ذلك يعني المحيط الهادي، وإذ إنه ابتعد كثيرًا على كل حال، فلم يمانع من الذهاب أبعد.

يعلم أن هناك طريقًا مختصـرًا من تحت الجليد وبين شقوقه وتصدعاته يؤدي إلى المحيط الهادي، ســـلكه مرة واحدة من قبل مع كيانج، لكنه لم يجازف بتكرارها مرة أخرى وحده، فكثيرًا ما علقت حيتان فيه وتاهت وماتت مختنقة، فسلك الطريق الطويل الذي يعرفه.

وما أن صـــار في المحيط الهادي بعدما حلّ الليل؛ حتى علم أن كيانج قريب عندما وجد حيتان زرقاء من أتباعه، إذ كانوا في صف طويل وليسوا قطيعًا عاديًّا، لكنهم أيضًا كانوا شاردين ولا يغنون، أو يصدرون أي صوت، أو أي إشارة تدل على أن كيانج يتحكم فيهم.

وربما لم ينتبه أطلس لذلك، فكان متحمسًـــا وقد زاد من ســـرعته، وكلما سبح أكثر كلما اشتدّ شعوره بالحيتان الرمادية، كان موقنًا من أنه أقرب إليهم من أي وقت مضى، ثم وجد سفينة تصيد الحيتان مائلة بعض الشيء ويبدو أنها اصـــطدمت بالجليد رغم أنه لا يوجد جليد قريب، فلم يعبأ أطلس لذلك أيضًا وأكمل طريقه.

ولم يخُض كثيرًا في الهادي المتجمّد حتى وجد كيانج، وللحظة تعجب من أنه يطفو على الســـطح على جانبه، وفي اللحظة التالية علم أنه ميّت، وفي اللحظة التالية رأى حوتًا رماديًّا بعيدًا.

الفصل الثامن

"زِيارَة إلى بَيت حَوَّات"

(1)

خرجت السفينة تزحف من البحر على الشاطئ وهي تشتعل فكان مجرد لمسها للهواء يُضرِم فيها النيران كأنها قد خرجت إلى الجحيم عليها مائة صاري مشتعل الأطراف وأشرعتها مغزولة من نار كأنها أشجار أوراقها من لهب وكان عليها ناس يبدون بخير كأنهم في رحلة ورغم أن منظرها كان رهيبًا إلا أن دكرور لم يرتهب بل على العكس كان هو ورفاقه يسبحون إلى جانبها كأنهم هم من أحضروها إلى البر وكلما سبحت في اليابسة أكثر كلما طال الطريق الأسود الذي تخلفه وراءها من الأشجار المتفحمة والركام الأسود المساوي للأرض ووصلت السفينة إلى الشاطئ المقابل للذي خرجت منه كأنها زحفت نصف العالم ودكرور ينتظرها على ذلك الشاطئ ليحيّيها ويودّع من عليها بعد أن عادت إلى البحر فلوّح إليهم بيده ليجدها تشتعل

ربما نســيَ دكرور ذلك الحلم فور أن اســتيقظ، لكنه علم أنه لم يكن حلمًا سـعيدًا، وشـعر بتأثيره الغريب عليه، وأن هناك شـيئًا خاطئًا في العالم، لكن أكثر ما جعله يشــعر بالغرابة هو أنه قد نام بعمق خارج الجوف، جعله ذلك يشعر بعدم الأمان وأنه مكشوف.

كان الصداع يضرب رأسه مع كل حركة، وكان مغطى كله بملاءة إلا يده كانت عارية في الشــمس لتأكلها، فأحس بها كأنها تحترق، رفع الملاءة عنه ليجد نفســه على القارب ومافي وســيجورد وأوين وعمار يعطونه ظهورهم ويجدفون بمحاذاة الشاطئ، فشعر به أوين والتفت وقال عندما رآه:

- انظروا من عاد إلى الحياة!

لم يرُد دكرور عليه، كما أنه يعلم أنه قد ذهب صــوته بالفعل، فاكتفى بأن سبّه في سره، وإذ إنه كان ثملًا بشدة في الليلة الماضية؛ فلم يتذكر سوى أنه ظل في القارب يتأمل النجوم، حتى أصابه النعاس وغاب عن الوعي.

كان موريس يجلس مواجهًا لهم، يســتند إلى مجداف التوجيه في كســل وبالكاد يحركه، حين أجاب دون أن يُسئَل:

- لم نرسو في نانتوكيت يا دكرور، لكننا في... أين نحن يا جيرترود؟
- سكونست.. للمرة الألف إنها قرية سياسكونست!
- ...سياسكونست، ونحن الآن متجهون إلى أقارب لجيرترود يعيشون هناك لنستأجر منهم مركبًا أكبر يقلنا إلى نانتوكيت

سكت موريس وظل ينظر إلى دكرور بفتور كأنه نعسان، ثم أردف:

- هذا كل شيء.. هل نسيتُ شيئًا يا عزيزتي جيرترود؟
- لا، لم تنسَ شيئًا سوى أننا بالفعل على جزيرة نانتوكيت، فقط المدينة تقع على الجانب الآخر من الجزيرة

كانت جيرترود تجلس بالقرب من دكرور عند مقدمة القارب وتعطي ظهرها للرجال، وتكلمهم بنصف وجهها دون أن تلتفت كلها، فمدّ دكرور رأسه ليرى ما الذي تخبئه، ولم يرَ شيئًا سوى قدما رضيعها، فعاد ينظر إلى الرجال في حيرة، فأشار إليه سيجورد أن يقترب، وأخبره بصوت خفيض:

- إنها على هذا الحال منذ أن ركبنا القارب.. لا نعلم ما الذي تخبئه، انظر وأخبرنا ما هذا الذي لا تريدنا أن نراه

نظر دكرور إلى جيرترود بشك، ولا تزال رؤيته مشوشة من أثر النوم، واستند على حافة القارب ومدّ جسده كله بجانبها، وقبل حتى أن يلمح ما بين يديها؛ انكمشت بعصبية ودوّرت نفسها عنه بسرعة، وهي تقول بدهشة وازدراء كأنه قد رأى عورتها:

- ماذا تفعل أيها الحقير؟!

إلا أنه بالفعل كاد أن يرى عورتها، وعلم أن ما تخبئه في صدرها هو صدرها نفسه، فكوّن فكرة عمّا كانت تفعل على الفور، بعد أن تذكر أن إناث البشر يقمن بإرضاع أطفالهن.

وانفجر سيجورد وجميع الرجال في الضحك حتى موريس، وقد توقفوا عن التجديف، فأراد دكرور أن يضرب سيجورد، وأن يعلمهم أنه يستعر

غضبًا، لكنه يعلم أن ذلك لن يجدي بينما يضحك هو الآخر، فاكتفى بأن اتخذ مكانه يجدف وهو ما يزال يضحك ويشعر بالغضب والخجل في آنٍ واحدٍ.

عادت جيرترود تجلس تواجه الرجال بعد أن سترت نفسها، وهم يعطونها ظهورهم إلا موريس، ولاحظ دكرور حين التفت أنها تنظر إليه بطرف عينها بازدراء واشمئزاز ثم قالت:

- كنت أعلم أنك المنحرف بينهم!

نظر دكرور إلى موريس بدهشة لا تخفي ابتسامة، ربما يريده أن ينصفه، لكنه شعر بالإحباط حين رآه لا زال يضحك وغير قادر على الكلام مثل البقية، فقال سيجورد بتهكم شديد:

- بالفعل! معكِ كل الحق يا سيدة وينسلو، لقد سئمنا من انحرافات ذلك المنحرف، لكن لا تقلقي.. ما دمتُ موجودًا فلن أجعله يقترب منكِ
- أشكرك يا سيد سيجورد! أنت رجل محترم

قرر دكرور ألا يبدي أي رد فعل على الغضب أو الضيق، وأن يسمح بذلك من أجل خاطر المزاح والمرح فقط، حتى قالت جيرترود:

- بالطبع لا تتكلم، هل هذا حياء؟ لم أعلم أن لديك ذرة منه.. لا شك أن أخلاقك تلك هي ما ساقتك إلى بطن ذلك الحوت

ترك دكرور المجداف، وأمسك بأقرب حربة إلى يده، ونهض بعصبية يصوب الحربة إلى وجهها، فجفلت وارتعبت كأنها رأت عفريت، وانكمشت على رضيعها وهي تنظر إلى دكرور برعب وترقب.

أفاق دكرور من نوبة غضبه على صوت موريس وهو يقول:

- ضع الحربة يا دكرور.. من فضلك!

ثم وجد نفسه يلهث كأنه كان يركض لكنه كان من مجهود الغضب فحسب، فأرخى الحربة من يده كأنها ثقلت فجأة، ثم ألقاها بعصبية، وعاد إلى مكانه، وعادت جيرترود تجلس معتدلة، فقال لها موريس:

- إن تفوّهتِ بكلمة أخرى...

قالها بتلك النبرة الحادة الهادئة التي لا تدع مجالًا للنقاش بعدها، فعاد الصمت إلى القارب، وعاد الرجال يجدفون في تناغم، حتى قال موريس من دون أن تتغير نبرته:

- والآن يجب أن نتفق على شـــيء واحد مهم.. ماذا ســتقولين لأقربائك حين نصل؟

حارَت جيرترود وأخذت تبحث عن إجابة لذلك الســؤال، كأنها كانت تعرفها لكن نسيَتها، ثم قالت بتلعثم وتوتر:

- أه! ربما ســأخبرهم أن أممم!.. أن جيمس أرســلكم معي لكي... ربما لكي...

قاطعها موريس:

- لكي تَصِلي بسلام.. هذا جيد، حسنًا يا رجال.. إذًا نحن بحارة القبطان جيمس وينسلو.. قبطان السفينة...؟

ثم نظر إلى جيرترود فأجابت على الفور:

- آڤريك!
- إذًا نحن بحارة القبطان وينسلو.. قبطان السفينة آڤريك.. والتي أبحرت منذ سبعة أشهر مفهوم؟ هل من شيء آخر يجب أن نعلمه يا عزيزتي؟
- لا أعلم.. فقط إن جيمس لم يكن يقبل فكرة وجود بشــر في بطون الحيتان، كان يعاقب من يتكلم في الأمر حتى
- ونحن أيضًا لا نصدق ذلك، صحيح أيها الرجال؟!

فعادوا يضـحكون إلا مافي الذي بدا كأنه مشـغول بالتفكير في شــيء، فسأل جيرترود بعد أن توقف عن التجديف:

- مهلًا! كم عمر هذا الرضيع؟
- سبعة أشهر

- هل ولدتِه على متن السفينة؟
- لا بالطبع.. لقد أبحرنا بعد أسبوع من الولادة، كنت لا أزال...

قاطعها موريس:

- دعكِ من هذا، والآن كلنا نعلم أنكِ فتاة ذكية، ولا داعي لإخباركِ عمّا سنفعل إن أخبرتِ أحدًا عمّا رأيتيه، لكن اعلمي جيدًا أننا سنعلم إن فعلتِ.. مفهوم؟

كانت جيرترود تتصبب عرقًا، وربما أرادت أن تبكي حين قالت:

- ممفهوم يا سيد موريس! لكن يجب أن تعلم أيضًا أن العم إدموند يصدق هؤلاء الذين يؤمنون بأن هناك بشرًا في بطون الحيتان
- لا يهمني ما يصدقه العم إدموند بالفعل، بل ما الذي سنجعله نحن يصدق.. هل هذا واضح؟!

أومأت جيرترود، فأردف موريس:

- نشكركِ على تفهمكِ يا سيدتي، ونحن ممتنون جدًا لمساعدتكِ، ونعتذر عمّا سببناه لكِ من مشاكل

فكر دكرور بحسرةٍ ساخرة "ومن سيعتذر لنا عما سببته هي من مشاكل"، ثم قال عمار:

- سأكون ممتنًا أكثر إذا وصلنا!

توقف الرجال عن التجديف للاستراحة والتقاط الأنفاس، فنهضت جيرترود وأشارت إلى الشاطئ وهي تقول بعصبية:

- لمَ توقفتم؟.. لقد وصلنا!



كانت جيرترود تشير إلى مرفأ صغير يرسو عليه مركب بشراع واحد، وعدة قوارب أصغر، ومثلها على طول خط الساحل كان صف من القوارب مقلوبة على الرمال، ووراء ذلك في مساحة كبيرة من الرمال الصفراء والأراضي الخضراء؛ كانت تقع عدة بيوت صغيرة متفرقة، فبدت معًا أشبه بقرية صغيرة بالفعل، وجميعها من الخشب كأنها سفن تسبح في البر بطريقتها الخاصة.

ربطوا قاربهم عند المرفأ، ونزلوا جميعًا، فقال موريس:

- ستتولين معظم الكلام يا جيرترود، ولا تنسي اتفاقنا.. من بعدكِ!

وتقدمت جيرترود المسير تحمل رضيعها بين يديها نحو أحد المنازل، والذي كان وراء المرفأ الصغير وكان أقرب البيوت إلى البحر، فوقفت أمام الباب وانتظر الرجال وراءها، فأخذت نفسًا عميقًا وطرقت الباب.

ولم تنتظر كثيرًا حتى فتحت فتاة أصغر منها، ونظرت إليها برهة ثم قالت بتعجب:

- جيرترود؟!!

ثم جاءت فتاة أخرى ربما في سن جيرترود بدت عليها الدهشة الشديدة لرؤيتها، ومن دون أن تتكلم تبادل ثلاثتهم العناق، وأعطت جيرترود رضيعها إلى الفتاة الكبيرة لتحمله.

والرجال يقفون في صمت وثبات، حتى جاء صوت من وراءهم يقول:

- من أنتم؟

كان رجلًا عجوزًا ربما في عقده السادس مثل موريس، لكن أصلع وليس بنصف هيبته حتى، كان يحمل مِحراثًا بكلتي يديه كأنها حربة يقاتل بها، وقبل أن يجيبه أحد على سؤاله هرعت جيرترود إليه وهي تقول بعصبية:

- عمي إدموند! انتظر!

رآها الرجل فتبدلت ملامحه، وعانقته بقوة فبادلها العناق في ذهول وقال:

- عزيزتي ترودي! كيف جئتِ إلى هنا؟ ومن هؤلاء؟

ردّت جيرترود في ثبات وثقة ومن غير تلعثم:

- لقد أرسلهم جيمس معي
- هل عاد بالفعل؟! لم تمر سبعة أشهر!!

ثم نظر إلى الرجال يتفحصهم وقال:

- وأرسل معكِ ستة؟!

ثم نظر إلى المرفأ وأردف:

- في قارب تحويت؟!

ثم نظر إلى البحر وسأل:

- أين هو ذلك الحثالة الأرعن؟
- لقد أكمل الإبحار، أنا فقط رحلتُ لأني مريضة، ومن الصعب العناية بإدموند الصغير في البحر وعلى سفينة تحويت

احتضن العجوز وجه جيرترود بكلتي يديه، وقال بحنان:

- لكنك تبدين بخير يا عزيزتي... مهلًا! هل سميتيه إدموند؟! أين ذلك الصغير؟
- إنه مع بياتريس
- حسنًا فلنعد إلى الداخل.. وأنتم أيها البحارة يمكنكم العودة إلى سفينتكم وقبطانكم

قالها وهو يهش بيده في ازدراء وغطرسة كأنه يطردهم، فاكفهرّ وجه جيرترود وتلوّن وهي تنظر إلى موريس يتقدم ويمدّ يده إلى العجوز وقال:

- موريس أليكساندر! صائد حيتان

صافحه العجوز في تردّد وشك قائلًا:

- إدموند كوفِن! صائد حيتان

أكملت جيرترود كلامه بعصبية شديدة:

- سابق**!!** صائد حيتان سابق.. ألم تعتزل تلك المهنة يا عمي**؟**
- سيُكتَب على قبري صائد حيتان رغم ذلك

قال موريس:

- على كل حال يا سيد كوفن، نريد أن نستأجر منك ذلك المركب للعودة إلى نانتوكيت في أقرب وقت، للانتهاء من بعض الأعمال، كما يجب إعادة ذلك القارب
- أه معلوم، لكن هذا سيكلفكم
- لا بأس، أرجو فقط ألا تكلفنا كرم ضيافتكم حتى نرحل
- إذًا سنرحل بكرةً مع أول ضوء للفجر، والآن هيا للداخل

كان داخل المنزل أصغر مما يبدو من الخارج، بدا موحشًا ومظلمًا حتى وضوء الشمس يدخله، وكانت مصابيح الزيت المطفأة تزين السقف، والحراب ورسومات لحيتان وسفن وقوارب؛ تزين الجدران.

كان الفتاتان مع الرضيع يلاعبانه، حتى دخل العجوز فأعطوه له، وأمرهن بتحضير المائدة للغداء، وساعدتهن جيرترود ودَعَت الرجال للجلوس على مائدة وحين أرادت الذهاب استوقفها موريس قائلًا:

- لقد أبليتِ حسنًا، لكن عليكِ أن تهدئي فلن يتأذى أحد.. مفهوم**؟!**

أومأت جيرترود وذهبت إلى الطابق العلوي، وصار الرجال وحدهم على المائدة، وأمامهم أطباق فارغة، فقال عمار بحماس وهو يفرك يداه معًا:

- لقد سار ذلك على نحو جيد**!**

فقال سيجورد بمرح:

- والفضل كله للسيد أليكساندر.. لم أكن أعلم أن اسمك الأخير أليكساندر

قال موريس:

- لقد كنتُ مســـيو أليكســـاندر لفترة طويلة، قبل أن يعتاد عليّ هؤلاء الحمقى، وينادونني باسمي الأول

همس دكرور فسكتوا ليسمعوه وسأل سيجورد:

- ماذا عنكَ؟ ما اسمكَ الأخير؟
- جاتفولد! سيجورد جاتفولد

ثم أشار إلى مافي وسأله نفس السؤال فأجاب:

- مافي ابن ماني

ثم وكز عمار فقال:

- عمار عبد المؤمن

ضحك دكرور على كل حال، فقال عمار باستهزاء وسخرية:

- وماذا عنكَ أنتَ؟ أتعلمون؟.. إن دكرور ليس اسمًا حتى

فرَدّ موريس عنه وهو يضحك:

- إنه لا يعرف اسمه الثاني حتى يعرف الأخير

وضحك هو ودكرور فقط، ثم أشار دكرور إلى أوين وهمس إليه:

- وأوين إلوود أعرفه... ماذا عن البقية؟

فأجابه كل من تذكر اسم أحدهم، فقال موريس أولًا:

- هناك رالف كيبلينج، ودييجو جوتييريز، وتاندي بوتوي، وبوهاردي موجولوشي...

قاطعه عمار:

- مهلًا! كنت أعتقد أن بوهاردي اسمين معًا! صار الآن أربعة!!

ضحك الجميع، ثم قال مافي:

- بل إنه سامبار اسمه الحقيقي سامبا مبادار، وأوساي اسمه أوسا يولا لكنه كان أشبه بأسماء الفتيات، من أيضًا؟.. ودوراي أولوجيمي، و...

أضاف أوين:

- وويليام هاسكل، وهنري بوتش، وبيدرو جارسيا...

وأضاف موريس أخيرًا:

- وزيمان ديتريش، ولويس فيدالجو.. هل نسينا أحد؟



عاد كوفن وجلس مقابل موريس عند الطرف الآخر من المائدة، ومن بعده جاءت الفتاتين مع جيرترود التي عادت أنظف وحتى أجمل من قبل، وبدت كطفلة صغيرة من دون رضيعها بين ذراعيها، وملأنَ الأطباق الفارغة بالطعام، والأكواب الفارغة بالجعة، وجلس ثلاثتهن عن يسار كوفن، ثم قال له موريس:

- هاتان يجب أن يكونا بناتك
- أه! هذه بياتريس.. وتلك الصغيرة إدنا، وأنتَ لم تعرفنا على رجالك

ربّت موريس على كتف مافي الجالس عن يمينه وقال:

- هذا مافي...

وأشار عن يساره بالترتيب:

- وهذا أوين وعمار ودكرور وسيجورد
- لديك مزيج عجيب من الرجال يا سيد أليكساندر!

فقال عمار وهو يبتسم:

- انتظر حتى ترى أوساي!

ضحك كل الرجال، وحتى جيرترود فقالت مفسرة:

- إنه قزم يا عمي

قال كوفن في دهشة:

- قزم! على سـفينة تحويت؟! كيف يسـمح ذلك الرخيص البخيل بهذا، أعذريني يا عزيزتي لكني كنت أدعو على الآڤريك لكي تغرق...

ثم أضاف بمرح وسخرية:

- أو ترسـل الحيتان رجالها إليها وإلى زوجكِ، لكن حين علمتُ أن ذلك الوغد قد أخذكِ معه...

فكر دكرور وهو ويحاول جاهدًا أن يكتم ضحكه "لقد علمتَ متأخرًا إذًا"، وضحك سيجورد ضحكة مكتومة وحاول أن يخفيها بيده، لكن سمعها كل من حوله، فقطع كوفن كلامه وقال:

- هل تظن أنها مزحة يا سيّد؟!

ردّ سيجورد والابتسامة لا تزال على وجهه:

- اعذرني يا سيدي!.. لكن هذا بالضبط ما أظنه
- إذًا أنتَ أحمق وأعمى مثل قبطانك، لكنك معذور.. أنا أيضًا كان الأمر أمام عيني ولم أرَه

قال مافي باستغراب:

- ما الذي كان أمام عينك؟

وضع موريس يده على ذراع مافي فسكت، وقال هو باهتمام:

- عفوًا يا سيد كوفن! ربما بإمكاني تصديق أن هناك بشرًا في بطون الحيتان؛ فقد فعلها النبي يونس من قبل، لكني أجد من المستحيل لعاقلٍ أن يصدق أن تلك الحيتان ترسل بشرًا لقتل الحوّاتين، أعني إن ذلك فقط.. ليس منطقيًا

- أتعلم ما الذي ليس منطقيًا؟ الاختفاءات المتزايدة للسفن، سفن التحويت تحديدًا، وفي الأطلسي تحديدًا.. هناك اختفاءات في الهندي والهادي أيضًا لكن ليس بكثافة الأطلسي

قال أوين:

- ولمَ لا تكون بسبب العواصف؟ أو الجليد؟ أو القراصنة؟.. لقد أصبحت سفن القراصنة أكثر من سفن التحويت، معذرةً يا سيد كوفن، لكن ليس معنى ألا يكون الشيء منطقيًا، أن يكون تفسيره غير منطقيًا مثله
- حسنًا ما تفسيرك إذا رأيتَ حطام سفينة دون أن يكون هناك سفينة أصلًا، حبال وبراميل فارغة وخشب وأمتعة؛ تطفو في مكانٍ واحد كأنها أُلقيَت معًا، القراصنة وإن لم يأخذوا السفينة، فإنهم يتركونها كما هي، والعواصف وإن أغرقت سفينة، فإنها لا تترك حطامها في مكانٍ واحد، يمكن أن يفعل الجليد ذلك، لكن لم يكن هناك جليد عند خط الاستواء في آخر مرة تفقدته، وآخر ما سمعت من تلك الأمور كان عن حطام سفينة محترق قرب الجليد في الشمال المتجمد، أخبرني يا سيد.. ما تفسيرك لكل ذلك؟

التقط الرجل أنفاسه وأخذ جرعة من شرابه، وأكمل في شرود كأنه يكلم طعامه:

- ما تفسيرك لعدم عودة زاك حتى الآن...

قاطعته الفتاة الكبيرة بياتريس:

- أبي!

أكمل والدها كأنه لم يسمعها:

- أنتظره منذ ثمانِ سنوات.. يقولون أن سفينته قد غرقت في جنوب الأطلسي... كانت تلك أول رحلاته

كانت جيرترود تحني رأسها على صدرها لتخفي وجهها، ثم ابتسم كوفن إليها ابتسامة يائسة وأردف:

- كان سيتزوج جيرترود بعد أن يعود...

لم يحتَج الكلام لإيضاحٍ، فسكت الجميع وأكملوا أكلهم في صمت ووجوم، حتى قال مافي:

- لقد قلتَ أن الأمر كان أمام عينك ولم ترَه، أعني.. هل هذا ما جعلك تراه؟

ردّ كوفن بثقة وقد عاد إلى صوابه:

- فقدان زاك ومثله كثيرين؛ هو ما كان أمام عيني، لكن الجُند الحوّاتون هم من جعلوني أرى الحقيقة

وأكمل أكله كأنه قال شيئًا عاديًا، وحين وجد الرجال ينظرون إليه وإلى بعضهم باستغراب؛ توقف عن الأكل وقال بسَأم:

- بربِّكم! كم عامًا قضيتم في البحر؟ لا يُعقل أنكم لا تعرفونهم، هل أنتم من الجزيرة أصلًا؟

رَد أوين:

- كما قلتَ يا سيد كوفن.. نحن مزيج عجيب من الرجال
- على كلٍ.. إنهم جماعة من الرجال يروجون ويشيعون تلك الفكرة، أو ربما هم من ابتدعوها في الأصل، بدأوا في الظهور منذ سنتين، ولهم القليل من العقلاء يصدقونهم، وهناك شركة أعطتهم سفينة

قال عمار بسرعة:

- هل لتلك السفينة اسم؟
- كان اسمها... أنا لم أرَها بعيني من قبل لكن... لا، لا أعرف اسمها

وقال موريس بلا مبالاة كأن الأمر لا يعنيه:

- سـفينة! لماذا؟.. هل أصـبحوا يوزعون السـفن الآن؟ أليس الحوّاتون أولى بتلك السفينة؟
- لا، اسـمع هذا! حين ذهبت إلى المدينة آخر مرة، كان حديث المدينة كلها عن أن هؤلاء الجنود الحوّاتون قد قتلوا حوت عنبر من تلك الحيتان، ومعه الرجال الذين بداخله

أشاح مافي بوجهه وقال تلك الكلمة التي تعني "اللعنة" بلغته الأصلية، ثم أضاف كوفن:

- سـمعتُ أيضًـا أن قائدهم لا يلمس ماء البحر، ولا يمسـك الحربة، ولا ينظر إلى حوت حي

قال أوين:

- لا أعلم يا سيد كوفن، يبدون كطائفة من المتديّنين المتعصبين لا أكثر
- في الحقيقة يبدون مثلك يا سيّد!

انتبه له أوين أكثر وضيّق إليه عينيه وقال في استغراب:

- أستميحك عذرًا؟!!
- لقد رأيتُ بعضـهم، وقد كانوا يشـبهونك كثيرًا، فهم يحلقون رؤوسـهم ووجوههم حتى لا يبقى فيها شـعرة واحدة، ظننتكَ أحدهم أول ما رأيتكَ، قبل أن تثبتَ لي أنك غبي مثل قبطانك

ربما أراد أوين أن يرُد الإسـاءة، لكنه انشـغل بالتحديق في طبقه في استغراق مثل باقي الرجال، حتى نبههم كوفن قائلًا:

- ماذا عنكَ أيها المحترم؟ لم أسمع صوتك منذ أن رأيتك

كان دكرور يجلس في سـكون تام، بالكاد يحرك يده ليأكل، ويسـتمع بإنصات شديد، ويفكر في كل كلمة بعناية، ربما ابتسم مرة أو مرتين، وأومأ برأسه بضع مرات، لكن غير ذلك؛ فكان كأنه غير موجود.

واستغرق الرجال برهة حتى قال موريس:

- آه! إن دكرور لا يتكلم.. إنه أبكم

قال آخر كلمة فبصقت جيرترود ما ارتشفته من جعة وأخرجتها من أنفها في الكوب وهي تسعل وتبصق، فضحكوا وضحك دكرور بشدة حتى أصدر صوتًا، وقال كوفن:

- فليرحمنا الرب! أبكم وقزم وأم ورضيعها؛ على متن سفينة تحويت!

قال عمار من غير أن يبتسم، وهو يخفي وجهه:

- انتظر حتى ترى بوهاردي وديبجو!



(2)

جلس الرجال على المرفأ الصغير حتى غابت الشمس وجنّ الليل، تتدلى أقدامهم العارية إلى الماء، يسكبون الجعة في بطونهم بلا توقف، ويمررون غليونًا فيما بينهم، ويتشاورون في أمرهم، فأكمل أوين كلامه:

- ولمَ يجب علينا الذهاب؟ لنعُد إلى الجوف ونأخذ حذرنا أكثر إذا خرجنا

ردّ موريس:

- وإذا خرجنا في مرة ووجدنا عاهرة نانتوكيت أمامنا.. ماذا إذًا؟ أؤكد لك أنها هي من سينكحنا وليس العكس

ضحك الرجال إلا أوين الذي رَد بجديّة:

- وهل ستجدها راسية في ذلك الميناء؟ ثم إن هذا الرجل لا يعرف اسم سفينة الجنود الحوّاتين هؤلاء.. من الممكن أن تكون سفينة أخرى

ردّ مافي:

- سفينة أخرى غير التي قتلت نون؟ فليرحمنا الرب إذًا

- حتى وإن كانت هي نفسها تلك العاهرة فهل ستفجرها هي الأخرى؟

قال عمار:

- ليس لديّ مانع في ذلك

وقاطعه سيجورد:

- من منكم رأى نون في الحقيقة؟

أجاب مافي:

- كلنا تقريبًا.. عداكَ أنت ودكرور بالطبع، وعمار؟.. هل كنت معنا يا عمار؟
- لا، وحتى وإن كنت فلا أتذكر

قال سيجورد:

- إذًا هل كان نون حوت عنبر؟ أم أنه يشبه أطلس؟

أجاب أوين:

- بالتأكيد كان حوت عنبر
- حسنًا ربما هذا يصدّق كلام كوفن، ربما كان حوت العنبر الذي قتله هؤلاء الجنود هو نفسه نون

همس دكرور بعد برهة من الصمت:

- ماذا عن أطلس؟.. أي نوع من الحيتان هو؟

أجابه أوين:

- إنه من الحيتان الرمادية، كان هنري يقول أن ذلك النوع قد انقرض منذ زمن...
- انقرض؟
- أي لم يعد له وجود

قال سيجورد وهو يضحك:

- ربما لذلك كان هنري أكثر من يخشاه

وعاد دكرور يسأل:

- كيف يبحث عنهم إذًا؟
- إنه لا يزال يشعر بهم، ولا يصدق أنهم انقرضوا

ثم قال عمار وهو يضرب بقدمه الماء:

- أين هو على كل حال؟ أليس من المفترض أن يكون قريبًا عندما نلمس الماء؟

رَد مافي:

- أنا أيضًا أشعر أنه بعيد

وقال أوين أخيرًا:

- لا تقلقوا يا رفاق! سيعود في الوقت المناسب.. إنه دائمًا ما يفعل



انسحب الرجال الواحد تلو الآخر إلى داخل المنزل، وبقيَ دكرور يجلس شاردًا في المحيط الأسود أمامه، لكن يستمع لكل كلمة ويردّ على قائلها دون أن يسمعه أحد، فحتى الصمت كان يسمعه يتكلم ويخبره أن فلان قد ذهب، أو أن فلان يفكر في شيء، فحين يصبح لسانه عاجزًا عن الكلام ينبت في داخل عقله لسانين؛ لسان له، ولسان لباقي العالم.

جلس موريس بجانب دكرور وقال:

- هل ترى أننا يجب أن نذهب إلى ذلك الميناء؟

أومأ دكرور بنعم كأنه لا يوجد خيار آخر، وأردف موريس:

- لكن هل هذا قرار سليم؟

هزّ دكرور رأسه نفيًا وهو يهمس:

- إذا عدنا الآن فسنعود خالين الوفاض كما ذهبنا

فقال موريس:

- إذًا أنت غير مرتاح للأمر مثلي
- نعم، لكن لا أظن أن لدينا خيار آخر

ثم سمعوا صوت خطوات تقترب، فوجداها جيرترود تحمل رضيعها وتهدهده بين ذراعيها، وقالت حين رأتهما:

- أه! حسبتُ أن جميعكم نائمون

ثم ظلت واقفة وراءهم لا تفعل شيئًا سوى تهدئة صغيرها الهادئ بالفعل، ثم قالت:

- ما عِلّتك يا هذا؟!! كيف أصبحتَ أبكمًا بين ليلةٍ وضحاها؟

أثار حنقه بشدة فكرة أنها تأمن العواقب لمجرد أنها في منزلها، أو ربما أن موريس موجود، لكن لم يعِرها دكرور أي اهتمام كأنها لم تتكلم، حتى قال موريس وقد لف ذراعه حول رقبة دكرور وضمّه إليه يمازحه:

- إنه يفقد النطق حين يخرج من الجوف، بوهاردي يفقد بصره، ودييجو يفقد قدماه، وسامبار ورالف يفقدان حياتهما إذا خرجا من الجوف
- اللعنة! وبقيتكم لا يحدث لهم شيء؟
- لا، نخرج معافين كما دخلنا
- وما حاجتكم لذلك الأبكم هنا؟

التفت إليها دكرور، وحدجها بنظرة جعلتها تتراجع، فضحك موريس وعدل رأسه وقال:

- لقد احتجتُ لرجال يعتمد عليهم في المواقف الحرجة

- أه! مثل أخذ طفل من بين أحضان أمه...

نفض دكرور ذراع موريس عن كاهله بعصبية ونهض بسرعة ليواجهها أو ربما ليقتلها، وإذ اعتبرها دكرور ممن لا يستحق عناء إخراج الصوت من حلقه، فاكتفي بأن وقف أمامها لا يفعل سوى النظر إليها بغضب ويأسٍ، فتراجعت جيرترود حتى كادت أن تسقط في الماء، وبادلته نظرة كان فيها من التحدي أكثر من الخوف، فنهض موريس هو الآخر، ووضع يدًا حانية على كتفه، فزجرها دكرور وقفز إلى القارب الذي جاءوا عليه، ولف نفسه بالملاءة لينام، فسمع موريس يقول:

- حقًا! هل ستنام هنا؟

ثم سمعه يقول بعد برهة:

- أعلم أننا قد سببنا لكِ من المتاعب ما لا يتحمله إنسان، لكنكِ مَدينة بالاعتذار لدكرور يا سيدتي
- أنا لا أدين له بشيء
- أخشى أنكِ إن لم تفعلي، فلن...
- تبًا لذلك! لقد سئمتُ منكَ ومن تهديداتك الفارغة يا موريس!

اندهش دكرور وجحظ بعينيه، ثم كشف الغطاء عن رأسه، ورفعها عن القارب ليرى موريس يضحك بعد برهة ويقول:

- أتعلمين مِمَّ سئمتُ أنا؟! لقد سئمتُ من معاملتكِ كما لو أنكِ ملكة فرنسا نفسها، وكل ذلك من أجل ماذا؟.. من أجل أن أجعلكِ تحبينا لدرجة تمنعكِ من إفشاء سرنا، لكن كما هو معلوم دائمًا، هناك طرق أخرى كثيرة وأكيدة لمنعكِ من إفشاء سرنا...

بدأ موريس يقترب من جيرترود ببطء، وهو يقول:

- والآن.. يمكن أن يعيش طفلكِ من بعدكِ، لكن إذا أصدرتِ صوتًا فستقتلين ابنك معكِ

نهض دكرور بسرعة جعلته يتعثر وهو يهرع إليه، فوجد جيرترود يرتعد جسدها من البكاء دون صوت، ثم أمسك بذراع موريس وهز رأسه وهو يهمس في أذنه بعصبية:

- ماذا تفعل يا موريس؟!! إنها لا تستحق!

لعله يثنيه عمّا سيفعل، ويستجدي عطفه ليعفُ عنها، فرَد موريس بهدوء:

- عُد إلى نومك يا دكرور...

لكن دكرور أبى إلا الثبات، واحتضن جسد موريس كله كأنه يكتّفه، حينها جثَت جيرترود على ركبتيها، وأمسكت بيد موريس ووضعت جبينها عليها، وقالت بعد أن علا صوت بكائها قليلًا:

- أرجوكَ يا سيد موريس! أنا آسفة! لن أفعل ذلك... لن أفشي سركم أبدًا، لكن أتوسل إليكَ!

ابتسم موريس لدكرور ابتسامة غريبة، وفك ذراعيه عنه، فوضع يده على رأس جيرترود وربّت عليها، وساعدها على الوقوف، ثم قال بتهكم:

- آه! كم أنا ضعيف أمام البكاء!.. حسنًا لقد قلتُ أن هناك طرق كثيرة لمنعكِ من الكلام صحيح.. صحيح يا دكرور؟!

أومأ دكرور متعجبًا، فأردف موريس:

- أتذكرين حين قلتُ أنني سأعلم حين تخبرين أحدًا عنا؟.. حسنًا هل تعرفين كيف سأعلم ذلك؟ هه؟!..

هزت جيرترود رأسها وهي ترتعد، فقال موريس:

- هاكِ حقيقة عن أطلس.. إنه ما أن يدخل أحدًا جوفه فسيعلم أين هو وإن كان في النصف الآخر من العالم، ربما هو وراءكِ الآن ينتظر عودتنا، فاعلمي أنه سيعرف أين أنتِ أيضًا، وحينها سأعرف أنا أيضًا، فتوقعي أن أزوركِ من حين لآخر للاطمئنان عليكِ وعلى إدموند الصغير، هل أوضحتُ كلامي هذه المرة؟

أومأت جيرترود بهدوء، فقال موريس:

- هذا عظيم! لكن هناك شيء واحد متبقي.. أنتِ لم تعتذري لصديقنا!

قالت جيرترود وهي تنظر إلى قدم دكرور:

- أنا آسفة يا سيد دكرور!

لا يتخيل دكرور ما الذي تشعر به الآن، فحتى هو كان يشعر بالخوف من موريس في هذه اللحظة، ثم قال موريس:

- عظيم!.. والآن يجب أن نعود إلى الداخل لننل قسطًا من النوم، فأمامنا يوم حافل غدًا.. من بعدكِ يا سيدتي!

ورافقها موريس إلى المنزل، ودكرور يقف مكانه مبهوتًا يشـــــاهدهما يبتعدان، حتى نادى عليه موريس:

- هيا يا دكرور! لا يجب أن تنام في ذلك القارب

كان الرجال نائمين على الأرض بجوار وتحت المائدة التي أكلوا عليها، فهمس موريس كأنه يقلد صوت دكرور:

- تصبحين على خير يا عزيزتي!

وصعدت جيرترود، وظل دكرور يشاهدها مذهولًا، وعندما غابت ضربه موريس على رأسه وجعله يطأطئها، فالتفت إليه ليجده يكتم ضحكة ويقول:

- كم أنت أحمق! هل ظننتَ أنني سأقتلها فعلًا؟!



استيقظ الرجال قُبيل الفجر، فتناولوا إفطارًا متواضـعًا، ثم سـاعدوا كوفن في تحميل مركبه بثلاثة براميل من الجعة، التي اتضـح أنه يصـنعها ويتاجر بها في المدينة، فقال عمار بعد أن علم ذلك:

- لذلك كان سخيًّا في الشراب فقط

ثم انتهوا من تحميل المركب قبيل الظهيرة، وظلوا عليه يشـــاهدون كوفن وهو يودّع بناته وجيرترود، وقد توقف كثيرًا عند جيرترود ورضـــيعها، بعدها عاد إلى المركب وبدأ يبحر به من دون مساعدة الرجال، فأخذ الفتاتان يلوّحان إليه، ووقفت جيرترود تحدّق في موريس بالذات كأنها صـــنم، فلوّح إليها موريس وهو يبتسم، وأبحر المركب حتى غاب عنهم.

كان موريس يقف عند مقدمة المركب العالية، كأنه قبطان هذا المركب؛ حين سأل كوفن كأنه أحد بحارته:

- متى سنصل يا سيد كوفن؟

جفل كوفن ورَدّ:

- أه! ربما بعد الغروب، إن بقيَت الرياح على حالها

ثم سأله عمار:

- متى تركتَ مهنة التحويت يا سيد كوفن؟
- آخر العام الماضي
- هل هذا بسبب ما يقوله هؤلاء الجنود الحوّاتون؟
- ربما.. لكنني دائمًا ما كنت أشعر أن هناك شيئًا خاطئًا في المحيط، هم فقط جعلوا الأمور أوضح

قال أوين:

- إذًا أنتَ تخشـــى الناس الذين يعيشـــون في بطون الحيتان؟ أم الحيتان نفسها؟

نظر كوفن إلى الرجال ثم إلى البحر أمامه ورَدّ:

- لم أخشَ حوتًا أبدًا يا سـيّد، لكن أخبرني.. ألن تخشـى رجلًا يعيش في ظلمات البحر، يخرج منه إلى متن سفينتك؛ فقط من أجل أن يقتلك؟
- كيف يبدون هؤلاء الرجال في ظنك؟

انتبه كوفن إلى أوين وأجاب:

- يقول الجنود الحوّاتون أنهم يبدون كرجال عاديين، لكن لا أدري.. لم أقابل أحدهم من قبل

فكر دكرور "ربما أنت الوحيد الذي قابلهم وبقيَ على قيد الحياة"، ثم ذهب عنهم وجلس وحده في القارب المربوط بالمركب، بعدها بدأت الرياح تشتد والمركب يسرع، فقال كوفن:

- أرجو أن نصل والشمس لا تزال في السماء!

ثم نزل عمار وانضم إلى دكرور، وخلع عنه طاقيته على سبيل المزاح، لكنه انتهى حين ضربه دكرور، فأعاد إليه طاقيته وقال:

- كم تصبح عكر المزاج حين تفقد صوتك!

رمقه دكرور بطرف عينه ثم عاد إلى شروده في البحر، فأردف عمار:

- حسبتُ أن أطلس سيأتي بحلول الآن، لكنتُ عدتُ إليه وتبًا لذلك العجوز ولتلك المدينة ولعاهراتها.. أه! ربما ليس العاهرات

ضحك دكرور بشدة فقال عمار:

- ماذا؟! ألم تكن أنت السبب في ذهابي معكم؟ لقد قلتها بذلك اللسان عديم الفائدة "سنجد لك فتاة يا عمار" ألم تقل ذلك أيها الوغد؟

مدّ دكرور إليه يده للمصافحة وإبرام الاتفاق وهو لا زال يضحك، فصافحه عمار وقال:

- وكأن هذا سيضمن لي شيء

ثم جاءهم صوت من فوقهم من على المركب يقول:

- لن يفعل لك القديس دكرور شيئًا، دعك منه يا عمار وسيحقق سيجورد كل أحلامك
- لا بأس من التأكد يا سيجورد.. أليس كذلك؟

وظلوا على حالهم طوال النهار، يبحرون بمحاذاة شـــاطئ طويل ورفيع، حتى أنهم كانوا يرون جهته الأخرى في بعض المناطق، ثم بدأوا يلتفون من حوله إلى الجهة الأخرى كأنهم يعودون أدراجهم، لكنهم ابتعدوا عن الشاطئ هذه المرة، وإن لم يزل في مرمى البصر.

وكانوا كلما أبحروا أكثر في ذلك الاتجاه كلما زاد عدد المراكب والســفن التي يصادفونها، حتى لاحت من أمامهم يابسة يتجهون صوبها، فقال عمار:

- هل وصلنا؟

رد كوفن:

- كدنا نصل.. هل معك شيئًا من أجلي يا سيد أليكساندر؟

ودون أن يتكلم؛ أخرج موريس من جيبه صُـــرةٍ صـــغيرة من العملات وألقاها إلى كوفن، فالتقطها الأخير ونظر بداخلها وتفحصـــها بعناية، ثم وضعها في جيبه وقال باستحسان:

- حسنًا.. لا بأس يا سيد أليكساندر

وصـــلوا إلى تلك اليابســـة أخيرًا، فوجدوا أنها ليســـت نهاية الطريق، بل كانت تنفتح عند مضيق يفضـي من وراءه إلى خليج واسع، وبعد أن عبروا ذلك المضيق قال كوفن:

- ها نحن ذا!

كانت المدينة تحتل جزءًا كبيرًا من شـاطئ ذلك الخليج، وكان الميناء وما وراءه أكثر شـــيء واضـــح فيها، إذ كان أكثر اكتظاظًا وربما أكثر ســوادًا، يخرج منه أعمدة من الدخان الأســـود من أكثر من موضـــع، كأنها كانت تحترق وقد أخمد ذلك الحريق.

وقف الرجال في صـف يشـخصـون بأبصـارهم نحو الميناء، توقع دكرور أن ذلك الميناء يعج بسـفن الحيتان الذاهبة والآتية والراسـية، لكنها أيضًـا لم تكن قليلة على الثلاث أرصـــفة الكبيرة التي تخرج من الميناء كأنها ثلاث

ألسـنة، فقط كانت أقل من المتوقع، أو ربما هو لم يرَ هذا العدد من الحوّاتات في مكان واحد من قبل.

ودون أن ينبس أحدًا منهم بكلمة قال كوفن:

- هل اشتقتم إليها لهذه الدرجة؟! كأنكم ترونها لأول مرة!

وتقدموا أكثر نحو الميناء واقتربوا من الرصـــيف الذي في المنتصـــف، والذي كانت ترسـو سـفينة إلى أحد جانبيه، ويبدو من أصـوات البحارة من عليها، والحشـد الذي في انتظارها؛ أنها قد وصـلت للتو هي الأخرى، فاتجه كوفن إلى جانب المرفأ الآخَر، وأثناء ذلك سمعوا أوين يقول:

- فلتحل بي اللعنة!

تعجب دكرور ونظر إلى أوين فوجده ينظر وراءه وعلى وجهه علامات الرعب، فالتفت إلى حيث ينظر ليجد السفينة الأخرى والتي كانت تبدو سفينة صيد حيتان عادية وربما أصغر من العادية بقليل، حتى سمع أوين من خلفه يقول:

- يا رفاق! إنها هي... العاهرة!! إنها عاهرة نانتوكيت!

فعلموا أنها ليست سفينة صيد حيتان عادية.



(3)

تشتّت أطلس وشعر بالاضطراب كما لم يشعر من قبل، شعر به في كل شـــيء من حوله حتى في الهواء فوق السـطح، فهو الآن يشــعر برجاله لكن غير متأكد إن كانوا قد عادوا، ويرى الحوت البعيد بأم عينه وليس بعين أخرى، إضافةً إلى ذلك كان يسمع صوتًا بشريًّا آتيًا من فوق السطح.

لم يكن يسـمع الأصـوات التي في الهواء كما يفعل في الماء، لكن ذلك الصوت البشري كان قويًا يخترق الماء والأذن، يعلم أن ذلك صوت صراخ البشـر عندما يتألمون، لكن لَم يعلم أبدًا لِمَ يفعلونه، فكثير من الكائنات تبكي لكن دون أن تحدث كل هذه الجلبة.

شـتّته ذلك الصـوت عن أي شـيء آخر، ورأى الحوت يبتعد أكثر، ورآه ينزل تحت السطح ويتوقف ويلتفت، بل أطلس هو من جعله يفعل ذلك، شعر بما يشـعر به، وأكثر ما كان يشـعر به هو الخوف، لم يعلم إن كان خوفًا منه أو من كيانج أو من الصـراخ البشـري، فتركه يمضـي في سـبيله بعد أن علم أين هو وحفظ ذلك المكان حتى يعود إليه في وقت آخر أنسب.

وعاد ينتبه إلى صـوت الصـراخ المزعج الذي كان مصـدره من فوق كيانج، فعلم أنه أحد سـكانه يبكيه وأنه وحده، إذ كان جوف كيانج خاليًا من سكانه، وكيانج نفسه كان مصـابًا بحربة يتدلى منها حبلها في الأعماق، وفي كامل جسده إصـابات بالغة أشد من إصـابات نون، فأدرك أطلس متأخرًا أن السفينة المائلة التي صـادفها قبل قليل؛ هي ما فعل ذلك، وأنها مصـدر خوف الحوت الآخر.

ظهَر أطلس فوق السطح إلى جانب كيانج ونفث، فسكت صوت الصراخ، شـعر أطلس أنه لا يجب ترك ذلك الرجل وحده في ذلك المحيط المظلم ليعيش فوق ظهر حوت ميت، لكنه أيضًـا لا يمكنه المكوث إلى جانبه للأبد، ففكر أن يبتلعه وربما يسـكنه جوفه، وشـعر أن هذا واجبه تجاه كيانج أولًا وهذا الرجل ثانيًا، كما أنه ربما سيعرف منه ما قد حدث.

ففتح أطلس فمه وأخرجه فوق السـطح يسنده على كيانج، وبعد مدة سـمع الرجل يتكلم وهو يبكي، وشـعر به يربّت على فمه قبل أن يدخله، ثم أطبق أطلس عليه برفق، وسـحب نفسًـا كبيرًا قبل أن يودّع كيانج بأن يدفعه بفمه كأنه يقبّله، وغاص عائدًا من حيث أتى.

ولم يعجَب من أن رجاله قد اختفوا على اليابسة مجددًا، فلم يشغل باله سوى بأن يعود إلى اليابسة حيث تركهم في أقرب وقت، ليكون في انتظارهم قبل أن يعودوا.

استغرق بقية الليل وجزء من النهار حتى خرج من المحيط الهادي، يسبح دون كلل وحتى عندما كان يصعد للتنفس فكان يفعلها وهو يسبح، ولم يلبث حتى وصل إلى مفترق الطرق حيث الطريق المختصر من بين الجليد والطريق الطويل الذي أتى منه، وقبل حتى أن يقرر أي الطريقين يسلك؛ راوده الشعور برجاله مرة أخرى.

توقع أطلس أن السبب في دخولهم وخروجهم المتكرر من الماء وإلى اليابسة؛ هو أنهم يعودون إلى اليابسة عندما لا يجدونه في المياه، وذلك ما جعله يقرر أن يسلك الطريق الصعب والغير مأمون لتوفير الوقت والوصول أسرع، فقد كان طريق كالمتاهة في داخل الجليد نفسه، وضيّقًا بالكاد يتّسع لحوت في حجم أطلس، لكن ليس أي من ذلك ما يجعله خطرًا، بل كونه تحت الماء من دون متنفّس؛ ما جعله مقبرة للحيتان.

خرج أطلس مرة أخيرة إلى السطح حيث الهواء والنَّفَس، ليجد بجانبه يابسة جليدية عظيمة شاهقة، فسحب نفسًا كبيرًا مَلأ رئتيه، ليعينه على البقاء تحت الماء لأطول فترة، ثم لم يغُص كثيرًا بمحاذاة تلك اليابسة حتى وجد أول الطريق، والذي كان عبارة عن صدع عظيم تحت الماء في قلب تلك اليابسة الجليدية.

فسبح إلى داخلها بسرعة، معتمدًا في طريقه على ما يذكر من آخر مرة سلك ذلك الطريق مع كيانج، فكان ذلك النفق يتفرع إلى إثنين آخرين فيتخذ أحدهما، ثم ثلاثة آخرين فيتخذ أحدهما وهكذا، حتى وصل إلى قاعة كبيرة كأنها قلب هذه اليابسة، لا يذكر أنه مرّ بها من قبل، فصعد أعلاها طلبًا للهواء لكنه عاد خائبًا وأراد أن يكمل طريقه، لكن استوقفته رؤية حوت صائب متجمّد ومحفوظ في داخل الجليد.

هرع أطلس وابتعد عنه بحثًا عن مخرج من تلك القاعة، ورأى حوت آخَر لم يعرف اســمه ثم حوت قاتل ثم غيرهم كثيرين، وتظاهر بأنه لم يرَ شــيئًا وقد زاد توتّره وزادت سباحته العصبية، وخرج من أول فتحة يجدها، وظل يســبح بداخلها حتى شــعر بها تضــيق، وقبل أن يصــل إلى آخرها علم أن آخرها ســد، فعاد أدراجه بســرعة وقد بدأ يشــعر أن هواءه ينفد، فعاد إلى القاعة وســلك طريقًا آخَر أطول من الســابق لم يعلم له من آخِر، فأدرك أنه ربما يكون الطريق الصـــحيح أو على الأقل طريق يخرجه من تلك المتاهة إلى السطح.

وظل يســـبح فيه وهو لا ينتهي، والهواء في رئتيه ينتهي، لم يكن الهواء في رئتيه قليلًا لهذه الدرجة من قبل، وذلك ما جعل شــعوره بالاختناق أقرب وأسـرع وأشـد، فزاد من سـرعته ممّا جعل الهواء ينفد أسـرع، فزفر بعضًـا ممّا في رئتيه دون أن يجرؤ على أن يشهق الماء.

حينها لم يقدر على التفكير في شيء أو الشعور بشيء، أخذ يضرب بذيله وبجسده سطح وجدران ذلك النفق يكاد يكسره، ولا يملك من أمره سوى أن يكمل السباحة علّه يدرك نهاية الطريق، قبل أن يدرك نهاية حياته.

الفصل التاسع

"العَاهِرة"

(1)

حملوا أســـلحتهم وأخفوها بين أرديتهم، والبنادق غطوها بأقمشـــة وراء ظهورهم، وإن لم يخفوا الحراب التي في أيديهم، بينما كان كوفن يدفع لرجل يعرفه أجرة رســو مركبه في الميناء، ثم همّوا لينزلوا من المركب بســرعة لتفقد السفينة وتفحصها عن قرب، لكن استوقفهم كوفن قائلًا:

- مهلًا! ألن توَدّعوا كوفن العجوز وتسدوه خدمة أخيرة؟

قال موريس وهو يجزّ على أسنانه:

- ماذا تريد؟
- فقط براميل الجعة الثلاثة

وأنزلوا البراميل وحملوها على عربة تُجَرّ باليد، وأســـرعوا حتى تركوا كوفن خلفهم مع عربته دون أن يودعوه.

كان ميدان الميناء مكتظًا بالناس على نحو غير مريح بالنســـبة لأناسٍ قضـوا أعوامًا طِوال في مكان مغلق مع بضـعة رجال آخرين، تسيطر على الأجواء رائحـة هي مزيج بين زيت الحيتـان وماء البحر والعرَق، وكـانت براميل الزيت مكدسة بعناية كأهرامات صغيرة من دون أن يتبينوا إن كانت فارغة أم ممتلئة، وقوارب التحويت ملقاة هنا وهناك منها الســـليم ومنها ما يحتاج لإصلاح كحال أكثرها.

وأينما تنظر تجد أحدًا يفعل شـــيئًا ما، حدادون يضـــربون على حراب، ونجارون يضـــربون على قوارب تحتاج للإصـــلاح، وصـــانعو البراميل وصـانعوا حبال، وصـانعو أشـرعة، فكان الجميع يبدون مشـغولين، حتى من كان منهم لا يفعل شيء كان مشغولًا بالوقوف في ثبات ووقار كأنه يُصلّي.

وإذ كان أكثر الناس يقفون أمام الســـفينة عاهرة نانتوكيت، فتوجّهوا إليها وقال موريس:

- لنبقَ معًا.. ولا تشرُدوا

ساروا بين الحشد حتى توسطوه، فكان أمام السفينة رجلًا يقف على منبرٍ عالٍ، ووراءه دستة من الرجال المتجهمين الصُّلع مثله، ومنهم من كان يمشي على متن السفينة بوقار يتأمل الحشد ولا يشيح عنه، ولم يكن منهم من يتحرّج من إخفاء صلعه، على عكس أوين الذي كان يرتدي قبعة كبيرة تجاهد لإخفاء صلعته دون جدوى.

كان الرجل يتكلم رافعًا قعيرته بطريقة وقورة توحي بأنه يعِظ حتى وإن لم يكن يفعل، فأدركوه يقول:

- ...ربما لم تكن خطيئة يونس أنه قد عصى ربه، بقدر ما كانت أنه قد نسيَ أن سلطان الرب في البحر كما هو على البر، وأنتم أيها الناس لا تنسوا ذلك إن ارتكبتم الإثم، لكن إن نسيتم فاعلموا أنه إن ضاقت بكم الأرض؛ فلن يسعكم بحر، وإن ضاق بكم البحر؛ فلن يسعكم إلا جوف حوت...

حينها عَلَت همهمات من الحشد، سرعان ما سكتت حين أكمل الرجل:

- نعم يا إخواني! لا يكف الناس عن ارتكاب الآثام، ولا يكف الرب عن المغفرة لمن تاب إليه وعلم أن خلاصه بين يديه وحده، لكن من ظن أن خلاصه على سفينة هشة، تبحر به في بحر متقلب، لتقِله إلى أرض أخرى؛ فهؤلاء لم تكف الحيتان عن التقامهم بأمر ربها حتى وقتنا هذا

سكت الرجل يقلب الكلمات في رأسه، فنظر دكرور إلى الناس من حوله فوجدهم مستغرقين في الإمعان، ووجد رفاقه أكثر الناس إنصاتًا واهتمامًا بهذا الرجل وكلامه، حتى عاد يكمل:

- هي سُنّة استنها أول حوت يبتلع إنسان، لكن ذلك الحوت كان محظوظًا لأن ذلك الإنسان كان يونس النبي الكريم، أما مَن بعده فلم يبتلعوا سوى المجرمين الهاربين، فقِلة من الحيتان أعطاها الرب تلك القدرة على رصد العصاة وتتبعهم والتقامهم والاحتفاظ بهم في داخل أجوافهم، ولكن قِلة من تلك الحيتان أساءت استخدام هذه القدرة، وحرّفت أوامر ربها، واعترضت طريق عدالته، فيفرجون عن

المسجونين في بطونهم، ليس لأنهم قد أدّوا مدتهم وانتهت عقوبتهم، بل ليكملوا طريق الضـــلال بارتكاب الجريمة الأبشـــع على الإطلاق، ألا وهي القتل، ليس قتل أي أحد ســـوى البحارة، وليس قتل أي بحارة سوى الحوّاتين

ارتفعت شـــهقات الصـــدمة فور أن قال آخر كلمة، ولم تهدأ حتى بعد أن أكمل وقد رفع صوته أكثر:

- القتل رجس بشع حتى وإن كان في حق الشيطان نفسه، فما بالكم بقتل الحوّاتين الشرفاء الأتقياء وهم يسعون إلى أرزاقهم التي يسوقها ربهم إليهم في صـــورة وحوش ضـــخمة، بإمكانها أن تهلكهم بضـــربة من ذيلها!، وما أجبرهم على ذلك سوى ليأتونا بزيت الحوت لينيروا حياتنا

ثم أضاف بحماس وهو يكوّر كلتي قبضتيه:

- والآن من منكم ينتظر عودة سفينة تحويت قد غادرت منذ زمن؟

فارتفعت صيحات ثائرة من الحشد كله كأنهم رجل واحد، ثم عاد يسألهم بحماسٍ أكبر:

- من منكم فقد عزيزًا يسعى إلى رزقه على سفينة تحويت؟

جاءه الردّ بصيحات أكثر ثورة وغضب، فعاد يسأل أخيرًا:

- ومن منكم يريد أن ينتقم لهم؟

وانفجر الحشد في الهتاف والتصفيق، حتى هدأهم الرجل بيديه كأنه يربّت على رؤوسهم، وقال بعد أن سكتوا:

- قد قلتُ أن قِلة من الحيتان تفعل ذلك، في الحقيقة إنهم ثلاثة فقط، ثلاثة حيتان في ثلاثة محيطات، أظن أنكم تعلمون أننا قتلنا الذي في المحيط الهندي، والذي كان حوت عنبر يبلغ المائة وثلاثين قدمًا طولًا...

وأثناء ما كان يتكلم كان البحارة على الســـفينة وراءه يرفعون على الرافعة شيئًا مغطى، ويدلونه منها إلى خارج السفينة بجانب الرجل، وعندما استقر

بجانبه رفع عنه الغطاء بحركة مسـرحية، فكان ذيل حوت ضـخم وعريض كذيل أطلس وربما أكبر، جلده متجعد ويبدو جافًا لونه أسـود مطفي على عكس ما تكون الحيتان السوداء اللامعة.

ارتفعت شـهقات عالية من الحشـد، بدت أنها مِن كل مَن يعيش في المدينة، تخلله صوت بكاء من جهة، وهناك اضطراب من الجهة الأخرى بسبب أن أحدهم قد أغشـيَ عليه، لم يعبأ الرجل بأي من ذلك وظل ينظر إلى الذيل في استغراق كأنه سحرهُ، ثم عاد إلى الحشـد أمامه بعد أن هدأ وعاد إلى وقاره ونبرته التي تعظ وقال:

- إن لم يكن ذلك هو ذيل الشيطان نفسه.. فهو يشبهه، وإن كان الشيطان نفسـه ليخجل مما قد فعل ذلك الحوت، لكننا وضـعنا حد لكل هذا، ليس لأننا اجتهدنا أو لأننا حوّاتون بارعون، لكن هذا بفضل مجهوداتكم أنتم وسخائكم أنتم وإيمانكم بنا..

ومرة أخرى علَت صـرخات غاضـبة وتصـفيقات حماسـية من الجميع، وعاد الرجل ينظر إلى الذيل ويقول:

- ليتكم رأيتموه قبل أن يُحَنّط و...

قاطعته امرأة غاضبة من الحشد:

- ماذا عن البشر في بطنه؟
- ربما حسـب سُـكان جوفه العاهرة سـفينة تحويت عادية لكنها لم تكن كذلك، كما أننا لم نكن حوّاتين عاديين، فقد كنا على أتم الاسـتعداد لهم حين تسللوا إلى المتن، فلم نبقِ منهم حيًا

والتفت عنها إلى باقي الحشد وأردف:

- أما عن الحوتين الآخرين فهناك السفينتان "ألاباما" و"كانتون" يجوبان الأطلسـي والهادي بحثًا عنهما، وسـتسـاعدهما عاهرة نانتوكيت قريبًا، وما هي إلا مسـألة وقت حتى نجدهم، وقريبًا سـتنقضـي مخاوف البحارة، ويشفى غل صدوركم، فقط ضعوا ثقتكم في جنودكم الحواتين

صفّق الناس وارتفعت صيحاتهم بالدعوات بعد أن سكت الرجل، وسرعان ما هدأوا بعدما نزل عن منبره عائدًا إلى ســـفينته، فتفرق الحشـــد كلٌ إلى سبيله، إلا ستة رجال كانوا ممسمرين في أماكنهم مذهولين.

لاحظ دكرور أنه كان يشعر بالمغص في معدته والخدر في ساقه والتنميل في رأســـه، ووجد ســـيجورد يســـند عمار الذي لم يكن قادرًا على الوقوف، وأوين ينحني ويســـتند إلى ركبتيه وقد أفرغ ما في معدته، وبينهم كان موريس يقف يداعب ذقنه بيده، مستغرقًا في تفكيره وقال:

- الأمر أسوأ مما ظننت!



كانت الشمس تشارف على الغروب، وتحل مكانها مصابيح الزيت المعلقة على عمدان رفيعة هنا وهناك، وحينها بدأ الميناء يخلو مِن كل مَن لا حاجة له فيه.

وقبل أن يسأل أحد نفسه "ماذا الآن؟" قال كوفن وهو يمسك بعربته:

- أرأيتم؟! أرجو أن تكونوا قد اقتنعتم

لم يعرفوا إن كان يقف بجانبهم كل ذلك الوقت، أم أنه قد أتى لتوّه، ثم ردّ عليه موريس:

- ربما.. أين ستمكث الليلة يا سيد كوفن؟
- في حانة شـــون العجوز بالقرب من هنا، ماذا عنكم؟ تبدون في حالة مزرية بالفعل
- حسنًا سنأتي معك

أمسك أوين بذراع موريس، وجعله يلتفت إليه وهمس له بشـيء، وتبادلوا الهمســات العصــبية فيما بينهما، حتى بدوا كأنهما يتشــاجران، ولم ينتظرهم

سـيجورد فبادر بحمل العربة عن كوفن وسـاروا معًا، فشـكره الأخير، ولما ابتعدوا بشكل كافٍ رفع موريس صوته ليسمعه من حوله:

- ...إذا أردت الذهاب فها هو البحر، لكنني لن أرحل حتى أفعل شـيئًا حيال تلك السفينة، وهؤلاء الملاعين

ردّ أوين:

- ألم تسـمع ما قاله ذلك الوغد؟! هناك ملاعين آخرين، على سـفينتين أخرتين، وأحدهما تبحث عن أطلس خصـيصًـا.. بحقك يا موريس! لقد ذهبنا أبعد مما كنا ننوي بالفعل، والآن إنه وقت العودة لتحذير أطلس

قال مافي كأنه محتار في أمره:

- لا أدري يا أوين، لن أطمئن في داخل الجوف وهذه السفينة موجودة

وهمس دكرور:

- سنندم إذا عدنا دون أن نفعل شيء أو يتغير شيء

ثم ناداهم سيجورد، وقال موريس لأوين أخيرًا:

- حسنًا يا أوين!.. لكن يجب أن نأخذ قسطًا من الراحة أولًا

غابت الشـمس فبدأت الشـوارع تسـتحيل إلى السـواد، ليسـت مظلمة، لكن سـوداء، فيجب أن تكون على بُعد خمس أقدام من الشـخص حتى تراه، أبعد من ذلك سترى ظلالًا فقط، لكن الشوارع لا تزال مزدحمة على نحو غريب في تلك الساعة من اليوم، وأثناء سيرهم سأل كوفن:

- إلى متى ستمكثون يا سيد أليكساندر؟
- الليلة فقط
- وبعدها ماذا؟
- الجميع سيعود إلى دياره
- ولماذا لم تعُد الـ"آڤريك" حتى الآن؟ أنا لم أجدها في الميناء..

سكت موريس قليلًا فأجاب أوين:

- سمعتُ أنهم سيعرجون على ميناء نيوبدفورد أولًا
- حقًا؟! لماذا؟!

سكت أوين هو الآخر فقال كوفن:

- أه! لا يهم، لكن لماذا عدتم حقًا؟
- احتاجت السفينة لكثير من الإصلاحات، و... أممم! وكانت المخازن ممتلئة بالزيت بالفعل
- ملأتم المخازن في أقل من سنة؟! لطالما كنت متأكدًا من غباء وينسلو وقلة كفاءته، لكن يبدو أن طاقمه الجديد أكثر منه براعة

وأضاف موريس:

- كما أن السيدة وينسلو كانت تواجه صعوبة في العناية بطفلها وبنفسها
- أه! هكذا إذًا!

لم يبتعدوا عن الميناء كثيرًا حتى وصلوا للحانة، دخل كوفن أولًا فحياه صاحب الحانة وبعض الجالسين، ثم تبعه سيجورد ووضع عربة اليد جانبًا، وقال بعد أن جال ببصره في المكان:

- ما هذا؟! هل هذه حانة أم كنيسة؟!!

بالفعل كان المكان هادئًا، وليس مزدحمًا وإضاءته جيدة مقارنةً بالخارج، ثم قال كوفن:

- لن تجد ما تبحث عنه قريبًا من هنا يا سيد جاتفولد، لكنه موجود دائمًا

ثم أردف إلى صاحب الحانة:

- إنهم رفاق طيبون يا سيد شون.. سيمكثون هنا الليلة

رحب بهم صــاحب الحانة ودلّهم على غرفتهم في العلية، ثم جلســوا على إحدى الطاولات، وســـرعان ما جاءتهم فتاة تحمل بعض الأكواب وزجاجة من الرَّم، فصبّت إليهم منها، وتركت إليهم الزجاجة وذهبت.

تجرع سيجورد كوبه بسرعة على مرتين، وهو يتبع الفتاة بنظراته بإمعان شديد، وقال:

- والآن.. سأذهب أنا وعمار لتلبية بعض الحاجات المُلحّة، هل يريد أحد الانضــمام؟ هه! أوين؟.. مافي؟.. ماذا عن القديس دكرور؟ لا؟.. ســيد أليكساندر؟

قال موريس بسأم:

- بحقك! ألن تستريحوا حتى؟

قال عمار:

- سنستريح بعدها

وأردف سيجورد:

- والآن وكما تعلم.. فإن تلك الحاجات باهظة الثمن هذه الأيام

قالها سيجورد ومدّ كفه إلى موريس، فسبّه موريس ووضـع في يده بعض العملات، فنظر سيجورد إليها في ذهول وقال:

- ربما ســيكفي هذا لشــراء بعض الشــموع وإنارتها في الكنيســة.. لكننا ذاهبون للماخور يا موريس.. إن لم يكن كلامي واضحًا

ردّ موريس ساخرًا:

- سيكفي هذا، والباقي ستتكفل به وسامتك

ضحك الجميع إلا سيجورد الذي بدا أنه سيبكي وهو يقول:

- كيف سيكفي هذا؟ انظر! انظر إلى هذا المسكين ذو الخمسين عامًا...

وأشار إلى عمار وأردف:

- إن لم نحتسب جيرترود فإنه لم يرَ امرأة في حياته سوى أمه

استدرك عمار:

- وحتى هذه لم أرَها في حياتي

ثم أخرج موريس صُــرّةً من العملات، وقبل أن يعطيها لســيجورد وكز دكرور في قدمه وقال وهو يغمز له دون أن يلحظه أحد:

- متأكدون أنكم لا تريدون الذهاب؟

كان دكرور ينوي أن ينضــم إليهم لكنه علم أن موريس يريد شــيئًا فلم يُبدِ رَد، وقال مافي:

- ربما سنلحق بكم بعد حين، لكن ليس الآن

وقال أوين بعد أن تجرع ما تبقى في كوبه جرعةً واحدة:

- تبًا لهذا! سأذهب معكم

حينها انتزع سيجورد كيس العملات من يد موريس، ثم نهض وأشار إلى دكرور ومافي وقال:

- ستندمون!

كان دكرور متأكد بالفعل أنه ســيندم، وشــبه متأكد أنه ســيعود عن قراره هذا، لكنه مكث لكي يعلم ماذا يريد موريس منه ولا يريد لأحد أن يعلمه، أو ربما لم يكن يريد أن يفعل أشياء ستذكره بما كان عليه في زمنٍ بعيد، وتعيده أكثر إلى عالم البشر الذي مقته طوال حياته، ويحاول أن ينساه منذ أن سكن جوف أطلس.

ثم قال موريس بعد أن غادر سيجورد وعمار وأوين بصحبة كوفن:

- هناك أشياء أهم لنفعلها يا رفاق! يجب أن تغرق تلك السفينة

★★★

(2)

وبمجرد أن نظر موريس إلى دكرور، أومأ الأخير استحسانا في تأكد، وقال مافي:

- ألن ننتظر الرجال؟
- لا، لا أريد أن أسمع تذمر أوين
- حسنًا.. المفترض أن يكون الأمر أسهل عندما نكون نحن الثلاثة فقط.. صحيح؟!

رَد دكرور:

- ربما، لكن هذا على حسب ما سنفعل

فقال موريس بعد أن انتهى مما تبقى في زجاجة الرَّم بسرعة:

- ليس هناك خطة يا دكرور.. إن كان ذلك ما تسأل عنه

وهمّوا بالخروج، وكان كوفن قد عاد من الخارج يجلس مع صاحب الحانة عند الباب، فاستوقفهم:

- إلى أين ذاهبون؟ هل ستتبعون رفاقكم؟
- أه! نعم!
- هل أدلكم إلى أين ذهبوا؟
- لا، شكرًا يا سيد كوفن، نحن نعلم الطريق
- حقًا؟! حسنًا كما تشاء يا سيد أليكساندر

ألقى موريس ببعض العملات إلى صاحب الحانة وقال وهو يخرج:

- غرفتنا محجوزة.. لن نتأخر!

كانت الشـوارع على حالها، لم تقِل ازدحامًا عما كانت، فسـاروا من حيث أتوا نحو الميناء، والذي كان أقل ازدحامًا من الشـــوارع بكثير، وعاهرة نانتوكيت راسـية حيث تركوها، وأمامها كان رجل جالسًـا وربما كان نائمًا، فابتعدوا إلى مكانٍ متوارٍ، ثم قال موريس وهو يبدو أنه ليس في كامل عقله:

- سنلتف من حولها على قاربنا

وقال مافي:

- ثم ماذا؟.. ستكون الضوضاء شديدة إذا حاولنا خرقها

ثم أشار دكرور إلى أحد مصابيح الزيت المعلقة القريبة منهم وهمس:

- لمَ لا نحرقها؟
- حسنًا هذه خطة جيدة.. هيا بنا!

ســـاروا بهدوء إلى قاربهم وخلصـــوه من الحبل المربوط بمركب كوفن، وجدفوا قليلًا ليصلوا إلى جهة الرصيف الأخرى، عند جهة السفينة المتوارية عن الميناء، وصـــعد موريس أولًا، ثم توقف ليتفقد ســطحها، ثم أشـــار إلى دكرور ومافي وأكمل طريقه.

كان سطح السفينة مظلم لدرجة أنك لا ترى يدك، فقط كان هناك مصباح زيت خافت لا ينير شيء؛ معلق عند مقدمة السفينة، ذهب دكرور لإحضاره وهو منحني ويسـير بحذر شـديد، ثم أخذ موريس يده الممسـكة بالمصـباح وقربها إلى شيء أسود ثم قال وهو يتحسسه:

- مدفع!

ورأوا من مثل ذلك المدفع صفًّا على طول متن السفينة، ورأوا الرافعة لا يزال ذيل الحوت الكبير معلقًا منها، ثم قاد دكرور الطريق نزولًا إلى كوثل السفينة، ومنه إلى مخزن البراميل، الذي كان خاليًا من أيّة براميل.

رأى مافي ذلك وقال:

- لن يكفي زيت المصباح لإشعال سفينة، نحتاج إلى برميل

فقال موريس:

- إذًا اذهب وابحث في مخزن المؤن

وبالفعل عاد مافي يحمل برميلًا صغيرًا على كتفه، ففتحه وأخذ يسكب ما فيه في كل مكان من حوله حتى على الجدران والسقف، حتى أفرغه بالكامل، ثم عاد يقف مع موريس ودكرور وقال:

- سيفي هذا بالغرض.. من بعدِكَ يا دكرور!

تقدم دكرور خطوة، وسحب نفسًا ورفع المصباح أعلى رأسه، وألقاه لأبعد ما أمكنه، فانكسر واستشرت النار في المكان بسرعة غير عادية.

وهرع الثلاثة نحو السطح، ورجعوا إلى قاربهم بسرعة، ثم نزلوا إلى الميناء، فوجدوا الرجل حارس السفينة قد استيقظ، وإن كان لا يزال جالسًا لا يفعل شيء، فابتعدوا عن الميناء بهدوء وثبات، والتفت دكرور خلفه فوجد السفينة كأنها نائمة لا تعلم شيئًا عمّا يستعر بداخلها.



غادروا الميناء مسرعين فقال مافي بمرح:

- سيندم عمار أشد الندم أنه لم يأتِ معنا!

وهمس دكرور بسعادة:

- الآن يمكنني الذهاب إلى الماخور وأنا مرتاح البال

فقال موريس:

- حسنًا، لك ذلك أيها المنحرف! وستذهب معنا يا مافي
- بالطبع! لكن يجب أن نعود إلى الحانة لنسأل كوفن عن المكان

ثم توجهوا عائدين إلى الحانة، ودكرور في المنتصـــف يعانق بذراعيه أكتاف مافي وموريس، اللذان كانا يغنيان أغنية "سُكّان الأطلسي" ذات اللحن المرح السريع:

نحن لا نصيد الحيتان.. إنّا نصيد الحوّاتينَ

كنا للبحر هاربين.. ثم غرقنا ما متنا أو حيينا

نحن من بالحبس حكم علينا.. ثم ضللنا ما اهتدينا

نحن من نسكن المحيط.. فلا نخرج إلا كل حينَ

فلتخشَ الخارج من البحر.. ولتخشَ مِن جوفه الخارجينَ

أجسادنا ملأى بالندوب.. لكن ما صابنا عِلٌّ وما عيينا

نرشق الحراب في القلوب.. ونبث الخوف في السفينة

فاغلِ ما استطعت من زيوت.. واجمع ما شئتَ في الخزينة

لكن لا تظن بذلك أن تعود.. منتصرًا إلى أهلك في المدينة

فلسوف نكون إلى جوارك.. فلا تبدأ في البكاء والأنينَ

إذ فأنت ميت لا محالة.. وسنعود نحن سالمينَ

لكن لا تحزن يا رفيقي.. فهذا ما نفعل من سنينَ

فنحن لا نصيد الحيتان.. بل إنّا نصيد الحوّاتينَ

إنّا نصيد الحوّاتينَ.. إنّا نصيد الحوّاتينَ

بالرغم من أنها أغنية ســـوداوية في معناها؛ إلا أن لحنها المرح لا يدل على ذلك، فلحنها دائمًا مرح، يمكنه أن يكون حماسيًّا إن أردت لكنه لا يكون حزينًا أبدًا، وكانت تلك هي آخر أغنية يألفونها بعد أن عاد أوين من بريطانيا، وأخبرهم عن الشـــائعات المنتشـــرة بين الحوّاتين أن هناك بشـــرًا يسكنون المحيط ويغرقون السفن.

ساروا في الشوارع وهم يغنونها بحماس ومرح وبصوت عالٍ يتبخترون في الطرقات، حتى أن بعض المارّة من سكان المدينة وقفوا يشاهدونهم بسعادة كأنهم يؤدّون عرضًا ترفيهيًّا، غير مدركين أنهم يعنون كل كلمة في تلك الأغنية.

وربما انشغلوا كثيرًا بالغناء حتى ضلّوا طريقهم عدة مرات، جعلهم ذلك يسخرون من أنفسهم، ثم وجدوا الحانة أخيرًا ودخلوا وهم على حالتهم يضحكون، فقال لهم كوفن بابتسامة فور أن رآهم:

- أه! هل عدتم بالفعل!

قال مافي:

- لقد نسينا الطريق، أخبرنا إلى أين دللت الآخرين؟
- لمَ لا تسألوهم؟ هم أيضًا قد عادوا وينتظرونكم بالأعلى

تعجبوا من ذلك وصعدوا بسرعة لكي يخبروا البقية بما فعلوا، ويعلموا منهم ماذا فعلوا هم أيضًا ويدلوهم على الطريق، فصعدوا إلى غرفتهم، وكوفن وراءهم مباشرةً، وقبل أن يدخل مافي الغرفة أولًا، التفت دكرور وراءه إلى كوفن ليجده يصوب بندقية نحوهم، فأشهر مسدسه لا إراديًا هو الآخر، وحين كاد أن يضغط على الزناد وكزه موريس قائلًا:

- دكرور!.. اخفض سلاحك!

عاد دكرور يلتفت إليهم دون أن يخفض مسدسه عن كوفن، فوجد موريس ينحني ليضع بندقيته على الأرض بيمناه، ويرفع يسراه بمستوى رأسه، ومافي يقف رافعًا كلتي يديه أمام باب الغرفة، وفوّهة بندقية تخرج من الباب مباشرةً إلى رأسه، فقال كوفن:

- ضع المسدس على الأرض يا سيد!

وبعد برهة من التفكير امتثل دكرور للأمر على مضض، فقال حامل البندقية من داخل الغرفة:

- والآن ادخلوا بهدوء!

كان دستة من حاملي البنادق والمسدسات في الداخل يصوبونها إليهم وجميعهم حليقي الرؤوس، مثل الذي كان جالسًا يلعب بسكين بين يديه، والذي عرفه دكرور على الفور، فكان الأصلع الذي يعظ في الناس عند السفينة، فألقى إليهم نظرة لامبالية وقال بابتسامة:

- مرحبًا بسكان أطلس!

ازدرد دكرور ريقه، وأغلق عينه في استسلام وطأطأ رأسه، وجحظ باندهاش حين عاد يفتحها ورأى عمار نائمًا على الأرض، وأوين بجانبه ينزف من أنفه، وكلاهما مربوطان بالحبال من أرجلهم وأيديهم وأفواههم.



(3)

- سيسعد الزعيم كثيرًا لرؤيتكم.. قيّدوهم!

قالها الرجل ونهض، فقال موريس وأحدهم يربط حبلًا حول يديه من وراء ظهره:

- أولستَ أنتَ الزعيم؟ حسنًا أعتقد أنه لا داعي لكل ذلك، فقد كنا نبحث عنكم بالفعل

قال الرجل بابتذال كأنه تفاجأ:

- أهذا حقًا؟ لماذا لا تبدون سعداء لرؤيتنا إذًا؟...

قال مافي دون أن يدعه يكمل:

- أين سيجورد أيها الوغد؟
- من؟.. أه! صحيح يا سيد كوفن لقد قلت أنهم ستة

ردّ كوفن بتوتر:

- لا أعلم يا سيدي.. لقد ذهب مع هاذان الإثنين ولم يعد معهم

نظر الرجل بازدراء تحته إلى أوين وعمار، وركل عمار بقوة في بطنه حتى أيقظه غير قادر على التنفس، فاندفع مافي نحوه، لكن ضـــربه من كان يقف بجانبه بكعب بندقيته في بطنه، مما جعله ينحني، واســتطاع دكرور أن يســدد له ركلةً أسـقطته، فعاد الرجل ينهض بسـرعة ووضــع سـكينه على رقبته، فرفع رأســـه ونظر إليه في تحدٍ كأنه يترجاه أن يحز عنقه، فقال موريس وهو يكشر عن أنيابه بصوت أشبه بالزمجرة:

- قلتُ لا داعي لذلك! أنتَ تعلم من نحن وما فعلنا، لذا إن كنت ذكيًا كما تخبر نفســـك، فلتقتلنا جميعًا الآن، لأنه لن يجدي معنا تهديد، وإلا فلتأخذنا إلى رئيسك دون أن تجعل نفسك غبيًا أكثر من ذلك

بعد أن ســـكت موريس ظل الرجل ينظر إليه باهتمام لبرهة من دون أن يرفع سكينه عن رقبة دكرور، وبعدها أجهش في ضحكٍ غير مبرر، وبادله رجاله الضحكات الساخرة، وحتى موريس أخذ يضحك معهم.

كان الرجل قد رفع سكينه عن دكرور، فأشار به إلى موريس وقال:

- بغض النظر عن أن الزعيم ربما يريدكم أحياء، إلا أنك تعجبني.. والآن هيّا بنا!

قاد الرجل الطريق إلى الخارج، فيما أشـــبه بالموكب، وثلاثة من رجاله على جانبي ذلك الموكب، وإثنين آخرين في المؤخرة، فخرجوا من الحانة وساروا مبتعدين عن جهة البحر.

ثم قال موريس:

- لم نتشرف يا سيد!

رمقه الرجل بطرف عينه وقال:

- شادويك.. جورج شادويك، وأنتَ يجب أن تكون موريس!

انتبه الجميع أكثر وقال موريس:

- كيف علمتَ؟
- ربما أخبرني السيد كوفن، أو ربما... لا أعرف

ثم سأل عمار كوفن عن يساره:

- وكيف علمتَ أنت أيها العجوز الأرعن؟

ولما لم يتلقَّ عمار إجابة قال أوين:

- إنها تلك العاهرة جيرترود أليس كذلك؟
- احفظ لسانك! المسكينة.. كانت ترتعد وهي تخبرني، كنتُ لأدق أعناقكم وأنتم نائمين، لكن...

لم يحتَج دكرور لأن يذَكّر نفسه بأنه كان يجب عليه أن يتركها تغرق حين وجدها، واكتفى بأن قاطع كوفن بأن اندفع نحوه بكل ثقله، فأسقطه وركله ركلةً واحدة، قبل أن يضربه من كان وراءه على رأسه، ضربةً جعلته يجثو دون أن يسقط، ثم قام كوفن ووضع بندقيته على جبهة دكرور، وهو يقول:

- ستدفع ثمن ذلك أيها الوغد الأبكم!

فاستوقفه شادويك قائلًا:

- مهلًا! هل فيكم أبكم؟.. لقد أصبح ذوق الحيتان للبشر عجيبًا، والآن دعكَ منه يا سيد كوفن...

رفع كوفن بندقيته على مضض، واستكملوا مسيرتهم في صمت، وظلوا يسيرون في شوارع صغيرة ضيقة، خرجوا منها إلى الشارع الكبير الذي أوله عند الميناء، ولم يسيروا فيه كثيرًا حتى وجدوا أحدًا يسعى إليهم راكضًا وهو ينادي:

- سيد شادويك! انتظر! سيد شادويك!

توقف الجميع حتى أتى فتى صـــغير، توقف لهنية يلتقط أنفاســـه قبل أن يقول لاهِثًا:

- سيد شادويك! إنها العاهرة... إنها تحترق!



وقع قوله على شـــادويك كأن بيته هو ما يحترق، فقال بعصـــبية لأحد رجاله:

- تومســـون! أيقظ الزعيم.. وضـــع هؤلاء في مكانٍ آمن، ولا تدعهم يغيبون عن بصرك

هرع شـــادويك مع الفتى وأخذ معه واحد آخر وركضـــوا نحو الميناء، فاســـتكملوا مســـيرتهم من دونه، مروا على عدة متاجر كانت تغلق أبوابها عندما يمرون من أمامها، آخرها كان يبدو متجر للقبعات والذي كان عند تقاطع ذلك الشارع الكبير مع شارع آخَر أصغر، فدخلوا ذلك الشارع ولم يكملوا خطوتين حتى انعطفوا إلى زقاق متواري وصـــغير جدًا كطرقة في منزل، كان يفصـــل بين ذلك المتجر ومبنى آخر بدا كمصـــنع مهجور أو مخزن كبير، وهذا أيضًا مبنيًّا من الخشب مثل كل المباني في المدينة.

ساروا في الزقاق وفوّتوا أبوابًا يبدو أنها لم تفتح منذ زمن، ثم نزلوا سلمًا كأنهم ينزلون تحت المباني، وكان عند آخره بابًا خشـــبيًّا، فطرقه تومســـون فسأله صوت من وراء الباب "من؟" فردّ عليه:

- إنه تومسون!

انفتح الباب وخرجت من وراءه رأسًا صلعاء تأكد صاحبها ممن الطارق قبل أن يفتحه، ودخلوا قاعة واسعة تتوسطها مائدة كبيرة عليها أطباق فارغة وبقايا طعام يجلس عليها رجلين، ولها عدة أبواب تنفتح على بعض الحجرات التي بدت كمهاجع للنوم، إذ كان بها أســـرة كثيرة تبدو مشـــغولة،

لكن أكثر شيء في تلك القاعة إثارةً للانتباه كانت خريطة معلقة على حائط، كبيرة جدًا كأنها الحائط نفسه، رآها دكرور عدة مرات من قبل، فعلم أنها خريطة العالم، لكن هذه كانت أكثر جمالًا ودقة وتعقيدًا، إذ كان يعمّها خطوط ملتوية ونقط وعلامات وأرقام ورسومات كثيرة لحيتان.

نهض الجالسون على المائدة أول ما دخلوا، فأمرهم المدعو تومسون أن يوقظوا قائدهم، وساقهم هو مع كوفن وآخرين؛ إلى سلم آخَر يصعد لأعلى إلى مستوى آخر من القاعة، يفضي إلى ممر يدور حولها، فكان عن يمينهم سور أشبه بسور سفينة؛ يطل على القاعة، وعن يسارهم صفًّا من الأبواب أكثرها سليم وبعضها مغلق بمزاليج من الخشب.

وساروا على ذلك الممر حتى دخلوا ممرًّا آخر طويل ومظلم له أبواب عن اليمين واليسار، حتى وصلوا إلى آخِره، وألقوهم في آخر حجرة.

من الواضح أنها حجرة للمؤن، إذ كانت ذات إضاءة متواضعة جدًا، وممتلئة بأجولة وصناديق وبراميل وحبال؛ مصنفة ومكدسة بعناية، وعلى الحائط المقابل للباب كان يرتفع عمودًا من كل ركن يتصلان من أعلى بعارضة خشبية غليظة، يتدلى منها ثلاثة خنازير مذبوحة مغطاة بأقمشة بيضاء دامية، وبجانبها بعض الحبال الفارغة تتدلى كالمشانق.

أمر تومسون رجاله بربط أرجلهم هي الأخرى، فلم يبدِ أحدهم أيّة مقاومة، وبعد أن انتهوا قال كوفن بحماس:

- فقط زيادة تأكيد...

فأخذ بعضًا من الحبال، وتوجه إلى مافي وهو يقول:

- فلنبدأ بهذا الفتى الكبير!

وربط الحبل حول العقدة التي حول قدما مافي، ثم رفعها فوق العارضة، وأخذ يشد الحبل بقوة كأنه يرفع شراعًا، لكن مافي كان أثقل من الشراع فلم يرتفع، فأمر تومسون إثنين من رجاله ليساعدوه على رفع مافي، وما أن

ارتفع بضعة أقدام عن الأرض حتى تدلى يتأرجح من العارضة بجانب أحد الخنازير، ولما انتهوا منه قال كوفن وهو يتنفس بصعوبة من إثر المجهود:

- والآن دورك يا أبكم!

كرروا الأمر مع البقية وانتهوا منهم بسرعة وبدون مجهود، فصار خمستهم رأسًا على عقب، مثل تلك الخنازير المذبوحة المعلقة لتصفية دمّها.

وقف كوفن أمامهم يتأملهم بإعجاب كأنه يتأمل فنًّا قد صنعه، فبدا لهم مثل الخفافيش وهو معلق على السقف، ثم قال بنبرة فَرِحة:

- ألستم رائعين؟!

فقال موريس:

- أعدكَ أنني سأقتلك بيدي يا كوفن!
- حقًا! وكيف ذلك يا سيد...

قاطعه صوتًا من عند باب الغرفة يقول:

- ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟.. أرجو أن يكون شيئًا يستحق أن توقظني من أجله يا سيد تومسون

أراد تومسون أن يجيب، لكن كوفن هو من فعل:

- أنا من أحضر هؤلاء يا سيدي، إنهم سكان...
- لم أكن أكلمك... من أنت؟

ردّ كوفن بتوتر:

- كوفن يا سيدي! إدموند كو...

قال الرجل بحِدة وغضب كأنه يعنفه:

- لم أسألك عن اسمك!.. أريد أن أعرف من أنت حتى تكلمني!!

ردّ تومسون عنه:

- إنه من وشى بهؤلاء يا سيدي.. يدّعي أنهم سكان أحد حيتان يونس

تساءل الرجل مع نفسه بنبرة مهتمّة:

- أهذا صحيح؟!!

وحمل مصـــباح الزيت الخافت من على الجدار، وســـار ناحية دكرور الأقرب إليه، وجثا أمامه وقرّب المصـــباح من وجهه، مما مكّن دكرور من رؤيته هو الآخر، ولم يلاحظ إلا صلعه الكامل.

وأثناء ما كان الرجل يتفحص دكرور كان تومسون يقول:

- أخبرنا السيد شادويك أن نراقبهم، و...

قاطعه كوفن:

- لا تعبأ بهذا يا سيدي.. إنه أبكم

ولم يكَد الرجل يتحول إلى أوين الذي كان بينه وبين دكرور خنزيرًا؛ حتى قال تومسون بعصبية وبسرعة:

- إن العاهرة تحترق يا سيدي!!

التفت الرجل بحِدة ونهض بسرعة وصاح:

- ماذا؟!! بحقكَ يا تومسون لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم يخبرني أحد؟
- ارتأيت أنهم...
- ماذا عنهم؟!.. أيًا كانوا فتخلص منهم
- أمرك يا سيد بوتش!

فور أن قال تومسون آخر كلمة، وكاد الرجل أن يرحل؛ قال أوين يتساءل:

- بوتش؟!!!

توقف الرجل وعاد يقف أمامهم، ومال برأسه على كتفه ليستبينهم، وفعل الرجال المثل، فقال موريس:

- اللعنة! إنه هو...

ثم قال مافي:

- كنتُ أعرف أن الصوت يبدو مألوفًا

عدل الرجل رأسه، فلاحظ دكرور ابتسامة واسعة على وجهه، وسمعها في صوته حين قال:

- فلتحل بي اللعنة!.. هل اشتقتم إليّ بالفعل؟!!

فقال عمار أخيرًا:

- هنري!!!!!



كنتُ قد نمتُ على الكتاب من شدة التعب أثناء ما كنت أقرأ الفصل التاسع، واستيقظت لأكمل على الفور حتى انتهيت منه، وصُعقت حين انتهيت منه واتضح أن هنري الهارب على قيد الحياة، فقد أصبحت الأمور أكثر إثارة بعد أن خرجوا من الجوف.

كنت قد ذهبت مرة منذ زمن إلى مدينة نانتوكيت في ماساتشوستس، وكنت أعلم أن لها علاقة بصيد الحيتان قديمًا، لكن لم أكن أعبأ بأي من ذلك حقًا، فبحثت في الإنترنت عنها فوجدت فعلًا أنها كانت رائدة مجال التحويت في العالم كله، حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكن لم يكن هناك ذِكر لجنود حوّاتين أو سفن تحويت حربية أو أي من ذلك.

أخذت الكتاب ونزلت ولم أجد سوى سامبار، ودكرور وحده في الشرفة فقلت لسامبار مازحًا:

- عمت صباحًا يا سيد سامبا مبادار!

قال سامبار بضيق لا يخفي ابتسامة:

- أه! أيها الوغد! ليتني لم أخبركَ
- كنت سأعرف وحدي على كل حال يا سيد سامبا مبادار!
- أنتَ أغبى من أن تعرف أي شيء وحدك، أين وصلت في القراءة على أي حال؟
- عندما وجدوا هنري على قيد الحياة، اللعنة! لقد طار عقلي...
- أرأيتَ؟! اتضح أنك أغبى من أن تعرف من أنت حتى

تعجبت كثيرًا وتغير مزاحي إلى اســـتغراب، بعد أن تذكرت لم أنا هنا أصلًا، فقلت باستغراب:

- ماذا تقصد يا سام؟

لم يُجِب سام، وكان دكرور يقف على باب الشرفة يشاهدنا في صمت، فتوجهت إليه وقلت بانفعال شديد بعد أن ألقيت الكتاب بعنف على الطاولة:

- أتعلم ماذا؟.. لن أمكث هنا يومًا واحدًا حتى تجيبوا على أسئلتي

قال دكرور بهدوء:

- حسنًا أخبرنا بمَا تريد أن تعرف

لم أعرف حقًا ماذا أقول، ففكرت في كل شيء في حيرة وقلت:

- ماذا إذًا؟.. أعني... هل كان لي أبًا يعيش في بطن حوت مثلًا؟.. مهلًا! هل أنتَ والدي؟!!
- تبًا لك ولوالدك! لا بالطبع.. بل أنت من كان يعيش في بطن حوت يا إد... ذكرني إلامَ يشير إدي؟
- أنا كنت في بطن حوت؟!! هل هو أطلس؟ أعتقد أني كنت ســـأتذكر شيء كهذا
- ربما كنتَ أصغر من أن تتذكر، والآن أخبرني إلام يشير إد
- إدوارد
- إدوارد؟! محتمل.. وإدجار أيضًـــا محتمل، أو ربما هو إدريس أو إديسون، ولم لا يكون إدوين أو إدموند

- ماذا تريد أن تقول؟
- أعتقد أن اسمك الحقيقي ليس إدوارد يا إدموند
- اسمي الحقيقي!!! ماذا إذًا؟
- لقد قلته
- ماذا قلتَ؟
- اسمك الحقيقي
- ما هو؟
- إدموند
- إدموند؟!!!!
- إد.. موند

ربما استغرقت ثلاثين ثانية في التفكير أنظر في عينيه ببلاهة جلية، وأنا أفكر في ذلك الاسم، وتذكرت كل من أعرفهم يحملون ذلك الاسم، حتى تذكرت آخرهم والذي كان إدموند كوفن الذي في رواية سكان أطلس، وعندما تذكرت أن هناك إدموند آخَر في الرواية قد سُمّيَ تيمّنًا به؛ هوَيت أجلس بعد أن فقدتُ اتزاني دون أن أفقد وعيي، فهرع إليّ دكرور وأحضر سام كوب ماء، وشربت وأنا لا أزال غير قادر على الكلام أو على سماع سام وهو يتكلم.

وبقيت على ذلك الحال مدة أجلس في شرود بوجه واجم، وسام ودكرور بجانبي لا يتكلمان أيضًا، وبعد أن استعدت اتزاني ثم وعيي ثم رشدي؛ قلت لدكرور بنبرة باكية دون أن أبكي:

- أي إدموند تقصد؟

قال دكرور بحنان وطيبة:

- أظن أنك تعرف يا إد.. أنتَ إدموند ابن جيرترود

حينها حاولت أن أبكي لكنني لم أفعل، أو ربما لم أقدر، فقد كانت المشاعر أكثر من قدرتي على الشعور فلم أشعر بشيء، لكنني رغم ذلك قد ذرفت الدمع.

ربما كان من شدة الانفعال فحسب، من أني أخيرًا أعلم إجابة أكبر سؤال في حياتي، أو ربما لأني علمت أني كنت أعيش باسم غير اسمي، أو ربما لأني علمت اسم أمي الحقيقية، أو لأني علمت أنها كانت تحبني، أو ربما أشفقت عليها لما مرت به، أو ربما كل ذلك وأكثر.

قال دكرور بهدوء بنبرة ثابتة تخلو من أي مبالاة:

- لقد وُلدتَ تقريبًا في فبراير من العام 1846، ودخلتَ الجوف وأنت في عمر خمسة أشهر، ربما لم تمكث سوى أربعة أيام لكن كان ذلك كفيل بأن يجعلك أحد سكان أطلس، أنت آخر ساكن للجوف يا إدي.. وليس دكرور

رفعت رأسي ومسحت دموعي، وعرفت حينها بما يجب أن أشعر، قلت بصوت مختنق، بنبرة غاضبة:

- وأين هي الآن؟ أليست أحد سكان أطلس هي الأخرى؟

قاومتُ العودة إلى البكاء بصعوبة، وقال سام:

- لقد بحثنا عن جيرترود بعد... بعد ذلك، لكن لم نجدها

لم أتحمل أن أسمع منهم كلمة أخرى فانفجرت فيهم صائحًا:

- حقًا!!! لماذا؟.. لكي تقتصّون منها لأنها وشت بكم؟
- إدي**!** أريدك أن تهدأ..
- لا**!!!** لن أهدأ**!!** لا تقل لي أن أهدأ**!!** لن أهدأ بعد أن سمعت أكاذيبكم وقرأت هراءكم

وجدت دكرور قد جلس وعلى وجهه ابتسامة ساخرة استفزتني بشدة، فوقفت أمامه وواجهته وقلت بسخرية:

- حسنًا.. أخبرني أين حوتنا العزيز أطلس؟! هه؟ ولِمَ لَمْ أرَه حتى الآن؟ ألم يمُت حقًا؟ هل لا يزال في قلوبنا ولا يغيب عن بالنا؟ إذًا لِمَ أنتم هنا ولستم في جوفه؟ ذلك الذي أدخلتني إليه تحملني بين يديك وأنا رضيع

اتسعت ابتسامة دكرور أكثر وقد زادت سخريته، فأردفت بسخرية أكبر:

- لا تظن أني قد صدقت كلمة من تلك الرواية الرديئة، وإن كنت تعدها على أنها قصة حقيقية فأنت كذاب وتكذب على نفسك، إنه هوسك بتلك الحيتان اللعينة ما جعلك تتخيل قصة مريضة مثل هذه

اختفت ابتسامته ببطء، فعلمت أني أثرت حفيظته، فابتسمت بدلًا منه، فقال سام من ورائي:

- إدي! يجب أن تعتذر الآن..

ضحكت وكدت ألتفت إليه، لكن أمسكني دكرور من عنقي وألصقني بالجدار، بدا الهدوء على ملامحه، لكن كان الانفعال في صوته حين قال:

- أنا لستُ كذابًا، لقد جئتَ إلينا طلبًا للحقيقة.. وها هي الحقيقة التي نعرفها وليس لدينا أخرى، فإن أردتها فخذها كما هي ولا تتذمر، وإن رفضتها فلا تتذمر أيضًا

دفعه سام عني، فوقفت أفرك رقبتي وأنا أقول:

- لقد أضعت أسبوعًا مع مهرجين!

ثم تركتهما وصعدت مسرعًا إلى الغرفة، وجمعت حقيبتي في عجلة، ثم نزلت بعصبية فلم ألحظ دكرور الجالس بالقرب من الباب، لكن استوقفتني رؤية الكتاب موضوعًا على الطاولة حيث ألقيته، ثم نظرت إلى دكرور لأجده يبادلني النظر وقال وهو يهز رأسه بثبات:

- لا، لا تفكر في الأمر.. لن تأخذها معك

قلت بانفعال:

- لا أحتاجها! لا أريد أن أقرأ الهراء الذي تكتبه...

فتحت الباب والتفتُّ وأكملت بنفس النبرة:

- وأتدري ماذا!.. أنت كاتب سيّئ!

خرجت وصفقت الباب ورائي، خرج سامبار خلفي وقال:

- إدي! إذا أردت العودة فلا تتردّد، وهاتفني متى أردتَ...

توقفت لبرهة، أفكر في الأمور قبل أن أدرك خطأ ما أفعل، وأدرك أني بالفعل أصـــدق الحقيقة التي أخبراني بها، إذ لم يكن هناك ما يدعو لتكذيبها ســـوى التفكير فيها، وأدرك أني لم أكمل قراءة الرواية، وأني أريد حقًا أن أكملها، وأني يجب أن أعتذر لدكرور.

فكرت في كل ذلك والتفتّ ورائي لأجد دكرور ينظر إلي من النافذة، فقلت لسام:

- سأفعل يا سام.. اعتني بنفسك يا صديقي!

ورحلت على كل حال، وفي نفسي نيّة مبهمة لأن أعود.

إلى اللقاء مع...

سُكان أطلس

"حلم الجوف"